

نور عبد المجيد

ذكريات
محرمة

رواية

الدار المصرية اللبنانية

ذكريات محرمة



نور عبد المجيد

الدار المصرية اللبنانية

الإهداء

إلى «شهد»

إلى «نور»

إلى «كريم»

يوماً تعلمون أن أجمل وأغلى

ما تركته لكم مني هو أحدكم للأخر..

ببعضي يا «بعضي»

أوصيكم حباً ورفقاً!

كما الحسنات يذهبن السيئات..
هو حبي لك يمحو كل الأخطاء ..
حتى ما كان منها لا يُنسى و لا يُغتفر!

لماذا تشعر أنها لا تسكن عمارة بل تسكن تابوتًا
مستطيلًا مفتاحه في يد «جبر عطية» وحده..

لأنها يجب أن تراه كلما عادت إلى البيت.. يفتح نافذة
بيته في الدور الأرضي ويطل عليها وهي تدخل باب
البنية الصديء.. دوماً يفتح النافذة ويبتسم رغم أنه لا
يرفع عينيه أبدًا إلى وجهها..

ابتسامة صغيرة حانية يفلق بعدها النافذة في
صمت.. كانت تظنه يفعل لأنه يعرف موعد عودتها لكن
أبداً حتى في ذلك المساء الذي اعتذر فيه ياسين عن
عدم الحضور إلى العيادة وعادت مبكرة أيضاً فتح
الشرفة وابتسم..

تعلم أنه يحبها.. كل شباب حارة السكر والليمون
يفعلون.. هي

لا تأبه بأمرهم جميعاً، وحده جبر لا تريده أن يحبها..

الحب مؤلم وجبر أطيب وأظهر من أن يتألم بسببها..
خطوات وتصل إلى البيت..

خطوات ويفتح ذات الشرفة ويبتسم بعد أن يطمئن
لعودتها، لكنها اليوم لا تريد أن تراه..

هل هي خجلة؟!

من أولى أن تخجل منه.. جارها الشاب أم أمها التي
تنتظر عودتها كل ليلة بالدعاء والصلاة؟!

يرونها جميعًا تعمل في عيادة الدكتور ياسين الببلاوي
لتنفق على مرض أمها ولا يعلمون أنها في هوى الطبيب
غارقة..

كل يوم.. كل مساء تسقط بين ذراعيه وتسلمه شفيتها
وجسدها ثم تخرج إلى المرضى الذين تعرف معظمهم
من سكان مصر القديمة القادمين إلى الطبيب الشاب
الذي ذاع صيته في أقل من عام..

نعم تحبه.. ليته ما كان طبيبًا.. ولا كان ثريًا من سكان
فيلات وقصور المعادي.. أو ربما ليتها ما كانت هي
أحلام السيد ابنة ذاك الرجل الذي تركها طفلة بين يدي
زوجته التي نحتت قصصًا من دمع وصبر حتى تصل بها
إلى الثانوية العامة ثم تسقط قعيدة فراشها ومرضاها..

ذاك اليوم على كورنيش نيل مصر القديمة، وأثناء
وقوفها بتلك الصيدلية تشتري بأخر ما في جيبها من
قروش بعض الدواء لأمها، أخبرها الصيدلي بأن في ذات
البنية الجديدة هناك عيادة جديدة لطبيب شاب أخبره
بحاجته إلى ممرضة..

لا تفقه شيئًا في التمريض.. كانت في التاسعة عشرة
من العمر يوم حصلت على شهادة الثانوية العامة بتقدير
يؤهلها للجامعة لكن سلاسل المرض والفقر منعتها حتى
عن التفكير في الوقوف في صفوف مكاتب التنسيق..

عاد الصيدلي يخبرها ذاك اليوم أن لا شيء يضير في
أن تدخل العيادة وتلتقيه.. عندما يريدك القدر أن تدخل

حيث رسم لك يجند لك كل ما حولك ليزج بك زجًا إلى
خطوط لوحته..

دخلت وفي يدها علبة الدواء التي اشترتها لأمها..
دخلت

ولا شيء في ذهنها أو جيوبها سوى «لم لا؟»..
فلتجرب..

عملت في أحد المحلات أعوامًا حتى طردتها زوجة
المالك حين خافت على زوجها منها..

وحدها عواطف والدة جبر أخبرتها أن المرأة كانت
تغار على زوجها منها..

لا تذكر أنه يومًا أساء الأدب أو تجاوز في تعامله
معها، لكن عندما تُصدر الزوجة قرارًا بنفي فتاة في سنها
وضعفها حتى القدر لا يشفع..

دخلت العيادة التي لم يكن بها سوى بعض عقّال
يضعون بعض المقاعد في غرفة الانتظار..

على استحياء سألت عنه وجاءها صوته وهو يقف
بينهم يخبرها أنه من تسأل عنه..

حين اصطحبها إلى غرفته الخاصة.. حين دخلت
ونظرت حولها اشتمت شيئًا لا تعرف رائحته.. لكنها
رائحة لا تشمها إلا في غرفته وبين ذراعيه..

في صدق أخبرها أنه لا يبحث عن ممرضة.. قرر
الاستعانة بإحدى الممرضات من المستشفى الذي يعمل
فيه هو ووالده..

أرعى عينيه في خجل وهو يكمل قائلاً إنه فقط
بحاجة إلى سيدة تتولى أعمال النظافة في العيادة..
شيء في عينيه الرماديتين قيدها إلى مقعدها.. شيء
في شفثيه المستديرتين أقسم عليها ألا تنهض..

ربما تلك الرائحة التي لا تعلم حتى اليوم كنهها هي
التي خذرت أوصالها.. لا تذكر سوى أنها وضعت علبة
الدواء التي بين كفيها على مكتبه لتسأل في ألم: كم
تمنحني في الشهر؟!

رأت أصابعه وهي تلتقط علبة الدواء ليسألها عمن
يتعاطاه.. أخبرته أنها أمها.. أضافت أنها ما عادت تملك
ثمن علبة جديدة وأن جارتهم وولدها يساعدها في
شراء الدواء لكنهما فقيران مثلها..

تعبت من المرور بالمحال تبحث عن عمل ولا تعرف
أين تذهب خارج مصر القديمة..

في ألم وبقايا كبرياء قديمة كانت تراها تنكسر أمام
عيون وشفاه غريبة أعادت عليه السؤال.. كم يمنحها
في الشهر إن هي قامت بتنظيف عيادته كل يوم..

هل رأى فيها شيئاً آخر؟! هل اشتتم هو الآخر في
حضورها رائحة لم يقاومها.. ما زالت لا تعلم رغم أنها
كل يوم تسأله لم هي دون غيرها..

في تلك اللحظة أعاد بيده علبة الدواء إليها وقال:

- ستكونين ممرضة العيادة.. سأحضر من يعلمك
التمريض إن أفلحت أكملت وإن فشلت أيضاً تبقين

لمتابعة التنظيف بعد كل مريض يخرج من غرفة الكشف
وباقى الأعمال.. تجربة نخوضها معًا وفرصة وحدك
تكتبين نهايتها وتحدين مصيرها!

حين رفعت وجهها إلى نافذة جبر وهي في طريقها
لعبور الباب الضيق سمعته يفتح مزلاجها..

أسرعت تدخل قبل أن تراه يبتسم .. اليوم لا تريد أن
تراه، اليوم ياسين لم يكتف بتقبيلها وعناقها..

اليوم كان بينهما شيء آخر!

صاحت عواطف تناديه في لوم واستدار ينظر إليها
بعد أن أغلق شرفة الدور الأرضي الذي يسكنان شقته
الوحيدة المكونة من غرفتين وصالة.. هي أصغر شقة
في البيت المتهالك.. بجوارها «منور» العمارة.. الذي
اقتطع الجزء الأكبر من مساحة الدور الأرضي..

حين نظرت إلى وجهه غابت عن وجهها وصوتها رنة
اللوم..

من ينظر إلى وجه هذا الطيب الوسيم كيف لا
يبتسم؟!

حقًا السعادة على الأرض تقسم بالتساوي بين سكانها
وعواطف أخذت النصيب الأكبر في هذا الولد البار..
تبادلًا ابتسامة صغيرة حانية قالت بعدها:

- أطلبها لك من توحيدة.. لن تمانعا.. من يعرفك لا
يرفضك

ولا أحد يعرفك كما تعرفك هي وابنتها..

أرعى عينيه في سكون وأكملت هي تتقدم نحوه
قائلة:

- تسكنان هنا معي.. هذا البيت ملك لنا رغم دخله
الصغير.. أو إن شئتما اسكنا في بيتها فهو أكبر..
وأحضرا توحيدة معي هنا.. أحبها.. هي أقرب إلى قلبي
من شقيقتي.. أصعد الآن وأطلبها لك..

في حنان ضمها إلى صدره وعادت الأم في قلق تقول:

- لا تخش شيئًا.. سنتدبر الأمر.. تحبها.. أنت تعرف

وقع خطاها على الأرض..

لم يستطع أبدًا أن يحبس تلك الآهة الكبيرة التي

تسللت رغما عنه من بين ضلوعه..

يهيم بها عشقا ويهيم فيها شوقا لكن شيئا كبيرًا يقف

بينهما..

بيتها أكبر وتسكن في الدور العلوي لكنه يعلم أنه

وأمه ينفقان عليها وعلى أمها..

تملصت الأم من بين ذراعيه وانحنت تلتقط صحنًا

من الفاكهة أعدته لجارة عمرها وأم من يهواها وحيدها

وقالت في تصميم:

- سأصعد إليهما وستسمع وأنت هنا أجمل «زغرودة»

انطلقت يومًا في السكر والليمون..

أسرع العاشق يمسك بذراعها في حزم قائلًا:

- إيالك أن تفعلي.. تصعدين بصحن الطعام.. كيف بالله

يرفضون إن لم يكن لهم في الزواج بي رغبة؟! هل

تظنين أحلام تملك أن ترفض ومفتاح بيتهم في جيبك

ولا تأخذين منهم إجازًا، بل أيضًا تهتمين بأمها وهي في

عملها.. هل تظنين «طنط» توحيدة تستطيع أن ترفض

وهي تعلم أنها بهذا تجحد مساعدتنا لهم.. كأننا نشترى

موافقتهم بوقوفنا معهم.. نشترىها اضطرارًا أو عرفانًا..

هدأ ذراع عواطف بين أصابعه وفي حيرة سألته: «ما
الحل إذن؟».. عاد يخبرها أن الحل الوحيد أن يشعر بأن
أحلام تريده.. تريده حبا
لا امتنانا.. تريده رغبة لا خوفاً واحتياجاً..

عادت تخبره أن أمها تلمح لها كثيراً أنها تتمنى لو
يتزوجان..

في ألم نظر إليها وهو يقول:

- هذا يزيد الأمر تعقيداً.. أحلام يا أمي لا تريد..
العيون تفضح لكنها إن عرضنا عليها الأمر ستقبل.. يا
حبيبتى رسول الله ﷺ قال : «ما أخذ بسيف الحياء
فهو حرام»!

سكت جبر لحظة وأكمل في صوت خفيض يقول:

- ما زالت صغيرة.. سأحاول التقرب إليها.. لو رأني
كما أراها.. لو شعرت بي كما أشعر بها، أنت من تسمعين
الزغرودة.. الصبر حبيبتى.. الصبر..

لم تستطع يوماً أن تنتصر عليه في قرار يأخذه أو
طريقاً يسلكه، فلتحاول إذن أن تلفت نظر الفتاة إليه
لكنها في قرارة نفسها تعلم أنها فعلت ذلك كثيراً ودوماً..
دوماً تهرب منها الصبية الجميلة وتصر على إخبارها بأن
الله منحها «أخاً» اسمه جبر!!

يسعد كل أم أن تعلم أن ابنها ناقد النظر.. لا يلقي
الكلمات والأحكام جزافاً، إلا هي يأكلها الألم..

لماذا هو على حق دوماً؟!

* * *

«تحبين الطيب يا أحلام.. هو كابوس.. جبر لن ينتظر طويلاً..».

في هدوء رفعت عينيها تنظر إلى وجه أمها وجسدها الساكن على مقعدها المتحرك الذي اشتراه لها جبر..
دمعة صغيرة ترقرت في عيناها لتهمس وهي تنحني
تضع على كف أمها قبلة..

- هل يجب أن أقسم لك إنني لا أفعل حتى
تصدقيني؟!

بكفها الأخرى مسحت على رأس ابنتها وقالت في ألم:

- أصدق عندما تقولين الحقيقة.. ستتعذبين عذاباً
كبيراً.. لن ينظر لك ولن يشعر بك وإلا لفعل.. نحن
بحاجة إلى جبر..

قاطعتها في حدة تقول:

- ما عدنا بحاجة له.. ما يمنحني إياه الدكتور ياسين
يكفيننا، بل سأجمع بعض النقود ونسدد لهم بعضاً من
ديونهم.. صدقيني..

عادت الأم في حوار كل يوم تشرح لها أن ما تمنحه
عواطف لهم وما يفعله وحيدها ليس ديناً.. هو حب..
هو عشرة أعوام..

الديون تُسد لكن المعروف والحب لا يجب أبداً أن
نضعه إن وضعه الله في طريقنا..

هو الحوار اليومي وهو الجهاد الكبير الذي تدخله كل يوم مع أمها حيث تقاوم في جنون أن تسقط على ركبتيها وتبكي وتعلن أنها في حب ياسين غارقة.. لكن هو يحبها..

نعم كما تؤمن بوجود الأرض تحت قدميها والسماء فوق رأسها تؤمن بوجودها في قلبه..

تعلم أنه لم يفتحها يوماً في أمر الزواج لكن لم العجلة وما الداعي لها..

هو رجل لن يرغمه أحد على الزواج وجبر لم يطلبها لتمارس عليها أمها كل هذه الضغوط..

ما ضير الانتظار؟!

نظرت إلى وجه أمها الحزين.. لو أخبرتها أن ياسين يحبها وهي تحبه سئجن المسكينة.. ستخشى أن يحدث بينهما شيء..

اليوم حدث.. نعم حدث..

لكنه ضم جسدها المرتعش بين ذراعيه وقال في صدق:

- لا تخشي شيئاً.. ما زلت عذراء!

انتفضت من على ركبتيها ونهضت تخبر أمها أنها ستعد شيئاً تأكلانه.. لو بقيت أمامها لحظة واحدة أخرى لراستها تلطم خديها وتمزق شعرها بيديها وهي تذكر ما قالت على صدره..

من أين وائتها الجرأة.. كيف يسكنها الفجور؟!
بعد أن قال جملته تلك التقطت يده تقبلها وهي تقول:
«لك أنا وحدك.. اصنع بي ما شئت»..

من أين تخرج الكلمات المجنونة التي نطن أننا أبدا لن
نقولها.. من أين نفعل ما نعلم علم اليقين أنه خطأ
وحرام..

كيف قالت تلك الجملة.. كيف ينظر بعدها هو نفسه
إليها.. ألن يظنها رخيصة.. حتى عذريتها لا تهمها.. ما
تركت فرض صلاة واحدا.. في رمضان تذهب إلى
المسجد وتختتم القرآن الكريم.. ماذا أصابها؟!

نظرت إلى قنينة الماء التي أخرجتها من الثلاجة..
شيء في صدرها يخبرها أنه يراها في نقاء هذا الماء
وطهره.. ما أصابها شيء أكبر من الجنون.. شيء أقوى
من الفجور والعنه..
أصابها الحب..

الحب دون زواج حرام.. خطيئة.. الجنس دون زواج
زنى..

أفاقت على تكسر قنينة الماء بعد سقوطها من بين
أصابعها..

أصبحت زانية؟! انحنى تحاول أن تجمع شظايا
الزجاج وأمها من البعيد تصيح في لهفة: «ماذا حدث يا
أحلام؟!»

تسمع صوتها.. تفهم سؤالها لكن لا تعلم كيف تجيبها..
هي حتى لا ترى قطع الزجاج ودوائر الماء تحت
قدميها..

أصابعها ترتجف ليس أبداً كارتجافتها وهي بين
ذراعيه أو على صدره..

الرعدة الآن تختلف.. تلك الرعدة فيها زهو وحياة،
وهذه الرجفة فيها انكسار وعار..

من خلف دموعها رأت قدمي أمها المشلولتين..
جاءتها بمقعدها المتحرك وهي تسأل إن كانت بخير..

عندما نظرت إليها.. عندما رأت أمها نهر دموعها حاولت
أن تنهض عن الأرض وتتحسس طريقها إليها وسط الماء
المسكوب والشظايا المكسورة..

عندما التقت أعينهما قالت الأم في صوت كسير:

- لن أحدثك في قصة جبر مرة أخرى أبداً، ولكن هل
تقسمين لي أنك بخير؟!

لم تعد تستطيع أن تقاوم.. علا صوت بكائها ومن بين
شهقاتها الصغيرة كانت تحاول أن تخبرها وتقسم لها إنها
كما شاء حبيبها عذراء، لكنها ليست بخير أبداً، ولن تكون
حتى تعرف إلى أين يأخذها العشق، أو إلى أين هي
تأخذه وتصل به..

ليس صحيحًا أبدًا أن الناس تكره الناجحين.. الناس فقط تكره من يشعر أن نجاحه يجعله أفضل منهم..

سبعة أعوام منذ التحق هذا الشاب بالعمل في مصنع الأسمت والجميع يحبه.. سبعة أعوام وبهجت متولي رئيسه المباشر لم يوقع عليه مرة خصفاً واحداً..

ما زال يذكر جيدًا يوم دخل إلى مكتبه يسأل عن وظيفة.. فقهقه هو يومها يسأله هل جن خريج الآداب لبيحت عن عمل في مصنع أسمنت..

ابتسم جبر ذاك اليوم ابتسامته الحانية الوقور كأنه رجل في الخمسين وببساطة قال: «ولم لا؟!»

كل شيء يفتح أبوابه أمام الابتسامة وسماحة الكلمة وسمو الخلق.. علمه هذا الشاب أشياء كثيرة.. علمه أنه ليس مهمًا أبدًا من أين تخرجت، المهم هو أنك تريد أن تتعلم وتريد أن تعمل..

بعد أعوام من وقوفه على دورية بمصنع الأسمت سأله بهجت كيف يحبه الجميع وكيف يساعد هو الجميع وفي ذات الوقت يعمل أكثر منهم ويحمل عنهم الكثير ويبقى رغم كل شيء بيتسم، وصوته هادئ لا يعلو حتى وهو يتشاجر مع عامل مقصر أو سيارة تتأخر عن تحميل حمولتها أو سائق أخرق يعلو صوته في جنبات المصنع ويقف أمام شاب أصغر منه في سكون يطلب وده ويتمنى رضاه..

جبر ابتسم ذاك الصباح يخبره أنه يبالغ في وصفه..
هو لا يفعل شيئًا سوى أنه يضع «الله» في قلبه ويضع
الناس.. كل الناس في عينيه..

«حب الله يجعلك تحب الناس ويجعلهم يبادلونك
الحب حتى وإن لم يعرفوه سيد بهجت».

ابتسم وأخذ يسأل نفسه لماذا يستعيد تاريخ جبر
كثيرًا.. ربما لأنه دومًا يسأل لم لا يصبح كل الناس مثله،
بل ربما لم لا يكون ولده كهذا الشاب الذي يقف على
بوابة الثلاثين.. أو ربما يفعل لأنه يرى كل عمال المصنع
لا يفعلون ما يفعله جبر ملاحظ الوردية الصباحية كلما
جلس في وقت استراحته..

لا أحد أبدًا مثله يخرج المصحف الصغير من جيبه
ويقرأ في آياته.. ورغم هذا يعرف الأغاني ويذهب إلى
الأفلام السينمائية بل ويطلق النكات من حين إلى آخر..

كيف ينسى أنه عرض عليه تزويجه من ابنته
وترقرقت في عيني الشاب دمعة حينها يخبره بعدها أن
مقامه يكبر في صدره ورأسه كل يوم لكنه في حب فتاة
أخرى يحيا.. كيف لم يفضب وهو مديره أبدًا بل دون
حرج أو غضب انطلق يقسم أنه سيذهب معه إلى
خطبتها ويقدم له كل ما يستطيع ليساعده على
مصروفات الزواج..

ابتسم الشاب ذاك اليوم وأخبره أن فتاته ما زالت في
المدرسة ويوم انتهائها سيرجوه هو أن يتشرف بوجوده

معه كأخ أكبر حين يذهب لخطبتها..

لو كان أمر هذا المصنع الصغير في يده لجعله مديرًا عليه، لكن حتى هذا المصنع يكاد يفلق أبوابه..

تعلم منه الحنان.. تعلم أن ينظر إلى كل من يعملون في المصنع ويسأل ماذا يفعلون إن لم يستطع مالك المكان تدبير الأمر.. علمه أنه يعلم كيف يتدبر أمره لكن لا يعلم أبدًا كيف من هم أضعف منه حالًا يفعلون..

أنت تفكر وتحاول وتقدم كل ما تستطيع وفي النهاية الأمر في يد من بيده الأمر كله..

إن تغلب المصنع على الأزمة أكملوا وإن لم يفعل يتولى الله أمرهم جميعًا، وهل هناك من عليه وعلى هذا الشاب وكل من يعملون أحن أو أرحم؟!

استدار بمقعده ينظر حوله يبحث عن رجل علمه في سبعة أعوام ما لم يتعلمه في خمسين عامًا..

العلم ليس بالتكرار أو طول مدة التعليم.. العلم بصدق من يعلمنا وابتسامته وصدقته مع نفسه ومعنا..

صاح بهجت من على مكتبه الخشبي البسيط يناديه بعد أن رآه يغلق كتاب الله قائلاً:

- أقبل يا جبر.. أحتاجك معي في ترتيب شئون عقد

قران ابنتي..

تنهد الرجل في ألم.. تنزوج ابنته من ضابط شرطة ويتمنى لو كان زوجها عاملاً بسيطًا يعمل تحت يده هو

من يعقد قرانه عليها!!

حتى ابنة بهجت التي عرض عليه الزواج منها منذ أعوام تزوجت وهو باقى على حاله.. يعلم أن أمل أمه وحلمها أن تراه زوجاً وأن تحمل وليده على ذراعيها..

فقدت أطفالاً كثيرين ولم يبق لها طفل على قيد الحياة سواه.. بل يعلم أن إرضاءها أهم من حلم قلبه العنيد لكنه لا يخشى سوى الله.. يخشى أن يُشقي من يتزوجها وهو عاشق لجارته، بل يخشى أكثر أن تفتح أحلام عينيها يوماً وتراه بعد فوات الأوان.. منذ متى يحبها؟!

منذ ولدت يوم كان في التاسعة من عمره.. منذ دخلت بها أمه على ذراعيها إلى بيتها لتترك أمها تغفو وترتاح من بكائها وصراخها المتواصل..

كم تحب أمه الأطفال.. في كل مرة كانت تحمل في أحشائها جنيناً تتحول إلى امرأة أخرى تماماً ثم تفقد حملها وتعود الكسيرة من جديد..

ابتسمت حين جاءت توحيدة عروشا إلى بيتهم تقطن شقة الدور الأول.. اتسعت ابتسامتها أكثر بعد أن أصبحت أكثر من شقيقتين وزغردت وجنتاها بالفرح يوم ولدت أحلام.. حتى والده رحمه الله كان يحبها.. كان كثيراً ما يطلب منه أن يصعد إلى أمها ويحضرها.. كأنها لعبة يقترضونها قليلاً ثم يعيدونها..

لم تمنع أمها يوماً في إقراضهم الدمية الجميلة حتى أصبحت أفيونة أيامهم جميعاً.. حين كبرت وأصبح مباحاً لها أن تلعب في مدخل البيت كانت بين الحين والآخر تركز إلى بيتهم كأنها منهم..

يوم مات والده عطية الدهشوري الموظف بوزارة الدفاع كانت هي في الخامسة من عمرها.. أحبها بجنون يوم رآها تمسح دمعاته ودمعات أمه بكفها الصغيرة ثم تجلس على ركبتيه وتبكي في صمت تسأل: «متى يعود بابا عطية؟!»

وحده والدها ما استطاع أن يكون منهم أبداً.. أفاق يوماً على صراخ توحيدة تخبرهم أنه رحل بعد معركة كبيرة بينهما بقيت آثارها على وجهها وجسدها شهوزاً بعد الرحيل..

أصبحت حبيته يتيمة مثله وهي في الخامسة، لكنها يتيمة

بلا ذكريات.. كل ما تعرفه عن والدها هو عويل الأم ودعاؤها عليه كلما انكفأت على حياكة الثياب مستخدمة آلة الحياكة التي اشترتها أمه بالتقسيط على دفعات من معاش والده الراحل أو كلما جلست المرأتان بعد أن جمعنا دخلهما مغا تندبران أمره وأمر الصغيرة..

عائلة واحدة في بيتين.. نادراً ما تأكل إحدى العائلتين بعيداً عن الأخرى.. ورغم أن بيتها هو الأصغر

إلا أن كل شيء كان

يدور فيه..

اختارت أمه الدور الأرضي وسكنى البيت الصغير
لأنها مصابة بشلل أطفال قديم يجعل حركة قدمها
اليسرى ضعيفة وصعود السلالم صعبا عليها..

لله في أمره شئون!!

توحيدة الصغيرة المعافاة يضربها شلل في نصفها
الأسفل، وأمها بحمد الله ورحمته ما زالت تخطو وتتحرك
بل أصبحت تنوكتا درجات البيت وتصعد إلى توحيدة
عندما عملت أحلام في المحل..

لماذا يراها دوما كلما أغمض عينيه أو فتحهما كأنها
منقوشة على جفنيه..

لماذا كلما رأى ثوبا أو قنينة عطر أو حذاء يتخيلها
ترتديه فإن رآه مناسبا أصبح جميلا وإن رآه لا يناسبها
أشاح بوجهه عنه بعيدا..

لم يَز في عينها يوما شارة حب.. لم يَز في عينها
أبدا أي شيء يقول إنها تراه وتشعر بحبه.. هو «جبر»
رجل البيتين لكنه أبدا ليس رجلا..

قد تراه.. قد تشعر به .. عندها فقط يختلف وجه
الأرض وتثير مصابيحها في عينيه..

سيحاول أن يفعل شيئا لكنه في العام الأخير يراها
أكثر تجنبًا له وابتعادًا عنه.. ربما لأنها كبرت.. ربما لأنها
بدأت تشعر باستدارتها وأنوئتها.. من المؤكد أنه يجب

أن يفعل شيئًا.. عندما يجتمعان يوم الجمعة على مائدة
الغداء كما يفعلون دومًا وعندما تصنع له كوب الشاي
سيجرب أن يلقي في أذنيها بكلمة ما..

كلمة رجل لأنثى لا كلمة رجل لإحدى نساء البيت..

يجب أن يحاول.. أصبح العشق أكبر من أن يبقى
سجين الضلوع وأصبحت الحبيبة أكبر من أن لا تفهم!!

في هذا البيت الكبير الأنيق لا شيء أبدًا أقل جمالاً
من الآخر.. كل شيء انتقته بعناية.. انتقته بحس ابنة
سفير وربة إحدى أجمل سيدات صفوة المجتمع..

كل شيء حتى خادمة المنزل وسائقه وحارسه..
شخص واحد رغم أنه سيد البيت وأحد أكبر أطباء
المدينة إلا أنه أحرق سقط رأسه فريسة أفكار مجنونة..

احتملته ناهد كثيرًا.. احتملت تبسطه الذي يدعو
بساطة.. سذاجته التي يسميها طيبة.. تحملت فوضويته
التي يدعوها تلقائية أعوامًا تقارب الثلاثين.. في النهاية
دوماً يستسلم ودوماً يترك لها كلمة النهاية..

اعتادت حماقاته.. اعتادت أن تسمعه يتبادل دعاية مع
السائق أو ينحني ليلتقط شيئاً سقط حتى لا تلتقطه
الخادمة لأنها أرهقت بما يكفي..

احتملت أشياء غبية كثيرة، لكن أن تمتد أصابع
جنونه إلى وحيدها فهو ما لا تقبله..

ألا يكفيها أنها رضخت لقرارهما بعودته إلى مصر بعد
حصوله على بكالوريوس الطب من جامعة «أدنبرة»
بالمملكة المتحدة.. ألا يكفيها أنها قبلت أن يفتح له
عيادة في منطقة موبوءة كمنطقة مصر القديمة بحجة
أن يكون اسقاً وخبرة بعيداً عن الأوساط المزيفة..

كيف جن عاصم هو ووحيدده ليقررا بدء إنشاء مركز خيري في ذات المنطقة كأنهما خدعاها حين أخبراها أنها مرحلة مؤقتة يعود بعدها ياسين إلى المستشفى الكبير الذي يعمل فيه والده بالإضافة إلى عيادته الكبيرة في أرقى الأحياء ويتخلص من عيادة «الكورنيش» كما يسميها..

مركز خيري! في مصر القديمة؟!

جن الرجل وجن ولده..

لم تستطع دخول العيادة سوى مرة واحدة.. لا تستطيع أن ترسل أيًا من صديقاتها إلى ولدها سوى في عيادة الصباح حيث المستشفى الذي يعمل فيه..

انتقلت عدوى الجنون إلى ياسين.. أصبح مهووسًا بالعيادة حتى أوراق الدكتوراه التي يعدها ما عاد يستذكرها في البيت.. يسهر عليها كل مساء في عيادة «الكورنيش»..

التاريخ يعيد نفسه..

لا فائدة.. لن ينقذ ولدها إلا امرأة مثلها يوم أنقذت والده من الجنون والحماسة والهوس بالفقراء..

لو أراد الله أن يغنيهم لأغناهم بل لو كانوا يستحقون أفضل مما هم عليه لفعل.. الله بهم أعلم..

يعلم أنهم لو أصبحوا أفضل حالًا لقلبوا الدنيا رأسًا على عقب وعاثوا في الأرض الفجور..

الفئران إن خرجت من جحورها تملأ الأرض
بالطاعون..

أرسلها الله إلى عاصم لتكبح جماح جنونه.. كم مرة
على مر تاريخ زواجهما ضبطته يفكر في مشاريع حمقاء
كمشروع اليوم..

كم مرة أقامت الدنيا وما أقعدتها حين كان يقتطع من
وقته ساعات يعمل فيها في المراكز الخيرية والمساجد..
تلك الساعات هو أولى بها.. أعوام وهي تصيح تخبره
أن بإمكانه أن يخرج زكاة ماله لا أن يصبح هو وماله
زكاة في أيدي من لم يرد لهم الله سوى الزكاة..

اليوم يجب أن تجد ناهد أخرى.. شابة قوية جميلة
كما كانت وكما هي حتى الآن لتنقذ الأهوج الصغير..

حياته في إنجلترا لم تشفع له، لكن إن كان حليبيها
الذي أرضعته إياه لم يفعل ويصنع منه رجلاً عاقلاً كأمه،
أي حياة وأي بلد بإمكانه أن يفعل؟!

قدرها أن تحيا مع أحمقين إن غفلت عنهما ضاعا
وأضاعا معهما صرح الأعوام والسنين.. لا بد من امرأة
أخرى تحمل عنها جنون الصغير.. هي بالكاد تحكم
سيطرتها على زوجها..

في ملل أرخت ساقها التي وضعتها على الأخرى
ورفعت صوتها تنادي خادمتها وحين أصبحت أمامها
رفعت عينيها الواسعتين تنظر إليها..

لا تحبها الخادمة أو السائق كما يحبون عاصم وولده..
ولكن هل خلق الله هذه الفئة لكي تحب أو تكره..
أبدًا.. خلقهم الله فقط ليسهلوا حياة مَنْ خلقهم
للحياة..

هي سنة الحياة.. طبقات.. لا طبقة ترتقي إلى الأخرى
ولا طبقة يجب عليها أبدًا أن تنظر إلى الأخرى إلا كما
أراد لها الله أن تكون..

جنون أن نحاول رفعهم إلينا وজনون أكبر أن يظنوا
أن بإمكانهم يومًا أن يكونوا مثلنا وإن شاءوا أو شئنا
لهم..

بصوتها القوي قالت:

- أخبرني السائق أن يُعد السيارة.. وحين تقفين أمامي
لا تحدقي في وجهي.. كم مرة يجب أن أعيد عليك
هذا؟!

في هدوء انحنت المرأة تلتقط كوب القهوة ومضت
وهي تتمتم بكلمات اعتذار كأنها تستغيث بالسماء من
فقر وحاجة قتلا فيها الكرامة، وقتلا في كل مَنْ يمنح
بقايا الرحمة والإنسانية!!

أعاد آخر مقعد رفعه بعد مسح الأرض تحته واستدار
 ينظر إليها في حدة يسألها إن كان هناك شيء آخر نسي
 القيام به..

في هدوء وفي صوتها الرقيق شكرته وأخبرته أن
 بإمكانه الانصراف، لكنه عاد يذكرها أنه موعد راتبه
 الشهري وأن الطبيب أخبره أن يأخذه منها إن لم يكن
 موجودًا في العيادة..

مرت من أمامه إلى مكتب الطبيب لتحضر له ظرف
 راتبه، وحين غابت عن عينيه ألقى بنفسه على أحد
 المقاعد..

يجمعها بالطبيب شيء.. يكاد يجزم أو يقسم أن
 بينهما شيئًا..

لو يعرف فقط كيف يضع يده على دليل ما يحمله إلى
 السيدة ناهد لحصل منها على مئات وربما آلاف
 الجنيهات.. هو جاسوسها على زوجها ويعلم أنها ترسله
 إلى هنا لتنظيف العيادة عصر كل يوم ليحمل لها ما
 استطاع من أنباء، لكن شيئين كبيرين يتنازعان روحه..

يخشى أن يخبر السيدة بشكوكه فتفتك بالصبية.. بل
 هي لن تكتفي بأن تفتك بها.. ستمزقها قطعًا صغيرة..

ناهد لا رحمة في قلبها خاصة إن كانت القضية
 متصلة بأحد رجليها..

لا يصدق أن هذه الرقيقة تفعل شيئًا، لكن هو أيضًا يشتم رائحة شيء كبير.. لو كان هناك فقط طريقة واحدة يصل بها إلى الحقيقة..

لا يريد أن يظلم أحلام إن كانت بريئة.. الفتاة تبدو أظهر من قطرة ندى.. تحترمه إلى أقصى حد وكتيرًا ما تساعده في تنظيف العيادة عندما يشكو لها من كثرة ما تكلفه به السيدة ناهد.. تحدث كثيرًا عن تسلطها وقسوتها وغرورها علّ أحلام تسأل أو تتحدث بشيء ينير له الطريق، لكنها لم تفتح يومًا شفيتها بشيء سوى الدعاء له بالعافية والصبر..

ممزق هو - عمر - بين أن يكرهها أو يحبها..

الكره والحب ليسا قضيته.. تعلم أن يبيع مشاعره وأبناءه إن كان المقابل نقودًا!!

يكره أيضًا أن تبيع فتاة في رقتها وطهارتها نفسها للطبيب لمجرد أنه وسيم ثري..

لو لم تكن تسكن حارة كالتى يسكنها.. لو لم تكن تعيل أما مريضة لاكتفى بنقل شكوكه إلى السيدة لكنه يخشى أن يظلمها ويصمها بعارٍ يعلم أنه في حي كهذا قد يبقى العمر يطاردها.. لكن لم تحرص ويحرص ياسين على ألا يبقى في العيادة أبدًا وهما فيها مقًا..

مرة واحدة فقط كان هنا يقوم بأعمال التنظيف وشهد بعينه وصول الطبيب..

كيف ينسى؟!

رأى عيني أحلام وهو يدخل إلى العيادة كأنهما
شعلتان من نار ونور..

رأها ترتجف في فرح وهو ينعكس رأسه ليدخل مكتبه.
عمر ليس أحمر.. هو دنيء والدناءة لا تجتمع أبدًا مع
الغباء!!

في منتصف الخمسين ويعلم كيف تشتعل عيون
الصبايا وترتعش أجسادهن في حضرة العشق..
ياسين كان هادئًا لحظتها.. منحها حقيبتة وألقى
عليهما التحية ودخل مكتبه في صمت..

ربما كانت وحدها تحبه.. لو فقط يضع يده على
الحقيقة لربما أفاقها من وهمها إن كان وهما أو مزق
جنتها وألقاها بين يدي ناهد إن كان فجرا وعهزا..

يكره أن يعرف أن الفقراء مثله يبيعون أجسادهم
وقلوبهم وضمايرهم للأثرياء.. لكن ماذا سوى هذا
يملكون للبيع!!

لن ينقطع أبدًا عن مراقبة الوضع بل سيحاول أن
يعتذر في بعض الأيام عن عدم الذهاب إلى عيادة الأب
بعد الحضور هنا ويراقبهما.. إن كانت بريئة يساندها
وإن كانت دنيئة يسلمها إلى من تذبحها ويستلم هو ما
يستحقه من نقود.. لكن لن يظلمها أبدًا.. هي أجمل من
الظلم..

أفاق على صوتها الحاني تقول:

- «عم عمر» هذا هو راتبك.. تفضل.. هل تحتاج شيئاً
آخر.. أنا أيضاً استلمت راتبي مساء أمس.. بإمكانني أن
أقرضك بعضاً منه..

نهض عن مقعده ومد يده يأخذ منها المظروف
الأبيض قائلاً:

- سلمت.. الدكتور عاصم وزوجته يقدقان في الكرم
علي كما يقدقان في الجنون على كل من تسول له نفسه
بالاقتراب من مالهما أو ولدهما.. هل تحتاجين أنت
شيئاً؟! يجب أن أذهب..

في صمت وبابتسامة صغيرة شكرته ومضت خلفه
إلى باب العيادة تخبره أن لا شيء تفعله سوى ترقب
وصول الحالات وانتظار الطبيب..

حين أغلقت خلفه الباب استندت بظهرها عليه
وتنهدت في خوف..

منذ شهور وهي تشعر أن عمر يلقي في طريقها
بتلميحات تحاول أن تكذب عليها نفسها..

متى ينتهي هذا الخوف وهذا العذاب؟!

كل الخوف وكل العذاب يتحول إلى سعادة ورضا في
تلك اللحظة التي يفتح فيها ياسين الباب ويدخل وهو
يقول:

- أحلام.. اشتقت إليك!!

خلع نظارته الطبية الصغيرة من على عينيه وتنهّد..

انتهى من العمل وعليه أن يمر على ولده لكي يذهب
 لشراء صحن من الفضة ويرسلا السائق به لتعبئته بقطع
 الشوكولاتة بينما يبذلان ملابسهما ثم يتجهان وناهد
 معهما إلى حفل العشاء الذي يقيمه أحد أقربائها من
 السفراء..

أخبرته أنها تريد أن تجمع وحيدهما بإحدى بنات
 السفير.. أخبرها أن لا فائدة مما تفعل.. وحيدهما ليس
 مثله ولن يكون..

ياسين اختلف تمامًا بعد تلك الأعوام التي قضاها في
 إنجلترا للحصول على البكالوريوس والماجستير من
 هناك..

في كل صلاة يصلحها عاصم وفي سجود كل ركعة
 يشكر خالقه أن ولده ليس كأمه.. ليس مثله أيضًا لكنه
 ليس كناهده..

لا أحد مثل أحد ولا يجب أن يكون.. كل إنسان هو
 نفسه.. هو ما أراد له الله أن يكون وما أراد لنفسه أن
 يكون..

ولده ليس مفروّزا ولا بسيّظًا، هو معتدل.. يرسم
 حدودًا ويلون خطوطًا حمراء لكنه لا يهين أحدًا أبدًا..

لا يرى بؤساء الأرض مرضًا كما تراهم أمه، ولا يراهم
سنابل قمح يرتاد حقولها مثله..

ربما كان هو الأفضل منه ومنها.. زوجته ليست سيئة
وإلا ما كان ليحتمل حياته معها طوال هذه الأعوام..

ترى لو أحصى على أصابعه عدد الأعوام الفعلي التي
عاشها معها هل يتجاوز عددها أصابع اليد الواحدة..

منذ تزوجها.. منذ بدأ صراخها يعلو واعتراضها على
كل ما يفعل يشتد.. منذ أنجبت ياسين في بداية العام
الثاني لزواجهما وبدأت ترسم له إلى أي طبيب يذهب
وأمام أي زائر يظهر وأي رفاق يلاعبهم وقائمة من
الاختيارات الجبرية عرف عاصم عندها أن مكانه ليس
البيت..

في حقول سنابل القمح يقضي معظم يومه..

البؤساء ليسوا هم الفقراء وحدهم..

المرضى أكثر بؤسا من الفقراء لأنهم يعلمون أنهم بكل
نقودهم قد يعجزون عن محو صرخة ألم كتبها قهر
المرض عليهم..

أعوام زواجه الثلاثون لم يتناول فيها حتى طعام
الغداء مع زوجته إلا في سفرياتها المشتركة..

منذ يخرج في الصباح وحتى عودته إلى فراشه كل
ليلة هو يحيا حيث شاء وتحيا هي حيث شاءت..

اعتاد أن يأخذ ولده بعد خروجه من مدرسته ويذهب به ليتناولوا الغداء ويلعبا ويتحدثا معًا ثم يعيده السائق إلى البيت وينطلق هو إلى عيادته..

مرت الأعوام ومر العمر وأوشكت الحياة على الانتهاء..

لم تكن حياة سيئة أبدًا..

عاصم في حقول سنابله ألف قصة حب ولمسة حنان من رجال ونساء كان معهم في لحظات المهم بكل ما يستطيع تقديمه من علم وثقود يستطيع اختلاسها من ناهد رغم أنها نقوده وحده..

لا شيء يريده سوى أن يطمئن على ولده.. يطمئن عليه مع امرأة يتناول معها طعام الغداء مرات أكثر من عدد أصابع اليد الواحدة، لكنه رغم هذا سيأخذ صحن الفضة ويأخذ ولده ويتبعها إلى حيث نصبت له شركا بداخله إيمان عميق أنه لن يسقط فيه..

نهض عن مكتبه وأطفأ ضوء المصباح ورثت أوراقه وكتبه ونظاراته ودعا دعاء كل يوم..

«يارب.. حتى اللحظة الأخيرة من عمري لا تحرمني هذا المكان.. دعني أمت بعد أن أنتهي من توقيع الكشف على آخر مريض يدخل عيادتي وأقدم له كل ما أستطيع.. يارب.. لا تكلمي لفرن سواك طرفة عين».

لماذا تصر كل جمعة أن تقوم وحدها بتقطيف
وتخريط عروق الملوخية الخضراء وهي على كرسيها
المتحرك؟!

كم مرة رجتها ابنتها أن تترك لها هذه المهمة، بل كم
مرة طلبت منها عواطف نفسها ألا تفعل ورفضت
توحيدة في إصرار..

منذ ذاك اليوم الذي أعدت فيه أمه صحن الملوخية
وابتسم جبر في حنان وهو ينظر إليهما قائلاً:
- شيء في ملوخية اليوم يختلف..

قبل يد أمه حين أخبرته في غضب ضاحك أنها هي
من قامت بطهوها ذاك اليوم.. واستدار ينظر إلى أمها
بيتسم قائلاً:

- حين تقومين أنت بإعدادها يصبح لكل ورقة من
أوراقها طعم آخر..

منذ ذاك اليوم وفي كل مواسم «الملوخية الخضراء»
وأمها تعدها له حتى بعد أن جلست على مقعدها
المتحرك.. وكيف لا تفعل..

بل إن كان يحبها من يدها هي نفسها لفعلتها كل
جمعة كما تفعل أمها..

هو يستحق كل شيء وأي شيء..

تنهدت أحلام في ألم وهي تقوم بتقشير حبات
«الثوم» لتعدها عند وصول أمها على مقعدها المتحرك
وبيدها تعد «التقلية» وتسكبها على إناء الطهو..

نعم هذا الشاب يستحق كل شيء..

عدا قلبك يا أحلام!!

وضعت السكين جانبًا واستدارت تخرج ذاك «الهون»
الحجري ورمت بحبات الثوم إلى قلبه وأخذت تدق عليه
لتهرسه..

حتى قلبها جبر يستحقه.. يستحق أن تهرسه قطعًا
صغيرة وتشره تحت قدميه..

كيف تنسى ما كان يفعله لها وهي طالبة حين تحتاج
ثوبًا أو حذاء وتخشى أن تطلبه من أمها؟!

كيف تنسى كم مرة اشترى لها أشياء قالت إنها تتمنى
اقتناءها وعلمت بعدها من أمه أنه أجل شراء أشياء
أخرى يحتاجها لأسباب تجهلها..

هو يستحق كل شيء وتعلم أن جل ما يتمناه
«قلبها»..

لو تعرف كيف تستعيد قلبها.. لو تعلم كيف تمسك به
بين أصابعها ولو لحظات لوضعت في هذا «الهون»
الكبير وسحقته ونثرته على قدمي جبر.. لكن ما أصبح
القلب تحت سيطرتها..

أصبح هو والجسد ملكاً لطبيب شاب سقطت في
هواه كريشة سقطت من جناح طائر وهو قرب السحاب
يطير..

قبل أن ترى الطبيب تعلم أن جبر يحبها.. منذ كانت
في الشهادة الإعدادية وأمها وأمه يعاملانها على أنها
خطيبته وزوجته..

كانت تبتسم في نشوة نصر كبيرة لكنها أبداً لم تقل
إنها توافق.. هو أيضاً لم يقل يوماً كلمة لها..

قبل ظهور نتيجة الثانوية العامة سقطت أمها في
برائن الشلل..

كل الموازين اختلت.. حتى جبر رأت في عينيه
عاصفة خوف.. أدركت لحظتها أنه وحده لن يستطيع
تحمل نفقات علاج أمها ومصاريف دراستها وأيضاً حلم
زواجها..

بعد نجاحها بأيام وضعت غطاء رأسها الملون حول
وجهها الجميل وخرجت.. صاحت أمها تلومها.. ظنتها
تذهب للتقديم في الجامعة لكنها خرجت تبحث عن
عمل..

تلك الدمعة التي رأتها في عينيه.. ذاك الألم الذي
ارتسم على وجه أمها حين عادت في نهاية اليوم
تخبرهم أنها لن تلتحق بالجامعة ولن تهدأ حتى تجد
عملاً..

جبر لن يستطيع وليس واجباً عليه أن يستطيع..

ليست نادمة على ما فعلت.. أمها أيضًا تستحق أن
تسحق من أجلها قلبها في قلب هذا «الهون» الكبير،
لكنها أضاعت القلب كما أضاعتها الأقدار..

لو أنها فقط تعلم كيف تخبره أنها ما عادت تليق به..

ترباً برجل مثله أن يعشق فتاة مثلها.. فتاة ألفت قلبها
وجسدها بين أصابع رجل لم يقل لها مرة أن الغد
سيجمعهما، لكن رغباً عنها.. رغباً عن صلاتها وقرآنها
تحيا على اللحظات القليلة التي يأخذها فيها بين
ذراعيه ويهمس في أذنيها بشوقه إليها..

ها هي في كل ليلة ترى الرجل الذي يستحق الحب
ينتظرها في شرفته ليطمئن على عودتها من بين ذراعي
من لا يستحق قلبها أو جسدها..

من قال إن ياسين لا يستحق ما تقدمه له وأكثر؟

ياسين في نقاء جبر وطهارته..

كيف تنسى أنه أحضر لها مريم، تلك الممرضة الجميلة
لتعلمها التمريض حتى يساعدها في الحصول على
الوظيفة لديه..

كانت أيامًا صعبة ومن صعوبتها ولد الحب في قلبها..
كانت مريم تشعر به في عينيها، بل تراه وهو يتكون
في قلبها وروحها..

طيبة مريم.. علمتها كل شيء.. علمتها كيف تقف إلى
جوار ياسين في غرفة الكشف وتعد له المريضة ليقوم
بعمل الأشعة التلفزيونية لها وكيف تفتح وتغلق الجهاز..
وكيف تقوم بمساعدة الحامل وبأي الأوضاع يجب أن
تكون على سرير الكشف أو مقعده..

يوماً أمسكت بكفها تحذرها من الوقوع في حب
الطبيب..

صاحت يومها تقسم أن لا شيء بينهما لكن الزائرة
أخبرتها أن هذه هي البداية..

قصّت عليها كيف تزوجت من رجل له عائلة أكثر ثراء
منهم.. أخبرتها أن الحب بينهما كان مجنوناً صور لهما
أنه سيبقى ويدوم..

تركها الرجل.. «لم يحتمل يا أحلام أن يحيا في
عالمي.. ولم يجرؤ على اصطحابي إلى عالمهم!!»

صغيرة مريم، لكن رغم جمالها شيء في عينيها
مذبوح، وشيء في عينيها النقيتين الجميلتين مكسور..
في خوف كذاك الذي يرتسم على وجه أحرق ذهب
يبحث عن مصيره لدى عراف سألتها ألم تنسه؟!
تلك الطيبة أخبرتها أنها بعده نسيت نفسها وتزوجت
ولدها وعاهدت ربها أن تصنع منه شيئًا كبيرًا، لكن هي
ميتة..

«لا تسعي إلى الموت يا أحلام!!»

لكن ياسين أحبها.. بعد أن قامت مريم بدورها وعادت
إلى مستشفاهها حاولت أحلام كثيرًا أن تتصل بها.. كانت
تشعر أنها الوحيدة التي يمكنها أن تفضي لها بتطور
القصة، بل في أيام كانت تشعر أنها تريدها أن تعلم أن
ياسين يبادلها الحب، لكن مريم أخبرتها في حزم أنها لا
تريد أن تعرف شيئًا.. لا وقت لديها للقصص
والحكايات..

لديها رجل صغير يأخذ ما يتركه العمل في التمريض
من وقتها..

لم تغضب منها.. بل ما زالت تحبها وتذكر ملامح
وجهها الجميل وتدعو الله أن لا تصبح يومًا مثلها.. بل
في أوقات كثيرة حين ترى ياسين يهجرها كما هجر
مريم زوجها تتمنى لو يترك لها رجلًا صغيرًا منه تنذر له
روحها وعمرها..

نعم إلى هذا الحد المجنون تحبه..

يستحق جنونها وعقلها والروح إن شاء..

لو لم يكن يستحق ما ذابت بين أصابعه كما تذوب كل
يوم..

هو أيضًا يستحق..

لكن كيف ترضيهم جميعًا وهي لا تملك سوى قلب
واحد وجسد واحد وروح واحدة؟!

لا شيء على الأرض أو حتى في السماء تظنه أجمل
من لحظة دخوله عليها عند عودته من صلاة الجمعة..

جلباب الصلاة الأبيض الذي يرتديه.. وجهه الأسمر
الحاني الذي تشع منه رائحة السجود.. ابتسامته وهو
يتقدم نحوها يضمها ويصيح:

- رائحتها وصلتني حتى المسجد يا حبيبتي..

جبر ليس وحيد عواطف وحدها.. هو ابنها.. رجلها
ورجل ابنتها..

انحنت تضع على رأسه قبلة وهو يقبل يديها تدعو له
في صمت وكالعادة جاء صوت أمه يقول:

- اشترت توحيدة حبك بالملوخية الخضراء!!

اعتدل القادم من الصلاة واستدار يضم أمه بين
ذراعيه قائلاً:

- ما علمني حبها سواك، بل ما علمني الحب نفسه
سوى صداقتكما..

من خلف كتفي أمه رأى أحلام تخرج من المطبخ
والتقت عيونهما وابتسما معاً..

جميلة عندما تبتمس.. لها غمازتان عميقتان كأنهما
مصيدتان من حرير تسقط فيهما الروح إن فتحتا
الأبواب..

شعرت عواطف برجفته على صدرها واستدارت تقول
في مرح:

- هل نأكل يا أحلام؟!

تحب أن تراقبه وهو يأكل الملوخية.. لا يضعها أبدًا
على حبات الأرز كما تفضل هي أو الوالدتان..

يأخذها مع قطع الخبز.. يومًا سألته فأجاب أن كل
شيء يفقد مذاقه إن اختلط به شيء آخر..

هو دومًا على حق.. لو أن دمها ما اختلط بأنفاس
ياسين لما فقد هويته وما فقدت السيطرة عليه..

في مرح أعلن أنه يدعوهم جميعًا إلى الذهاب إلى
السينما لمشاهدوا الفيلم الذي تحب أحلام بطله.. ثم
أردف قائلاً:

- ما عاد حسين فهمي صغيرًا لتحبيه يا أحلام..

احمرت وجنتاها في حجل وهي تقول:

- وهل يتغير الحب في قلوبنا إن كبر من نحبهم أو

شاخت ملامحهم!!

نحن نزداد فيهم حبًا ونزداد في حبننا لهم إيمانًا

وثقة..

من خلف ابتسامة قال:

- نذهب إذن لمشاهدته؟!

حين هزت رأسها بالموافقة، وحين حدا موعدها

الخروج، نظرت عواطف إلى توحيدة وعلى وجهها

ابتسامة خبيثة، وقالت الأخيرة:

- نسينا موعد اليوم..

بعد لحظة تردد قصيرة رفعت الأولى رأسها وابتسمت

قائلة:

- لا تشعرونا بالذنب.. نحن على موعد قديم مع

السيدة زينب.. اذهبا وحدكما..

لم تمنع أحلام، بل ربما تمنيت لو تخرج معه وحدهما..

قد تجد طريقة تخبره بها أنها تشفق عليه من انتظار

قلب ما عاد ملكها، والحلم بجسد مرت عليه أصابع رجل

سواه..

جبر في عينيها يستحق فتاة تمنحه قلبا وجسدا لم

يسحقا تحت عجالات العشق وأصابع الهوى..

يجب أن تفعل، ومن نفسها تنقذه!!

في طريقهما إلى حارة السكر والليمون بمصر القديمة،
 وحين غادرا سيارة الأجرة التي كانا يستقلانها بعد
 الخروج من إحدى دور السينما بالمعادي، أخبرها أنه
 سيرجح بها على إحدى العربات التي تباع سندوتشات
 «الكبدة» التي تحبها..

مضت إلى جواره تعبر الطريق إلى كورنيش النيل
 حيث تقف عربة «عم سعيد» التي يعرفانها ويعرفهما
 مالكا جيدا كما يعرف كل سكان الأحياء الشعبية
 بعضهم بعضًا، حيث لا يخبئون رؤوسهم وأعينهم
 أحدهم عن الآخر كما يفعل سكان الأحياء الراقية، كأن
 العزلة أحد مظاهر الرقي والثراء..

أسلمته كفها كما تفعل دومًا عند عبور الكورنيش،
 وأمسك بها كما اعتاد أن يفعل منذ كانت طفلة صغيرة
 يمسك بيدها ليأخذها ويشترى لها كوب «جيلاتي» أو
 «إصبع عسلي»..

صاح عم «سعيد» قائلاً:

- أهلاً.. ظننتك نسيتِ ساندوتشات عم سعيد يا
 دكتورة.

في زعر رفعت عينيها إلى الرجل، لكنها عادت
 وأرختها في هدوء، تعلم أنه لا يعني شيئاً.. كثيرون
 أصبحوا يلقبونها بكلمة «دكتورة» منذ أصبحت
 ممرضة..

تمنمت في أدب تخبره أنها أبداً لم تنسه..

على سور الكورنيش جلست وشعرت به يجلس إلى
جوارها ويمد يديه إليها بالسندوتشات حيث رفعت
رأسها تنظر إليه ليقول في حنان:

- لا أنسى شيئاً تحبينه..

في ألم وضعت في فمها قضة من الرغيف الأسمر
الذي وضعه بين يديها وتمنت لو تقول «لا أملك قلب
المرأة التي تحبها»..

بعد لحظات من الصمت قال:

- ما عدت طفلة.. أصبحت أخشى عليك حتى من
خروجي معك وحدنا.. أنا بحاجة إلى الاطمئنان عليك
أكثر..

استدارت إليه في ألم لتقول:

- نحن من نحتاجك يا جبر.. أنا وأمي.. العبء الكبير،
أرجوك اطمئن.. أصبح بإمكانني التكفل بكل شيء..

قاطعها في ألم:

- ليس هذا ما أعنيه.. لا تخطني فهمي.. أردت أن
أقول..

لا تريده أن يقول شيئاً.. لا تريده أن يدفعها للبكاء
وإعلان الحقيقة.. لا تريد أبداً أن تضربه في مقتل وتفقد
سيطرتها على نفسها وتخبره أنها في كل لحظة جلست
فيها إلى جواره في صالة العرض كانت تسأل نفسها

لماذا لم يكن ياسين هو من يجلس إلى جوارها.. لا تريد أن تخبره أن هذا الرغبة الذي دفع ثمنه والتهمته هي مع كل قضة فيه تمنى لو اقتسمتها مع حبيبها..

كان صدرها بأنفاسه يتهدج ودمعات خجل صغيرة تتكور في عينيها وشعرت به يهمس في ألم:

- أحلام.. لا أرى امرأة على الأرض سواك.. أنت ابنتي وحببتي.. أريد للابنة أن تلتحق بالجامعة وتتزوج ويصبح لديها أبناء.. وأريد للحبيبة أن تصبح زوجتي..

حين سمع الشهقة تغادر صدرها والدمع يفارق عينيها وضع كفه على كفها النائمة على ركبتهما وقال:

- لا تقولي حرفاً واحداً.. خذي من الوقت ما شئت وتذكري أن بإمكاننا أن نمحو تمامًا كلمة الحبيبة وتبقى الابنة التي أريدها أن تلتحق بالجامعة وتتزوج وتنجب لأصبح خالاً.. هل تفهمين؟!

لم تكن تفهم أي شيء.. كانت أوصالها ترتجف، تمنى لو تخبره بالحقيقة.. تحتاج الأب الذي يتحدث عنه.. تحتاج أن تخبره بقضيتها وقصة حبها.. تريد أن يتدخل ويحميها من جنون كبير يسيطر عليها كلما انفردت بطبيب شاب من عالم آخر أحكم شباكه حول روحها..

في ألم قالت كأنها تنن:

- جبر..

أسرع يقاطعها.. لا يريد أن ترفض.. يشعر أنها تريد أن تفعل.. يريد لها فقط أن تتمهل.. هي صغيرة وتظن نفسها

وأما عبثًا.. يريدنا أن نتمهل ليثبت لها أنها حب وحلم..
أسرع يقول:

- لا تقولي كلمة.. أنا دومًا هنا.. أردت فقط إضافة
كلمة إلى قائمة طويلة.. خذي الوقت.. إن شئت أضفناها
وإن شئت محوناها.. القائمة تكفي لأن تجمعنا ما بقي
من العمر وإن سقطت منها ألف صفة لا صفة واحدة..
لست عبثًا.. أنت وأمك جزء مني وأمي.. هل تفهمين؟!

لم يكن يصدق أبداً أن قصصاً كهذه تحدث في حي شعبي قديم كهذا.. لكن كثيرين ممن يأتون إليه ليسوا من سكان الحارات المجاورة.. كثيرات ممن يدخلن عيادته قادمات من المعادي وبعض المناطق الراقية يأتين إليه لأن عيادته في منطقة مصر القديمة ولأنهن لا يعلمن أنه ليس بحاجة إلى نقودهن..

ما يمنع نساء المنطقة عن اللجوء إليه وجود أحلام.. كثيرات منهن يرفضن أن يوقع عليهن الكشف الطبي عندما يعلمن أنه لا يفعل إلا في وجودها معه..

علمه والده أهمية وجود ممرضة عند توقيع الكشف النسائي.. هناك نساء يدعين أن الطبيب اعتدى عليهن أو حاول أن يفعل..

هو يستمع إلى شكواهن في مكتبه ثم يدعوها إلى اصطحابهن إلى غرفة الكشف..

كم امرأة جاءت تطلب منه إجراء عملية إجهاض، وكم فتاة طلبت إجراء عملية تستعيد بها عذريتها؟!

تنهد ياسين من قلبه وهو يستعيد بعض صورهن وقصصهن ودمعهن..

ما زالت عذرية الجسد ترهق الشرق بنسائه ورجاله.. إن فقد الشرق عذرية الروح والضمير رغماً عنه، فلم يبكي على عذرية نسائه وبأيديهن يبعنها ويتنازلن عنها!!

لكن ألا تسيطر عليه هو نفسه هذه القصة؟!

نعم.. تسيطر قصة العذرية على رأس ياسين وإلا ما كان حريصاً على إبقاء أحلام عذراء.. لكنه يفعل من أجلها..

إلى متى يعبت بقلبها وجسدها؟!

إن كان يرفض ويعتذر في تصميم قاطع عن عدم إجراء أي عمليات من هذا النوع لأنها ضد مبادئ ومبادئ والده فكيف يستبيح لنفسه ما يفعله بهذه الشابة الرقيقة التي ألقاها القدر في طريقه..

بل لماذا يتعذب معها ويعذبها؟!

هو ليس بحاجة إلى نصف امرأة ونصف جنس..

بإمكانه أن يمارس الجنس كاملاً مع سيدات وفتيات أجمل منها.. نساء تفوح من أجسادهن رائحة العطور والشهوة ودون أدنى شعور بالذنب أو الألم..

لماذا أحلام؟!

لأنها عذراء الروح والمشاعر..

عذرية الروح دوماً أجمل!!

لأنه ولد بين ذراعيها وولدت على كتفيه..

هي المرأة الوحيدة التي يقتله صمتها واستسلامها له في سكون..

يحبها.. نعم يفعل لكنه يحب جنونها به أكثر..

حاول أن يجزل لها العطاء.. حاول أن يضع في يدها
نقودًا أكثر من راتبها الذي ضاعفه لها لكنها أبدًا ما
قبلت..

حتى الهدايا الثمينة التي اشتراها لها كانت تعيدها
إليه دون أن تفتحها وهي تخبره أنها لا تستطيع أن
تأخذها..

تقتلها أمها إن رأتها بحوزتها، وحين ألح كثيرًا عليها
في أن تأخذ نقودًا تشتري بها ما شاءت أو حتى تفتح
حسابًا في مصرف أو مكتب بريد بكت في صدق تخبره
أنها لن تفعل..

لن يتركها أبدًا تشعر أنها حب مدفوع الأجر..

هي حتى لا تلمح له بالزواج..

حيرته كثيرًا حتى بات مؤمنًا بحبها له.. حب كذاك
الذي نقرأ عنه في قصص الأطفال وأساطير الهوى..
لكنه يتألم..

يتألم وهو يعد نفسه ألا يأخذها بين ذراعيه ويتألم
أكثر وهو يحنت بوعده ويضمها إلى صدره في قوة كأنه
استعادها بعد غياب دهر
لا فراق ليلة..

لا شيء تطلبه منه ولا شيء ترفضه له ورغم هذا
إيمانه بها يكبر.. حاول كثيرًا أن يوسوس إلى نفسه..

إنها قد تفعل ما تفعله معه مع أي رجل آخر، لكن حتى
شيطانه سقط تائبًا أمام صمتها وبراءتها..

حتى شيطانه يستغفر ربه كلما انحنى بشفتيه يقبلها
ليراها بعد قبلته تضع رأسها على صدره وهي تتمتم
دوماً بذات الكلمة..

«والله إنني أحبك»..

والنهاية.. ما النهاية؟!

أمه هناك تخطط لزواجه بينما هو هنا غارق في حب
فتاة بسيطة لو أحصى عدد كلماتها معه على مر العام ما
تكوّنت مائة جملة!!

شعر بها تضع كوب القهوة على مكتبه في هدوء،
ورفع وجهه الوسيم ينظر إليها، وقالت في حنان:

- لا كشوفات في الخارج.. هل أذهب؟!

يقتله أن تسأله هذا السؤال كأنها لا تملك إلا أن تفعل
ما يريد بينما لا يملك أن يفعل لها ما تريد..

نهض عن مكتبه وهو يأخذ رشفة من قهوته وأمسك
بذراعها قائلاً:

- فلنتحدث قليلاً..

لو تعلم ماذا يصيبها أمامه.. لو تعلم لماذا يتوه منها
كل شيء.. تنسى أن لها أمًا وتنسى أن لها مبادئ، بل
تنسى أنها أي شيء..

لأنه طبيب؟ لأنه وسيم؟ أم لأنه ثري؟!

تعلم علم اليقين أن هذه الأشياء بعينها هي ما تقف
بينهما.. لو كان مجرد شاب مثل أي شاب في حارتها
لاستعادت حنجرتها صوتها واستعاد رأسها عقله وقالت
له ولو مرة «لا»..

ابتسمت ابتسامة صغيرة..

«لا».. كلمة معه لن تقولها أبداً..

بعد رشفة ثانية من فنجان قهوته أسرع إلى المقعد
الكبير الذي يضعه في ركن بعيد خلف مكتبه وكفها بين
أصابعه ليأخذها هناك..

النافذة الكبيرة التي تطل على نيل كورنيش مصر
القديمة، وهذا المقعد الوثير المكون من قطعتين
إحدهما «بانكيت» صغير يضع عليه قدميه.. كيف
تنسى أنها ضحكت يوم أخبرها أن اسمه (Lazy Boy)
وأن في جزئه الكبير يوجد مفتاح إن قام بتشغيله تحرك
المقعد حول جسد الجالس ليدغدغ جميع أوصاله
ويدلكها في مهارة..

لم تجرؤ يوماً على الجلوس على المقعد وهي وحدها
في العيادة رغم أنها لا تتهنى شيئاً سوى أن تفعل..

حين ارتدى بجسده على المقعد وجذبها من ذراعها
لتجلس فوق ركبتيه لانت كل قسماات وجهها وجسدها..

على ركبتيه تشعر أنها تولد كل مرة.. كثيراً ما أخبرته
أنه لو لم يكن لحبها له سبب، يكفيها أنها المرأة الوحيدة
التي منحها الحب الفرصة لتولد ألف مرة..

ضحك يومها وهو يقول ليس الحب ما فعلها، لكنه

مقعد

ال (Lazy Boy) ..

كان ينظر إلى وجهها القمحي الصغير.. كل شيء في ملامحها منمنم.. عيناها صغيرتان مشروطتان.. أنفها دقيق صغير.. شفتاها صغيرتان.. كل شيء إلا رحابة قلبها وسعة صدرها حين يضع رأسه عليه..

اقترب بوجهه من وجهها وأخذ يتنسم أنفاسها الدافئة

وهمس:

- بماذا تعطين أنفاسك يا أحلام؟!

ابتسمت.. يسعدها أن يخبرها ذلك يوماً.. يسعدها أن يؤكد لها أنها تختلف عن كل النساء كما يختلف هذا المقعد عن كل المقاعد رغم أنه مثلها من الحديد والجلد صنع..

أسقط منديل رأسها عن شعرها الأسود القصير وعاد يغمض عينيه ويفتح شفتيه ليملاً صدره من أنفاسها وضمها إلى صدره قائلاً:

- أزداد يقيناً أنك امرأة تختلف..

كالقطة تكورت على صدره وهي ما زالت تجلس على ركبتيه.. كأرنب بري هارب من نسر جارح دخل مخابئه.. هدأت أنفاسها المتهدجة ومدت ذراعيها حول جسده تضمه كأنها تحتمي به من كل شيء وتشكو منه إليه..

وحده يشعلها ووحده بالحب يطفئها ويروئها..

ماذا يريد إنسان من الأرض بأكملها إن وجد صدرًا
يضمه بهذا الحنان.. بماذا يحلم إنسان على الأرض بعد
أن يشعر بكل هذا الأمان والسكينة..

لا شيء فوق هذا ولا شيء بعده أو قبله..

شيء واحد فقط يقتلها.. الأمان والسكينة دومًا
عمرهما لحظة.. لو تعلم أحلام كيف يصبح عمرها نفسه
هو هذه اللحظة لماتت وهي تشعر أنها عاشت ألف عمر
وألف حياة..

كانت أصابعه تمشط شعرها في حنان كأنه يمنحه
فرصة ليتنفس بعد يوم طويل من السجن والشوق..
لم يستطع أبدًا ألا يتحدث.. فليخبرها أنه يحبها..
لم يقل لها كلمة الحب أبدًا رغم أنها تعلم أنه يفعل..
ما زال بداخله عراك يدور..

فليسعدها كما تسعده بقولها كلما قبلها..

لا يبخل بها عليها لكنه يريد أن يقولها ومعها قرار
كبير..

الرجل إن قال كلمة الحب يجب أن يقدمها على كف
عهد يقطعه من أجلها على نفسه..

بشفتيه وضع على رأسها الملقى على صدره قبلات
صغيرة وأصابعه ما زالت تبخر في ليل شعرها الغزير
وسمعها تقول كأنها تبكي:

- ليتني أموت على صدرك!!

ابتعد بها عنه وقال:

- لنحيا إذن قبل الموت.. فلتتزوجيني أحلام..

ارتعشت بين ذراعيه حتى شعرت أنها تكاد عن وعيها

تغيب..

في زهول أخذت تحمق في عينيه المفتوحتين كأنها

تريد أن تسمعه يقولها مرة أخرى.. هو وهم.. لم يقل أبدًا

شيئًا مما سمعت لكن كيف تسأله..

دموع غزيرة كانت تتكون في عينيها وتسقط بعد أن

تلفظها دمعات جديدة تكوّنت، بينما عيناها تزدادان

اتساعًا وهو يرقبها في حنان..

لم يقلها مرة أخرى.. اقترب بشفتيه من دمعاتها

يرتشفها بين شفتيه وهو يهمس:

- دمع من نحب ليس مالكا.. دمع من نحب قطرات

من السكر..

هزمت كبرياءها معه للمرة الأولى وهمست من بين

أنفاسها اللاهنة تقول:

- أعد ما قلته.. أرجوك..

ضم شفتيها بين شفتيه وغاب في قبلة طويلة جميلة

ابتعد بعدها لحظة عنها قائلاً في حنان:

- قلت فلتتزوج.. بعد هذا الحب لا يكون سوى

الزواج.. هل توافقين؟!

لم يكن وهماً إذن ولا كان حلماً..

لم تقل كلمة.. حين تتحدث القلوب وتصرخ الدمعات
تصبح الحروف أنفه من أن نلجأ إليها..

عادت إلى شفثيه وككل المرات حنت بعهدة لنفسه
لكنه أشهد الله وأشهدها أنه يريد لها زوجة..

هذه المرة كانت أصابعه تتحرك حول قميصها في
قوة وحين أسقطه عنها وبعد أن أصبحت عارية بين
ذراعيه العاريتين شعر أن جسدها هو الآخر له عبير
مختلف..

عبير زوجة ونسائم طهر..

رغم انتفاضة خجلها واضطراب طهرها إلا أنها كانت
أكثر
التصاقًا به..

حين أصبحا عاريين يستتر أحدهما بجسد الآخر
ويتمنى لو يختفي تمامًا في عروقه عادت دموعها تهطل
وهو يتجول بكفه على كل قطعة في روحها..

بين كل شهقة تتنفسها وشهقة يضعها بين أنفاسها
بقبلاته كانت تقسم إنها تحبه..

في لحظات الحب بكت أكثر.. على صدره كانت تغيب
وتفريق على خوف كبير لتحتمي من جديد بكتفه العارية
تعيد على نفسها طلب الزواج..

هذه المرة ليست ككل مرة.. أبدًا..

حبيبها يريد لها زوجة وهي منحته نفسها ليس حبًا ولا
ضعفًا لكن واجبًا وحقًا..

كانت تضمه إلى جسدها في قوة كأنها تدعوه إليها
أكثر.. تشعر أنها تشكره كثيرًا على طلبها للزواج أو ربما
أرادت أن تخبره أنها تمنحه نفسها حتى إن لم يتزوجها،
يكفيها أنه طلبها وأنه أمام الله أعلنها..

تاه منها ياسين.. تاه وهو يراها للمرة الأولى تجذبه
إلى جسدها بهذه القوة.. تاه حتى كاد ينسى ما عاهد
نفسه عليه وأفاق على صرخة ألم صغيرة أطلققتها،
وابتعد عنها قليلا وهو يتمتم بكلمات اعتذار لاهنة أخذ
بعدها يمسح بكفه على جبهتها المبللة بقطرات عرق
العشق ورأها تعض على شفثيها في ندم..

رغمًا عنها صرخت.. كان الألم أكبر منها، وسقط
بشفثيه على عنقها يضع قبلات كثيرة حانية وهو يقول:

- لا تخافي.. لم يحدث شيء أبدًا!

بعد لحظات العشق الكبيرة تأتي دوماً لحظات
الحساب المريرة..

ما إن غادرت باب البناية الكبير واصطدم وجهها
بلفحات نسيم المساء الباردة حتى وقفت أحلام تشهد
سقوط دمعاتها..

ماذا حدث؟!

طلبها ياسين للزواج، لكن ليس هذا ما ييكها..
هي ترتعد خوفاً مما طلبه منها..

هي المرة الأولى التي يطلب فيها أن تغتسل قبل
الخروج من العيادة.. لم تستطع أن تسأله.. أسرع إلى
حمام مكتبه الكبير وحين أغلقت خلفها الباب وأشعلت
الضوء أخذت تفتش جسدها تبحث عن شيء ما لكنها لم
تجده، فتحت صنوبر الماء ووقفت ترقبه وترقب
جسدها العاري في المرأة..

ما زالت على صدرها آثار شفثيه.. ما زال جسدها
ينتفض من ذاك الألم وتلك النشوة التي أفاقته منها..

رغماً عنها فعلت.. رغماً عنها صرخت.. غاضبة من
نفسها لأنها أفاقته من لحظة نشوته، لكن الآن وبعد أن
غادرها وغادرته وهي على أعتاب عودتها إلى عالمها
تشعر بغضبها من نفسها يختلط بخوفها وحزنها عليها..

دون وعي وضعت كفها على وجنتها كأنها تلتطم شعورها بالذل والعار..

حين غادرت الحفام وارتدت ثيابها وقفت تنظر إليه وهي تتمنى أن تسأله السؤال الكبير لكنها ما استطاعت.. هل تسأل لم تحبه؟!

تحبه لأنه يسمعها وإن لم تتحدث..

ضمها إلى صدره في حنان يخبرها أنها سيتزوجان، هو فقط يريد أسبوغا واحدًا يفتح فيه والديه في أمرهما..

أخبرها أنه سيأخذها ويذهب بها إلى لندن للحياة هناك حتى ينتهي من رسالة الدكتوراه ويلحقها بالجامعة هناك..

قال أشياء كثيرة لم تحاول أن تفهمها..

كل ما كان يشغل رأسها هو سؤال كبير لم تجرؤ على سكه في أذنيه..

حين وضعت غطاء رأسها.. حين استدارت لتخرج ضمها وأجاب وحده السؤال قائلاً:

- أحلام.. أنت عذراء وستبقين حتى نتزوج.. ما حدث اليوم لن يتكرر إلا وأنت زوجتي.. عهد أمام الله!! أحرم نفسي منك لتسرع في إجراءات الزواج.. هل تفهمين!!

سقطت دموع غزيرة على وجنتيها وهي ما زالت تقف على رصيف العمارة وعيناها زائفتان..

عذراء؟! حقًا؟!

يجب أن تحرك ساقها وتذهب إلى البيت..

هناك تستعيد كل ما دار بينهما..

ستمر من جوار شرفة جبر.. لا تحتل أبدًا أن تراه..

بأصابعها لملت أطراف قميصها على صدرها كأنها

تخشى أن يرى جبر آثار شفتي ياسين المرسومة عليه،

وقبل أن تهبط بقدميها عن رصيف العمارة جاءها صوته

يقول في قسوة:

- لماذا لا تجيبين على هاتف العيادة ما دمت فيها؟!

ولم لم تفتحي الباب الذي وقفت أمامه أكثر من ربع

ساعة؟!

كادت تسقط أمامه من خوفها ودمعها وما عرفت ماذا

تقول سوى:

- تركت العيادة منذ ساعات.. كنت لدي إحدى

الساكنات.. فهي صديقتي..

نظر إليها عمر في قسوة وابتسم ساخراً ومضى إلى

داخل العمارة في صمت..

الدكتور أغلق هاتفه ونسي أنه طلب منه الحضور

إليه، وها هي عشيقته الصغيرة تغادر وتقف على رصيف

الشارع تائهة تبكي..

هو الآن يعلم أن بينهما شيئًا يدور ويحدث!!

هو الآن من ذنبها بريء ولن يترك فرصة يفضح فيها
عهرها ويقبض الثمن تضيع من يديه..
لا شك ولا رحمة!!

لا أحد أبداً يعرفك كما تعرفك أمك التي تكونت
شرايينك وتشكلت أعضاؤك في أحشائها..

موهوب أنت في رسم الأقنعة.. موهبتها في إسقاطها
عنك دوفاً أكبر!!

هناك شيء كبير في أحلام تغير.. شيء لا تستطيع
أبداً أن تخفيه خلف هدونها واستكانتها.. شيء تعجز عن
تركه خلف باب غرفتها التي تغلقها على نفسها وتخرج
وهي تظن أنها ألقته خلف الباب.. ربما لا يراه أحد..

بالأمس وعند ذهابها إلى عملها سألت عواطف إن
كانت ترى على وجه ابنتها هذا الشيء.. ابتسمت
صديقتها وأخبرتها أن لا شيء على أحلام يبدو وأنها
أوهام أم، ومخاوف قلب لن يهدأ إلا حين تتزوج
صغيرتها..

انقبض قلبها أكثر عندما أخبرتها جارة عمرها وصديقة
روحها أنها لا ترى على وجه ابنتها شيئاً..

عندما لا يرى أحد سوى الأم شيئاً كبيراً وجلياً فهذا لا
معنى له سوى أنه شيء رائحته سوداء كريهة..

هذا الفجر وعندما نهضت ابنتها للصلاة كعادتها
شعرت بها تبكي في سجودها..

قلب الأم يرى دموع الابن وإن ابتلعها وجففها بألف
منديل..

حين وضعت أمها على فراشها وأحكمت عليها الغطاء
لتنام كما اعتادت بعد أداء الصلاة مع ابنتها ضممتها إلى
صدرها وتوسلت إليها أن تخبرها ماذا أصابها..

أقسمت أحلام أن لا شيء بها.. لا شيء أبدًا..

كلمة لا شيء أحيانًا يصبح معناها الوحيد هو أن شيئًا
كبيرًا يدور..

ها هي تجلس على مقعدها ترقبها تستعد للخروج إلى
عيادة الطبيب..

الطبيب هو داء ابنتها وجبر هو الدواء..

توحيدة عاجزة عن مقاومة الداء وأحلام ترفض
الدواء..

إلى متى؟!

لن تنتظر أكثر.. حين تغادر الفتاة تستدعي جبر
وتخبره بشكوكها، ستطلب منه أن يذهب إلى لقاء
الطبيب..

ليس بالضرورة أن يتهمه ولكن فليلقاه.. تثق في عين
جبر وعقله..

إن عاد وطمأنها أن الطبيب ليس ذئبًا يهدأ قلب
توحيدة.. حتمًا سيهدأ..

ولكن هل تفعل؟!

هل تخبر رجلًا جُلّ أملها وأمله أن يتزوج ابنتها بأنها
تشك في أن رجلًا آخر يخدع عروسه.. هل تلقي في

قلبه بذور الشك؟!

أيًا كان عقله ورجاحته.. أيًا كان كرمه وسعته كيف
تزرع بيدها في رأسه الشك في سلوك ابنتها؟ وكيف
وقد يكون كل هذا أوهام أم
لا أكثر!!

ألا ترحمها ابنتها.. فلنتترك العمل لديه، حتى إن فعلت،
أليس هذا حماقة واستغلالًا جديدًا لجبر..

رفعت رأسها المتدلي فوق صدرها ونظرت إلى وجه
ابنتها وهي تخبرها أنها ماضية إلى عملها..
رفعت كفها ومسبحتها الطويلة بين أصابعها وقالت:
- هل شرفنا بخير؟!

تجمد وجه الشابة وهي تسمع كلمات أمها حتى ظنت
أن روحها فارقتها وأكملت في لوعة:
- سامحيني يا بنتي.. لا أستطيع أن أخرس ظنوني..
ليس لنا سواه.. هل شرفنا بخير؟!

تقدمت أحلام نحو مقعد أمها المتحرك وضمت رأسها
إلى صدرها وقالت وهي تقاوم دموعها:

- أيام.. أيام قليلة ويتحول ألمك إلى فرحة كبيرة،
فقط أرجوك الدعاء يا أمي.. الدعاء..

كانها سكبت عليها إناءً من حمم.. كلماتها لم تطفئ
الشكوك بل أضرمت نارها أكثر..

حين مضت وأغلقت خلفها باب البيت أجهشت الأم
ببكاء مرير..

ابنتها ليست بخير..

ستنتظر بضعة أيام.. إن لم تسمع منها ما يحيل ألمها
فرحاً كما قالت..

لن يبقى أمامها سوى جبر.. هو رجلها..

لم يعد يهمها أن يتزوج أحلام، لكن يهمها أن تطمئن
على كرامة ابنتها وشرفها..

توحيدة لا تملك سواهما ولن تسمح أن تتجرد هي أو
صديقتها من أيهما أبداً!!

في تعالٍ كبيرٍ اعتاده وما عاد أبداً يجرح كبرياءه
رمت إليه بحفنة من الأوراق لينحني يلتقطها من على
زجاج المكتب وسمعها تقول:

- عمر.. لا يوجد طبيب لم يضاجع ممرضة، بل قد لا
توجد ممرضة لا تتمنى أن يفعلها معها طبيب.. لكن هذا
لا يمنع أبداً أن تراقبهما أكثر وتأتي لي بعنوانها وجميع
المعلومات عنها..

في لهفة أخذ يردد أنه سيفعل وهو ما زال واقفاً
أمامها..

حكى لها ظنونه التي ما عادت ظنوناً عن علاقة ولدها
بأحلام.. لم تدعه إلى الجلوس أبداً رغم أنه تملل في
وقوفه واستند على ظهر المقعد الرابض أمام مكتب
زوجها الذي كانت تجلس خلفه وقبل أن يمضي عادت
تقول:

- دكتور ياسين سيتزوج ابنة سفير في نهاية الشهر
القادم، إن شئت أخبرها لتنصب شباكها حول طبيب
آخر.. انصرف الآن..

بعد أن خرج وأغلق خلفه باب غرفة المكتب وضعت
رأسها بين يديها..

ياسين لن يتزوج ابنة السفير.. في طريق عودتهم من
زيارته أخبرها في هدوء أنه لن يتزوج سوى فتاة يحبها

ويعلن عن اسمها قريباً..

هل من الممكن أن تكون هذه الماجنة هي من كان يتحدث عنها..

صاح والده يومها يهنئه ويطلب منه أن يخبره من هي لكنه رفض وقال إن لكل شيء أواناً..

لو لم تكن نكرة دنيئة لتحدث وأفصح عن كل شيء..
مجنون ولدها إن ظنّها تتركه يفعل..

بأصابعها أخذت تنقر على سطح المكتب في جنون وهي تنهض عن المقعد مرددة:

- يموت ياسين ولا يتزوج ممرضة تسكن حواري مصر القديمة.. يموت أفضل له ولنا وأكرم..

حين أصبحت في ردهة بيتها الكبير صاحت تنادي زوجها قبل خروجه إلى عمله..

وحده السبب.. وحده يحمل الجين الخبيث في دمه..
جين الفقراء..

حين أطل بملابسه رأى على وجهها آثار الحريق الذي يضطرم بين ضلوعها، وقبل أن يلوم نفسه لوجوده في البيت، وقبل حتى أن يخبرها أن لا وقت لديه ليستمع إليها عاجلته بصيحة كبيرة قالت فيها:

- أخبر ولدك أنني سأقتله إن فعلها!!

أخبرها أن تعتذر عن العيادة.. كان على عجل في كلماته.. لم تستطع أبداً أن لا تسأله ما به..

تنهد وهو يخبرها أن هناك موعداً مهماً سيذهب إليه لهذا لن يستطيع توقيع الكشف على أي حالات، لكنه طلب منها أن تنتظره.. سيمر عليها..

أخبرها أنه اشتاق إليها وأنه يحبها..

ما زالت لا تصدق أنه أخبرها ذلك اليوم عن زواجهما.. ما زالت تتمنى لو يكررها مرة أخرى بل أن لا يتوقف عن ترديدتها..

ياسين يتزوجها ويأخذها إلى لندن وتدرس هناك.. أحلام تدرس الطب في ذات الجامعة التي تخرج هو فيها..

نعم.. أكد لها هذا.. لن تكون أقل منه في شيء..

ستصبح طبيبة زوجة طبيب.. لكن أين تذهب أمها؟!

لم تستطع أبداً أن تسأله عنها..

هي أمها وحدها.. أين تتركها بمقعدها المتحرك؟!

عواطف حتماً لن تساعد.. عندما تعلم أنها تتزوج رجلاً غير جبر ستكرهها، لكنها تحبها وأنفقت عليها وساندتها هي وأمها قبل حتى أن تكبر ويحبها جبر..

عواطف تحب أمها لكن هل يعني هذا أن تتركها لها
وترحل مع حبيبها..

لا.. ترحل مع زوجها..

دارت أحلام حول نفسها في صالة العيادة.. لماذا لا
تضحك؟!

لماذا لا تغني وتصيح من الفرحة؟!

حبيبها سيصبح زوجها..

لماذا تستكثر الابتسامة على وجهها؟!

أرخت عينيها ومضت نحو غرفة حبيبها تهز رأسها
في ألم..

هي تفعل لأنه حقًا أكبر منها.. كل ما يقول ويفعل أكبر
من رأس فتاة حاصلة على الثانوية العامة من إحدى
مدارس مصر القديمة المهترئة..

لهذا يريد لها أن تتعلم وتصبح طبيبة.. لتبتسم وتحزن
وتضحك وتبكي..

حتى الضحك والبكاء يستلزمان إنسانًا لا شبه إنسان..

وقفت على باب غرفته تنظر إلى أجمل شيء تحبه..

معقد

ال(Lazy Boy) تقدمت في هدوء نحوه لتجلس وترفع
ساقها ثم أغمضت عينيها في حنان، وللمرة الأولى في
حياتها تضع أصبعها على المفتاح الصغير، وضمتها
جنبات المقعد واستسلمت بجسدها لحركاته الكهربائية.

ستطلب من زوجها أن تأخذ المقعد إلى بيتهما.. بل
ستسأله هل يوجد مقعد كهذا في إنجلترا وهل يمكن أن
يشترى لها مثله هناك..

مساج المقعد ليس جميلاً.. الجميل هو أنه مقعد
واحد يضم اثنين..
امراة وحببيها..

ليته هنا لتجلس على ركبتيه وتلف ذراعيها حول
عنقه كطفلة تتعلق بعنق أبيها..

كانت تظن أن جبر يمثل لها الأب الذي ألقى بها هي
وأما إلى المجهول ورحل، لكن أبداً، ياسين هو أبوها
ورجلها وأملها..

لو فقط تعلم كيف تجعله يعلم كم تحبه..

فتحت عينيها لحظة وسؤال يدق رأسها.. ما هو
الموعد الذي جعله يعتذر عن العيادة وإلى متى تنتظره
.. ومتى..

متى يأتي؟! بل أين ذهب؟!

هناك فوران يدور في عروقها وتعلو درجة غليانه كلما
رأت ابنتها تخرج إلى عملها في عيادة الطبيب..

منذ بكت وطلبت منها أياها يتحول فيها البكاء إلى
فرح جامع وهي تعلم أن شيئًا ما يدور..

وضعت توحيدة إبريق الشاي وأشعلت ناره وهي على
مقعدها المتحرك.. لماذا تتهم الطبيب؟!

ولماذا حقًا تظن الطبيب يهتم لأمر فتاة فقيرة تعمل
عنده.. ربما كانت أحلام على علاقة بأحد آخر..

من سواه؟!

هي لا تخرج إلا إلى العيادة.. ربما كان حارس العقار؟!
لظمت على وجهها.. أحلام تعشق «بوابًا»؟!

ماذا أصابها؟!

أليس هناك منطقة وسطى بين الطبيب والبواب؟

هناك منطقة وسطى.. روضة من رياض الجنة على
الأرض، روضة اسمها «جبر»، لكن يبدو أن أحلام لا
تعشق الرياض ولا تهوى الحياة فيها..

بدأ إبريق الشاي يفور وهي ترقبه ولا ترى منه سوى
بخاره المتصاعد أمامها..

لا شيء أمامها سوى الانتظار..

قالت ابنتها: «أيام».. ستمنحها ما قالت وتنتظر ذاك
الفرح الذي تحدثت عنه..

في ملل أغلقت موقد الغاز المشتعل واستدارت تقود
مقعدها إلى خارج المطبخ الصغير..

حتى كوب الشاي لا تشتهييه.. ستنتظر صعود عواطف
إليها ليشرباه مقًا في شرفة البيت الصغيرة التي تتسع
لمقعدها المتحرك ومقعد خشبي صغير بالكاد، أو ربما
تتناولانه أمام مسلسل المساء..

في طريقها إلى صالة البيت سمعت طرقات خفيفة
على الباب..

عواطف لا فائدة فيها.. رغم أن مفتاح البيت في
جيب جلبابها إلا أنها لا تدخل إلا أن صاحت وقالت لها
أن تفعل..

اقتربت بمقعدها من الباب مررودة:

- ادخلي.. أنا هنا.

أدركت بعد لحظات أن من على الباب ليس جارتها..
من على الباب شخص لا يملك له مفتاحًا..

بيدها فتحت باب البيت لترفع عينيها وتجد شابًا
وسيمًا أنيقًا يختلف عن كل زوارها يبتسم في تردد وهو
يسأل في أدب جم:

- سيدة توحيدة.. هل يمكنني الدخول والحديث معك
لحظات..

أنا دكتور ياسين البلاوي!!

دقائق طويلة مرت وهو يقف مستندًا على باب غرفة الكشف ينظر إليها وقد غابت في غفوتها على مقعد المساج الكهربى الذي تحبه.. كان خدها ملتصقًا بظهر المقعد الجلدي وذراعاها حوله كأنها كانت تعانق المقعد ثم سقط ذراعاها بعد غفوتها..

لماذا ذهب إلى أمها؟ بل لماذا تعمد أن يفعل دون أن يخبرها..

أراد أن يرى كل شيء على طبيعته.. أراد أن يستمع إلى المرأة وهي خاوية الذهن.. لم تحضر شيئًا أو تستعد بكلمة..

لم يأنف الصعود على سلالم بيتها الضيقة ولا السير على تراب الحارة الصغيرة.. هو فقط شعر بانفطار قلبه عندما رأى الخوف يطل من عيني المرأة القعيدة لحظة ذكر لها اسمه..

قبل حتى أن تفسح الطريق بمقعدها عن باب البيت صاحت كأنها تنن تسأله عن ابنتها إن كان أصابها مكروه..

عندما دخل وجلس في صالة المنزل الضيقة التي لا تضم سوى مقعدين يكادان أن يلامسا الأرض أقسم لها إن أحلام بخير في العيادة تمارس عملها.. هدأت العجوز عندها لحظة كأنها لا تصدق أن الأمور بخير حيث عادت ترفع رأسها وتسأله في زعر أكبر.. هل حدث من ابنتها

شيء؟ هل أخطأت.. هل رأى عليها شيئًا جاء بنفسه
ينقله إليها؟!

وضع كفه على فخذها المشلول وأجابها أنه يحب
أحلام ويريد الزواج بها..

لماذا كان يظنها تطير فرحًا؟! لماذا كان يظنها تموت
من المفاجأة؟!

قتلته المرأة بعينيها التائهتين الجريحتين ودلت
رأسها على صدرها في ألم وهي تتمتم بكلمات لم
يتبينها..

أخبرها أن عائلته لن توافق ورأها تبتلع ريقها وتحاول
أن تبلل شفثيها الجافتين بلسانها كأنها تبتلع الإهانة..
قبل أن يشرح أو يبرر قاطعته تخبره في مرارة أنها تعلم
أن ابنتها به هائمة.. أخبرته أنها كانت تظنها فراشة غبية
حمقاء سرقها بريق ثرائه ووسامته لكنها ما ظنت أنه هو
أيضًا لم يكن حكيماً ليطردها من عملها يوم لاحظ عليها
العشق..

أخبرته أنها هي نفسها تخشى أن تمد كفها لتصافحه
خشية أن يصددها وكيف تتخيل أن يصافح طبيب مثله
امرأة قعيدة تحيك الثياب في حارة ضيقة..

كانت تتحدث عن أشياء كثيرة ستعرض لها وابنتها..
كلتاها أضعف من الصمود أمامها، وكان صامتًا يسمعها
في هدوء..

والدة أحلام لم تُجن به فرحاً بل هو في لحظة شعر
أنه وحده المجنون، لكن إن لم يكن الحب جنوناً فما
عساه إذن أن يكون..

صمتت المرأة فجأة في خجل وفي نهاية حديثها
شكرته لأنه أتى البيت من بابها لكن هذا لا يعني أبداً أن
تزوجها ابنتها دون موافقة عائلته..

بيدها لوحته له في صالة البيت تسأله في ألم هل
يأتي والداه هنا وهل حقاً يجرؤ أن يأتي بهما؟ وإن
حدث هل يضمن ألا يهيناها هي أو ابنتها؟ وإن أهانوهما
في بيتهما كيف يتزوج أحلام وتبتلع هي وابنتها
الإهانة؟!

لم تكن أبداً هذه الأشياء التي تخيلها ولم تكن أبداً
هذه الأحاديث التي توقعها..

لم يعرف ماذا يقول سوى أنه كرر أنه يحب أحلام
وأنه سيتزوجها ويذهب بها إلى بلاد بعيدة تحصل فيها
على شهادتها الجامعية ويعود بها طبيبة مثله وربما
يعودان وفي يديهما طفل أو أكثر..

قال إن الأمر عندها سيختلف كثيراً حتى عليها لأنها
ستصبح والدة الطبيبة وجدة أبناء الطبيب..

أخبرها أنه سيحاول أن يقنع والديه لكن إن لم يفلح
فهي من يجب أن تقنع بأن سعادة وحيدتها تستحق
شيئاً من التضحية وبعضاً من التنازلات..

قبل أن تجيب عليه سمع طرقات على الباب تلاها صوت مفتاح دار في عقبه..

رأى في عيني المرأة نظرة زعر كأنها ترجوه الصمت.. حين دخلت الزائرة صاحت والدة أحلام في تلعثم تقدمه إلى جارتها كما قالت واستدارت نحوه تقول في ألم:

- أشكر لك زيارتك دكتور ياسين لكن أحلام ليس بإمكانها أبدًا أن تعمل لديكم مساءً.. لهذا أرجو أن تجد ممرضة غيرها.. من الغد سيبقى في البيت..

حاولت الزائرة أن تتحدث لكنه نهض عن مقعده وألقى عليهما السلام مرددًا أنه سيعاود الاتصال بها من جديد وأنها وإن رفضت عرضه ما زال بإمكان أحلام أن تستمر في عملها اليومي بالعيادة فلا علاقة لهذا بذلك..

يبدو أن الفقر لم يقتل فيها الحكمة ولا سرعة التفكير أبدًا.. ماذا تراه يخبر أحلام الآن؟! ماذا يقول لها؟! نظر إليها من جديد وهو حائر.. يجب أن يتحدثا قبل عودتها إلى أمها..

ما زالت تغفو على المقعد ورأها تتحرك في هدوء وسمعتها تهمس باسمه وترفع ذراعها تعانق جسد المقعد وهي ما زالت غافية..

تقدم في هدوء لينحني عليها ويتنفس أنفاسها كما يحلو له أن يفعل وانتفضت على وهج أنفاسه الدافئة

وعادت تهمس:

- أين كنت؟!

لم يدعها تنهض عن مكانها بل سقط فوق جسدها
الضئيل يعانقها قائلاً:
- في بيتكم أحلام..

ذاك الذعر المختلط بالحب والفرح في عينيها جعله
يعتدل بها ويأخذها على ركبتيه لتدفن رأسها في طيات
عنقه قائلة:

- حقًا.. هل رأيت أمي؟!

كان يهز رأسه بالإيجاب وأنفاسها تتهدج حوله.. لن
يقترب منها.. هكذا وعدّها ووعد نفسه ولكن إن كانت
النفس نفسها تريدها فأي عهد يصون..

حين التقت شفتاهما وتعانقتا شعرت أنها هائلة
منتشية.. حبيبها ذهب لخطبتها من أمها.. لا بد أن أمها
الآن ترقص فرحًا رغم أنها قعيدة..

قبل أن يغيبا كغيباب الأمس وكل أمس منذ قصة
هواهما سمعا طرقات على الباب لتنتفض في جنون
كأنها تخيلت من يقف بالباب هو عواطف أو أمها!!

نظرات كثيرة تبادلها أعقبها ياسين بكلمات سريعة
يخبرها فيها أنه أغلق الباب وأنه رأى الورقة التي علقتها
هي بالاعتذار عن عدم استقبال أي حالات..

نهضت أحلام بعيدًا عنه وهي تهمس أن هناك مرضى
لا يقرأون ولا يصدقون وراثته يخرج هاتفه الصغير وهو
يطلب منها أن تفتح وتعتذر للقادم..

حين مضت نحو باب العيادة وفي اللحظة التي
وضعت فيها كفها على مقبض الباب شعرت به يسرع
نحوها قائلاً:

- هو والدي..

تقدم كلاهما نحو الآخر وأحلام ما زالت تقف بجوار
الباب حيث صاح ياسين يقول:

- أهلاً.. أهلاً تفضل.

استدار الرجل ينظر إلى وجهها الجميل الفزع وقال
في هدوء:

- رائع أنك اعتذرت عن العمل وعيادتك خاوية.. هيا
بنا ياسين، موضوع كبير يجب أن نناقشه وننتهي..
السائق بانتظارنا..

حين غاب ياسين في مكتبه لإحضار أشياءه حاولت
أحلام أن تدخل خلفه إلا أن الزائر استبقاها ليقول بعد
لحظات طويلة تجول فيها على وجهها الجميل
المرتعش:

- لا لوم عليك أبداً.. إن خدعت ياسين فاللوم على
ذكائه وإن خدعتك هو فاللوم كل اللوم على رجولته..
وإن كان حبا فمن يا بنتي يلوم قلبا إن هوى!!

لا أحد منهما يعلم بالتحديد من الذي قرر التوجه إلى ماريوت «ميراج» لكن دون شك كان ياسين وحده من تعجل الحديث وهما ما زالا على الطريق الدائري المجنون بهدير سيارته..

حين أخبره والده أنه عاهد أمه على الوصول إلى حقيقة ما ترامى إلى مسامعها عن قصة أحلام ويثنيه عنها إن كانت هناك قصة فعلاً.. أخبره وحيداً أنها ليست قصة أو نزوة آثمة بل قرار عُفر.. نكس عاصم رأسه وقال في ألم:

- ناهد لن تستسلم.. ليس لها ولد سواك.. هل تظنها تتركك تفعلها؟!

في هدوء أجابه ياسين قائلاً:

- وهو عمر واحد وقلب واحد.. هل تظني أبيعهم لمجرد قصص قديمة ملنا رؤيتها على الشاشات والكتب، فهل تبقى نفعنا ونحن في هذا الزمن؟!

بعد حوار متقطع قال فيه الأب إن جُل خوفه وإشفاقه هو على الشابة الصغيرة التي رآها منذ لحظات.. لن تحتل جبروت أمه، بل يراه يظلمها إن رماها في بيتهم وعائلتهم.. هو كمن يلقي بفرخ صغير في بيت النسور..

أخبره ياسين أنه سيسافر بأحلام إلى لندن.. يكمل رسالة الدكتوراه بينما تحصل على بكالوريوس الطب، وهناك يعلمها كيف تصبح نسًا صغيرًا يتمكن من مواجهة ناهد والحديث بلغتها عند عودتهما..

قرار واتخذه.. أمر وحسمه..

هو حب قرر الانتصار له..

في اللحظة التي تنهد فيها الأب وضع يده على كتف ولده واستدار ينظر من نافذة السيارة كأنه يبحث عن شيء.. أي شيء يقوله وسمع صرخة عالية تصدر من ياسين، لكن قبل أن يتنبه أحدهما إلى حقيقة ما يحدث توالى في أذانهما أصوات ارتطامات عنيفة وأبواق سيارات عالية..

لا شيء مفهوم.. لا شيء واضح..

السيارة أصبحت كريشة صغيرة تطير بعيدًا عن الأرض وتسقط لتتقلب مرات عديدة على ذاك الطريق الغادر..

حين استقرت السيارة مقلوبة على رأسها وحين تدفق عشرات الرجال من سياراتهم نحوها لينقذوا ما يمكن إنقاذه من سياراتهم التي عبرت حاجز الطريق وارتطمت بسيارات كثيرة كانت تركز على الجانب الآخر، وحين استطاعوا أن يصلوا إلى ركاب السيارة ليخرجوهم بعد عناء طويل صاح أحدهم يقول:

- كلاهما ميت.. لا حول ولا قوة إلا بالله العلي

العظيم!!

إلى هذا الحد لا تفهم أمها.. أم إلى هذا الحد لم تحب
أمها ياسين..

كيف رسمت أوهامًا ولونت أحلامًا في طريق عودتها
إلى البيت بالأمس ..

والد ياسين كان حانئًا طيبًا بدا أنه يعرف قصتهما
وبدا أيضًا أنه

لا يمانع.. كادت بعد كلماته لها أن تسقط على يديه
تقبلهما وتقسم له إن ما يجمعها بولده هو حب أكبر من
كل الكلمات، لكن ظهر حبيبها لحظتها واصطحبه إلى
خارج العيادة..

تمنت لو أخبرته بكلمات والده وتمنت لو أقسمت برب
السماء أمامه إنه أكبر من أن يخدعها أو تخدعه لكن
اليوم وبعد ساعات ستفعل..

ما يؤلمها هو ما فعلته أمها.. كانت أحلام ترقص على
أسفلت الشوارع في طريق عودتها، بل كانت ترقص
وهي تعبر باب بيتهم، وحين فتح جبر شرفته يطمئن
إلى وصولها رفعت عينيها للمرة الأولى لتنظر إلى
وجهه.. تمنت لو تخبره أنها لن تستطيع الزواج به لأنها
مخطوبة للدكتور ياسين..

تمنت لو تسأله إن كان رآه وهو يدخل بيتها ويطرق
باب أمها لخطبتها..

منحت جبر أحلى ابتسامة رآها منها في حياته وهي
تلقى عليه التحية وتنمهل بجوار نافذة بيته تبحث عن
كلمات تقولها عن ياسين أو أخرى تسمعها منه معلنا أنه
وأمه شاهدا من جاء لخطبتها..

لم تطق الصبر كثيرا.. ما زال الوقت طويلا لتحادث
جبر ويحادثها.. تثق أنه سيسعد من أجلها وإن كان على
دخان حرائق قلبه..

في تلك اللحظات كانت تريد أن تطير إلى ذراعي أمها
لتصيح وتسألها: «ألم أقل لك أياما قليلة ونوقد في بيتنا
شموع فرحة كبيرة
لا تموت»..

ظنت أنها لحظة تفتح الباب تجد أمها من فرحتها
تقف على قدميها تهنئها بحبيبيها..

حين دخلت وجدتها، لكنها لم تكن تطلق زغرودة ولا
حتى تسجد لله شكرا..

توحيدة كانت على مقعدها المتحرك تجلس في صالة
البيت وعلى وجهها غمام سوداء تنبئ بعواصف وأمطار
في غير مواسمها..

لم ترد حتى على تحيتها التي ألقها عليها.. ابتلعت
بسكونها فرحة كبيرة كانت ترقص على عروقتها..

حين حاولت أحلام السقوط على أحد المقاعد
لتجلس رفعت الأم رأسها قائلة:

- جلس رفعت حامل القمامة على هذا المقعد اليوم
عندما اضطررت لإدخاله إلى البيت، فهل تجلسين
عليه؟!

دون وعي رفعت أحلام جسدها عن المقعد قبل
الجلوس وألقت بنفسها على المقعد المجاور ليأتيها
صوت أمها يسأل:

- هي مقاعدنا وهو بيتنا.. لم تجلسي حيث جلس
حامل القمامة؟!

لم تفهم السؤال أو ربما لم تكن قضيتها أن تفهم أو لا
تفهم..

رفعت بملابسه المتسخة وأصابه السوداء ورائحته
القميئة من جراء جمع قمامة الحي بأكمله جلس على
مقعد في بيتهم تأنف أن تجلس عليه على الأقل حتى
تقوم بتنظيف المقعد.. ما القضية؟!

رأت أمها تضع يديها على عجلتي المقعد المتحرك
وقالت وهي تمضي:

- إن تزوجته ودخلت بيته ستكونين في عينيه
وأعينهم حامل القمامة.. لن يحتمل أحد وجودك أو
وجودي بينهم لحظات.. حتى هو بعد حين سيفعل..

جبر يضعك على رأسه وتدفعين أنت خلف من يرانا
أهله قمامة يغلقون دونها أعينهم وأنوفهم.. يا فجيعتي
فيك يا أحلام..
يا فجيعتي!

حاولت كثيرًا أن تحادثها.. بكت تقسم لها إن ياسين
يضعها تاجًا على رأسه.. حاولت أن تكذب وتخبرها أن
والده يحبها لكن لم تقل أمها حرفًا واحدًا حتى وضعتها
في فراشها بعد صلاة الفجر ونامت كل واحدة منهن
غافية على جسد أحلامها الضائعة..

هذا الصباح حاولت من جديد أن تتحدث معها..
حاولت أن تبكي وتقسم لكن لا جديد سوى أنها أخبرتها
أنه اليوم الأخير في العمل عنده..

بعد عراق وصياح طويل سمحت لها توحيدة أن
تذهب لتمنحه مفتاح العيادة وتسلمه النقود التي في
عهدتها على أن تعود لتعلن لجبر وأمه أنها تركت العمل
لأن الطبيب طلب منها أن تعمل وردية مسائية بعد
العيادة في مستشفى والده وأنها رفضت لأنها ستتزوج
جبر..

صاحت صيحة مكتومة تقول إنها لن تفعل شيئاً من
هذا.. دونه تموت.. دونه الموت أفضل..

في هدوء رفعت توحيدة رأسها وقالت في ألم
وحسم:

- هو أو أنا وجبر.. أو الموت..

اختاري.. إن اخترت الطبيب لا تعودي هنا أبداً، وإن
اخترتني أنا وجبر لن تخرجي من هنا بعد عودتك هذا
المساء أبداً.. وإن اخترت الموت هو أكرم لك ولي!!

السابعة مساءً ولم يظهر الطبيب.. السابعة وأكثر من
عشر حالات بانتظاره.. تتناوب حالة بعد الأخرى في
تقريبها بشم الكلمات،
لا تعلم ماذا تقول.. حاولت الاتصال بهاتفه أكثر من
خمسين مرة
وما زال مغلقاً..

تحاول أن تبتمس وتعتذر للمرضى لكن تشعر أنها
تنهار..

ما عادت حتى على النهوض عن مقعدها تستطيع..
كل قطعة في جسدها ترتجف.. أصابعها تنتفض في
جنون حتى إنها عن حمل سماعة هاتف العيادة باتت
عاجزة..

لماذا يتهمها المرضى بالتقصير والإهمال وعند دخول
الطبيب عليهم أو دخولهم إليه يبتسمون في وجهه
ويطلبون وده رغم أنه وحده المسئول عن تأخيره أو
طول انتظارهم..

تحاملت على ساقها ودخلت إلى مكتبه وحين
أغلقت الباب استندت إليه لتجهش بالبكاء ناظرة إلى
مقعده..

لماذا يغلّق هاتفه؟ لماذا لم يحضر؟ لماذا حتى لا
يحادثها ويطمئنها بكلمة.. إن لم يكن أمر المرضى يعنيه
ألا يعنيه أمرها..

تذكرت كلمات أمها.. هل هي حقًا لا شيء في أيامه
إلا حامل القمامة..

تختنق لا تستطيع أبدًا أن تحتل كلمات المجنونات
اللاتي في انتظاره.. بإمكانهن الذهاب إلى ألف طبيب
غيره لكن أحلام لا أحد سواه تنتظره وإن تأخر ألف
عام..

في لحظة مسحت دمعاتها وشحذت من صدرها
أنفاسًا عميقة كبيرة وخرجت إلى صالة الانتظار تقول
في هدوء:

- الطبيب يعتذر لظروف طارئة.. من شاء استرداد
ثمن الكشف فليفعل أو فليحضر غدًا.. أسماؤكم بترتيبها
ستبقى إلى الغد..

همهمات غضب كثيرة وكلمات جارحة كبيرة جميعها
موجهة إليها وحدها، ووحدها احتملتها وهي تمنح من
شاءت نقودها وحين خرجت آخر امرأة من العيادة
عادت إلى غرفته لتسقط على ذاك المقعد الذي شهد
لحظاتها المحمومة العاشقة وأخذت تنفض في البكاء
من جديد بعد أن طلبته لتجد هاتفه ما زال مغلقًا..

قبلت المقعد ولطمته ألف مرة.. دشت أنفها في جلد
المقعد تبحث عن رائحته ولطمت على وجهها وهي
تحاول أن تذكر نفسها كم يحبها وكيف ذهب إلى لقاء
والدتها.. ربما ذهب مع والده إلى مكان ما من أجل ذلك

الموضوع المهم الذي جاء من أجله وخرج به من هنا..
ربما كانت أمه مريضة.. أو ربما فقد هاتفه..

ربما أي شيء وألف شيء لكن لا شيء أبدًا يمنعه أن
يتصل بها من أي هاتف يخبرها أنه بخير وأنها في قلبه
ما زالت بخير..

أمها في البيت تنتظر أن تعود إلى الأبد أو لا تعود،
وأيضًا إلى الأبد..

لماذا يحدث كل هذا اليوم؟ لماذا دومًا أفراحها لا
تكتمل؟!

في لحظة تذكرت وجهه.. لا تحبه لكن ليس أمامها
سواه كما أن حجتها وعذرها للحديث معه قوية.. بحثت
عن رقم هاتفه وبعد لحظات من الانتظار جاءها صوته
وقالت وهي تكاد تبكي:

- عم عمر.. أين الدكتور ياسين؟!

قبل أن تقول حرفًا واحدًا سمعته يقول:

- اعتذري للمرضى وأغلق العيادة.. تعرض الدكتور
ياسين ووالده لحادث أمس.. الدكتور عاصم والسائق
ماتا قبل وصول الإسعاف والدكتور ياسين ميت في
مستشفى المعادي!!

هل أطفأت مصابيح العيادة قبل أن تضع مفتاح الباب
في حقيبتها الجلدية المتهالكة وتركض هكذا في
الشارع..

لا تعلم.. لكن كل مصابيح الأرض في عينيها مطفأة..
بل ما حملت حقيبتها معها..

اختطفت بعض النقود من درج مكتبها الصغير من
تلك التي تركتها بعض السيدات اللاتي اخترن العودة
في الغد ووضعتها مع المفتاح في جيب بنطلونها
وركضت.. ليس في حقيبتها سوى ثلاثة جنيهاً
تحتفظ بها طوال الشهر بعد أن تمنح أمها نصف راتبها
لمستلزمات البيت وتشتري بالنصف الآخر أدوية الشهر..
هي لا تصرف مليقاً وتذهب إلى العيادة وتعود منها
سيراً على الأقدام!!

إلى أين تركض؟!

هل تظن نفسها تصل إلى مستشفى المعادي ركضاً
على القدمين.. كيف توقف ساقها عن هذا الهدير وكيف
توقف عينيها عن البكاء ومن أين.. من أين يخرج صوتها
لتوقف به سيارة وتملي على سائقها عنواناً؟!

لا تريد حتى أن تستدعي كلمات عمر..

هو نذير شؤم.. لم تحبه يوماً بل تكرهه منذ اليوم
الأول الذي رآته فيه.. ليتها لم تحادثه لكن من سواه

كانت تلجأ إليه..

ها هو صوتها يخرج في حشرجات بكاء عنيف يجعل كل من يخطون على كورنيش مصر القديمة يبتعد عن طريقها..

تسمع بكاءها.. ترى زهول المارة لكن لا شيء في جسدها تستطيع السيطرة عليه..

تركض عكس اتجاه السيارات فكيف حتى تقف لها سيارة!!

ما تفعله جنون!!

أحلام لا تركض إليه.. تركض هربًا من الذهاب إلى المستشفى.. تركض هربًا من ذكرياتها معه وتهرب من مصيرها دونه وهربها الأكبر من كلمات الدنيا.. عمر حين قال: «هو ميت في مستشفى المعادي»..

ياسين ميت!!

صرخة أخرى كبيرة خرجت من صدرها الذي يكاد لتهدج أنفاسه ودبيب قلبه أن ينخلع من بين ضلوعها..

لا تاريخ يجمعها بياسين.. لا قصص ولا أحاديث مشتركة.. لو أحصت عدد الجمل التي أخبرها بها عن نفسه لما كانت كافية لموضوع إنشاء صغير كذاك الذي كانت تكتبه في واجباتها المدرسية.. لكن هناك عناق أكثر قوة من الأحاديث.. هناك صمت أعلى صوتًا من الحروف.. هناك دموع ذرفت على صدره العاري ودفء شعرت به وهو يضم أصابعها المرتجفة بين أصابع كفه

لتشعل حرائق في جبال الجليد وتكتب مجلدات تاريخ
في بياضه!!

تاريخها معه يختلف لكن على اختلافه جاء عمقه
وارتسم بهاؤه.. لا يمكن بعد كل هذا أن يتركها ويموت..
بل ربما لن يموت لأن تاريخهما معا ما زال عليه أن
يكتمل.. إن أنت اكتمل تاريخك مع من تحب يكن بكاؤك
أقل ولهفتك أكثر هدوءا..

هي وحبيبها ما زال عليهم أن يكملوا قصة ويختموا
تاريخًا لن يموت أبدًا!!

عادت صرخاتها تعلو وهي ما زالت تقاوم ساقبيها
وتحاول جاهدة أن تصل بيديها إلى حجاب رأسها الذي
سقط عن شعرها وشعرت فجأة بيد قوية تمسك بها
وتوقفها..

كادت من قوة الصدمة أن تقع بين ذراعيه وحاولت
أن تراه بعينيها المفتوحتين.. تراه لكن لا ترجفة من
رأسها تخبرها من هو.. غريب
لا تعرفه أمسك بذراعيها بقوة وسط ذهول بعض المشاة
وجاءها صوته يقول:

- ما بك؟ هل يطاردك أحد؟ لا تخافي.. أذفع عنك
أمام من يطاردك؟

لا حروف تجد لنفسها مخرجًا وسط أنفاسها اللاهثة
المتقطعة..

لا صوت يغادر حنجرتها من خلف دموعها ونظرات
المارة حولها..

لحظات والغريب يرجوها الهدوء.. لحظات تستجدي
صوتها الرحمة..

لحظات مدت بعدها يدها إلى جيبها وأخرجت ما فيه
من نقود وانثنت تمسك كف الغريب تهم أن تُقبلها قائلة:

- خذني إلى مستشفى المعادي.. أرجوك!!

يجب أن تأتي.. ليس لأنها عاشقة ولكن لأنها بلهاء
ستأتي.. منذ أخبرها عمر أن أحلام حادثته وأنه أخبرها
بما حدث وهي تنتظرها لتأتي وتسحقها بين كفيها..

ما زال تراب المدافن على ثوبها الأسود بعد عودتها
من دفن زوجها.. ما زال وحيدها ميتًا في غيبوبة عميقة
أجمع الأطباء على أنه قد لا يعود منها ولا يفيق أبدًا..
ما زالت هي صامدة قوية في ثيابها السوداء..

غدا مساء يُقام العزاء لزوجها وربما يكون لولده
أيضًا..

كانت تنتظر أن تلتقيها في سرادق العزاء.. كانت تعد
نفسها لسحقها هناك أمام آلاف تعلم أنهم للعزاء سيأتون،
لكن بعد أن أخبرها عمر بمكالمتها تشعر أن الحمقاء
الدينئة ستأتي هنا..

وحدها سبب موتها.. وحدها كانت سبب خروج الأب
بولده وسيرهما على ذاك الطريق.. لو لم ترم الفاجرة
شباكها حول وحيدها ما ذهب الأب ولا خرج الابن..

ستفتك بها.. ستمزق جسدها قطعًا صغيرة بأظافرها..
وحده دمها يشفي غليل صدرها..

طلبت منه أن يقف في ردهة الدور ينتظرها ويحادثها
لحظة يراها..

إن لم تأت حتى الليل حتمًا تأتي إلى سرادق العزاء..
بل إن لم تفعل ستذهب بعد العزاء إلى بيتها وتنسب
أظافرها في عنقها هناك.. ستأخذ سائقها وعمر
لحمايتها.. هذا التار لن يموت.

رفعت ناهد عينيها الغارقتين في الغضب ونظرت إلى
وجه ولدها الغائب في غيبوبته..

لماذا قتل نفسه وأباه؟!

شيء في صدرها أخبرها أنها هي من أشعلت نازًا ربما
لم يكن لها داعٍ..

ربما ليست هذه الممرضة فتاة أحلامه التي قال إنه
سيتزوجها..

من سواها؟!

لا أحد.. لا أحد سواها!!

انتفضت ناهد عن مقعدها بعد أن شعرت برعشة
هاتفها الصامت الملقى على الطاولة الصغيرة ورأت
اسمه..

أسرعت خارج الغرفة تبحث عنه بعينيها ورأتها.. رأتها
وعرفتتها..

كانت تقف في الردهة إلى جوار عمر.. لم تكن بحاجة
إلى وجوده جوارها لتعرفها..

كل شيء في ملامحها يتحدث ويعلن عن هويتها..

وجهها المبلل بالدموع.. شعرها المتناثر حول حجابها
الرخيص، نظراتها الزائغة التي وقفت على باب غرفته..
تقدمت نحوها في ثبات وسمعت عمر يهمس في
أذني القادمة يقول:

- السيدة ناهد هانم والدة الدكتور ياسين..

شعرت بها وهي تنتفض وأنهار من عينيها تفيض
ومدت أحلام كفها المرتعشة تهمس قائلة:
- البقاء لله..

كانت ناهد تتفحصها قطعة قطعة.. عينيها السوداوين
المشروطتين.. أنفها الصغير.. شفتيها المرتعشتين..
أنفاسها ورائحة عرقها.. ألوان ثيابها القديمة الرخيصة..
ماذا أحب فيها لتكون سبب موته؟! ماذا وجد في هذا
الجسد الأسمر ليتركها تقتل أباه؟!

وقفت عيناها الحادثان طويلاً على كفها الممدودة
وهي تنتفض..

هل تنتفض حزناً أم تراها تدرك عظمة الكف التي تريد
مصافحتها؟

في صوت هادر قالت:

- من أنت؟!

اهتز جسد أحلام وشعرت بهدير ردهة المستشفى
الكبير يصمت بعد سؤال السيدة، استدارت بعينها إلى
عمر كأنها تستغيث به لكنه أرخى رأسه وابتعد..

شعرت بيد ناهد تقترب منها وتمسك بعنقها وهي
تصيح:

- ماذا تريدان أيتها الوضيعة.. أما اكتفيت؟! أما
منحك ما يكفي لقاء جسدك..

كان صوتها هادراً قوياً فاجأ كل من يقف في الدور
بأكمله، ورغم أن كل الممرضات يعلمن بعد الليلة التي
قضتها بينهم كم هي جافة وحادة إلا أن صراخها أقوى
من توقعاتهن..

كانت أحلام بين أصابعها ساكنة لا شيء فيها ينبس
حرقاً سوى ارتجافة أوصالها وهدير دمعتها..

الأخرى أيضاً ما كانت في وعيها.. كانت بصدق وقوة
تتمنى لو تزهق روحها وشعرت بيد تضع أصابعها على
ذراعها وصوت يقول:

- ناهد.. ماذا تفعلين؟ ستقتلين الصغيرة..

استدارت وأطلقت آهة ألم صغيرة من قوة الذراع
التي أبعدت يدها عن عنق الزائرة..

هو الطبيب وليس أي طبيب.. هو سامي أسعد صديق
زوجها وتوأم روحه.. سقطت برأسها على كنفه تبكي
كأنها فقدت سيطرتها حتى على كبريائها..

أحلام كانت تترنح وناهد تصرخ على صدر الطبيب
تخبره أن هذه التي يدعوها صغيرة هي من قتلت
صديقه ووحيدها..

إحدى الممرضات تقدمت نحو أحلام وسارت بها نحو أحد المقاعد البعيدة بينما ابتعد الطبيب بزوجة الراحل بعيدًا وبقي عمر وحده يرقب وجه أحلام في ألم لم يعرف له سببًا سوى ذاك الذهول الذي كساه في أقل من لحظة..

رأى الممرضة ترثت ركبتهما في حنان وتحاول أن تسقيها بعضًا من الماء، وبعد لحظات طويلة سمع صوتها يسأل:

- هل الدكتور ياسين بخير؟!

عندما أخبرتها الممرضة أنه في غيبوبة قد لا يفيق منها إلا على نداء الموت وأن لا طبيب يتوقع له النجاة سقطت دموعها من جديد وقالت وهي ترتجف:

- لم أفعل شيئًا.. ما قالته السيدة خطأ.. أنا لم آخذ منه قرشًا ولم أمنحه شيئًا له مقابل..

«رغم هذا يجب أن تذهبي.. وجودك يثيرها.. إن كتب الله لياسين الحياة قد يبرئك عند أمه، لكن على كل الأحوال خروجك من حياة هذه العائلة أمر حتمي.. امنحي مفتاح العيادة لعمر.. اذهبي ولا تعودي هنا أبدًا.. لن أستطيع إنقاذك منها كل مرة!!»

عاد الطبيب من عند السيدة وحده ليقول هذه الكلمات، ونظرت إليه أحلام تتحسس جيبها لكنها نهضت في صمت ووقفت أمام الطبيب لتقول:

- هل أستطيع أن أراه ولو دقيقة!!

رئت الطبيب الكبير كنفها قائلاً:

- لا.. طلبت مني السيدة أن أطلب من أمن المستشفى
أن يمنع دخولك إلى هنا مرة أخرى.. اذهبي واصنعي ما
أخبرتك به.. صدقيني ياسين لن يشعر بك.. هو شبه
ميت ينتظر قرار تشييعه..

حين أدركت أن لا محالة استدارت تخطو نحو مصعد
المستشفى وسمعت الطبيب يقول:

- اذهب معها يا عمر واستلم منها مفاتيح العيادة..
خذ.. امنحها هذه النقود مني أنا!!

حاولت كثيرًا أن تعرف ماذا أصابها لكن دون جدوى..

توحيدة

لا تقول سوى كلمة واحدة: «الحمد لله.. كل شيء على ما يرام»..

تهدت عواطف وهي تطوي أحد الثياب التي انتهت

صديقتها من حياكتها وقالت في هدوء:

- متى نحيك ثياب عرس ابنتنا؟!

انتفضت توحيدة في ألم تنظر إلى عيني جارتها كأنها

تحاول أن تقرأ شيئًا تخشى أن تكون عرفته..

هل أخبرتهم أحلام بشيء قبل خروجها إلى العيادة..

مجنونة ابنتها إن فعلت بل حقًا تظنها فعلت..

كيف ظنت أن تستسلم وتذهب إليه وتضع مفتاح

عيادته وتخبره أن ينسى قصتهما معًا وتعود..

المجنونة الكبيرة هي توحيدة نفسها.. أرادت أن يبدو

كل شيء طبيعيًا أمام جبر وأمه.. لكن أحلام لم تعد

حتى الآن وعواطف تسألها سؤالًا قد يكون خلفه تصرف

أحمق من ابنتها الخرقاء..

بخبرة الأعوام وتجاعيد التجارب اقتربت عواطف من

صديقتها وقالت في حنان:

- اسمعيني جيدًا.. أعلم أنك تحبين ولدي كما أحبه

وتعلمين أنه يحب ابنتك بجنون، لكن هذا لا يعني أبدًا

أن نرغم الفتاة على شيء.. توحيدة..

كل ظنونها تتأكد.. مرت أحلام عليهم وأخبرتهم بقصة
الطبيب الذي جاء بالأمس.. لا تصدق أنها تقتلها مرتين،
ورفعت رأسها تنظر إلى جارتها وصديقة عمرها من خلف
دموعها قائلة:

- هل تعرفين حبات الرمل التي ينفذها ولدك عن
حذائه.. هي أظهر وأعلى من رأس ابنتي..

عادت الأخرى تربت كتفها وتسال في قلق:

- ماذا حدث؟! أنت حزينة.. هل فاتحتها في موضوع
جبر؟!

لماذا بكت وانحنت تحاول أن تقبل يديه ترجوه أن
يتركها تمضي ويلقاها في الغد ليستلم منها مفتاح
العبادة..

لأن حقيبتها هناك.. لأنها متعبة ومنهارة ولا تكاد
تستطيع الوقوف على قدميها..

كل هذا كذب وهي تعلم وإلا ما ركضت إلى العبادة
وأغلقت خلفها بابها..

السؤال الحقيقي هو لِمَ قبل عمر رجاءها رغم أن
أسياده أصدروا له أمرا واضحا لا يحتمل التأجيل؟!

ربما لأنه يشعر بالظلم والإهانة التي نالتها، أو ربما
لأنه هو الآخر متعب ويريد العودة إلى بيته..

ولماذا تفكر في هذه الأمور الصغيرة.. عادت إلى
العبادة وتعلم ما الذي تريده منها حقًا..

خلعت حجاب رأسها في هدوء ليسقط على أرض
الصلاة..

ياسين مات، بل سبقتة هي إلى الموت إن كان لقاؤه
هو به سيتأخر..

أصبحت في عيني أمه قاتلة، بل وإن عاد حبيبها من
غيبوبته قد يراها كذلك..

ليته فقط يحيا.. لا تريد أن تخلو الأرض من أنفاسه..
لا تريد أن يُحرم الأسفلت من وقع حذائه..

عندما فتحت باب غرفته وأشعلت مصباحها وقفت
عيناها على مقعده الخاوي..

ماذا تفعل السيدات اللاتي سيأتين غدا ليوقع عليهن
الكشف.. ماذا ستفعل سيدات كثيرات ينتظرن أن يضعن
حملهن بين يديه؟ ولطمت وجهها في قسوة بكفيها..
ماذا تفعل هي دونه؟!

في اللحظة التي استدارت تهرب فيها من وجه
ياسين المرسوم على مقعده رأت وجهه على مقعد
ال(Lazy Boy) حين يمد ذراعيه يجذبها لتسقط فوق
صدره..

تقدمت نحو المقعد وسقطت راکعة على قدميها تبكي
في جنون تضم المقعد بذراعيها..

لن يضمها أحد.. لن يقبلها أحد.. ياسين كان كل رجال
الدنيا..

فلتنهض لتعود إلى أمها وتخبرها أن الموت الأحق
تركها وأخذ حبيبها..

لا وقت لديها.. تعلم ما يدور في رأسها وتعلم جيدا ما
الذي جاء بها إلى العيادة..

أحلام تريد شيئا من رائحة هذا المكان الذي تعلم علم
اليقين أنه حُزَم عليها وسيده كحرمة الجنة على
المشركين..

تريد شيئا يحمل شيئا من أنفاس حبيبها.. لا شيء
على الأرض يحمل أنفاسه كهذا المقعد، لكن كيف تخرج

بمقعد كهذا وقد رأت بعينيها رجالاً ثلاثة يحملونه لثقل
وزنه؟ وكيف أيضًا لها أن تتركه وهو مغزول برائحة
عشقهما وعرقهما ودمعهما معًا؟

غداً يلقاها عمر ويأخذ منها المفاتيح.. هي فرصتها
الأخيرة..

عندما نهضت وذهبت إلى مكتب الغائب في غيبوبة
موته التقطت القلم النحيل الذي يكتب به الدواء
ونظرت حولها في جنون..

لا شيء سوى المقعد.. لا شيء تشتت فيه وتشتت
الموت عليه بكاء وحسرة سوى المقعد.. بعد لحظات
حسنت أمرها..

وضعت حجابها على رأسها وحملت حقيبتها بعد أن
أقلت بالقلم في جوفها وأطفات مصابيح المكان وحملت
القطعة الصغيرة الجلدية التابعة للمقعد التي كان يضع
ياسين عليها ساقيه أو يجلسها هي عليه بين ذراعيه
وخرجت..

لا تعلم ماذا تقول لأمها أو بماذا تبرر لها وجود هذا
الجزء الصغير الذي تضمه بذراعيها إلى صدرها، لكنها
تعلم أنه كل ما تريد أن تموت عليه أو تنتظر عليه
الموت..

وقفت أمام باب البناية تنظر حولها وهي تفكر من
خلف دموعها كيف تستطيع السير به إلى البيت، وقبل

أن تصل إلى قرار شعرت بذراعه القوية تمسك برأسها
من الخلف في قسوة وهو يصيح قائلاً:

- أيتها الحقيرة.. كنت أعلم أنك ستأتين لسرقة
العبادة..

سقط «البانكيت» الجلدي من بين ذراعيها على
رصيف الشارع وهو ما زال يلوي رأسها في قسوة
واستدارت تبكي قائلة:

- عم عمر أقسم لك إني..

قاطعها قائلاً:

- احمليه وفي قسم الشرطة قولي ما شئت أيتها
الفاجرة!!

لماذا دقت كل هذه الطبول على رأسها؟ لماذا رفضت
أمها ياسين؟ لماذا خيرتها بينه وبينها أو الموت؟
أصابت لعنة الموت ياسين وأصابتها.. كلاهما شبه
ميت ينتظر تنفيذ الحكم؟!

لماذا يحدث كل هذا في يوم واحد؟! لماذا شنت عليها
والدة ياسين كل هذه الحرب؟!
واضح أنها كانت تعلم علاقته بها.. حتى الدنيء الذي
اسمه عمر كان يعرف..

اتهمتها أنه كان يعبت بجسدها ولم تعترض من قبل..
كان عمر يعرف بعلاقتها ويكتفي برميها ببعض
العبارات القاسية لا أكثر..

والده كان يعرف.. كلماته لها كانت واضحة.. ربما مات
الرجل لأنه وحده لم يرد أن يصوب نحو صدرها
رصاصه.. رغم هذا لم يحاربها أحد أبداً إلا عندما أعلن
ياسين رغبته في الزواج منها..

البشر يحاربون «النور».. البشر يكرهون الخير!!

تركوها معه يوم ظنوا أن ما يجمعه بها الحرام، ويوم
أعلن أنه يريدتها في الحلال والنور أشعلوا النيران ودقوا
الطبول..

اعتدت عليها أمه وأعد لها عمر الكمين وجذبها إلى
مركز الشرطة مصطحباً معه بواب العقار شاهداً عليها..

لا أحد يرضى للفقير بالنور.. مسموح له بالعبث في
الظلام.. في الخفاء وفي الحرام..

تم سحقها بنجاح كبير وها هي تجلس على مقعد
خشبي متهالك تنتظر تحرير محضر ضدها بالسرقة..

بكت كثيرًا في الطريق تستجديهما أن يتركاها.. كانت
تئن وهي تسأله ألا يفكر لَم لَم تسرق نقودًا من عيادة
الطبيب أو تحمل سجادًا أو تحفًا..

هذا المقعد، بل هو ذيل مقعد، لا قيمة له..

لم يجبها أحد.. حتى الحارس العجوز الذي كان يحبها
ويدعو لها وقف يلعنها مع عمر وينعتها بأقذر الصفات..

جفت دموعها ونضب ماؤها حين سمعت عمر يحدث
السيدة ويخبرها أنه ضبطها تسرق عيادة وحيدها..

جفت عروقها وشل لسانها وهي تسمعه يختتم
مكالمته معها بقوله إنه لن يتركها إلا بعد ترحيلها إلى
النيابة..

ما جريمتها؟!

ليست السرقة ولا الحب.. جريمة أحلام هي السذاجة
والظن الحسن..

لن يتركوها تفلت أبدًا.. امرأة دفنت زوجها هذا
الصباح وتجلس إلى جوار وحيدها الذي ينتظر الموت لا
تعبًا حتى بالدعاء له وجل همها أن فقيرة مثلها أخذت
مقعدًا صغيرًا من عيادة ولدها هي امرأة لن تتركها إلا

على حبل المشنقة.. ماذا تقول لأمها المشلولة؟! ماذا
يقول عنها جبر وأمه.. سيعرفان.. سيبحثون عنها وحتماً
سيصلون إليها ماذا تقول؟!

سرقتم مقعداً كانت تمارس عليه الغرام مع رجل مات
أو كاد يموت لأنه يحمل رائحته ورائحة أنفاسه..
ماذا تقول؟!

الصمت لها أشرف.. السرقة أهون من إعلان الفجور
والإفصاح عن لحظات الغرام بين طبيب يموت وممرضة
حفياء!!

لم يكن الوصول إليها صعبًا أبدًا..

ما إن قاربت الليلة على منتصفها وصعد إلى والدتها يسألها عن سر تأخرها حتى أجهشت الأم بالبكاء ليطلق ساقيه للريح باتجاه العيادة التي تعمل فيها.. لم ينتظر لحظة ليسألها لماذا لم تخبره وتخبره.. لم ينتظر شيئًا خاصة بعد أن أخبرته أن هاتف أحلام مغلق وهاتف العيادة لا يجيب..

قبل حتى أن يدخل بناية العيادة القريبة، وبعد أن رفع عينيه ينظر إلى نافذتها ليجد أضواءها مطفأة، شعر بحارس العقار ينظر إليه في ألم ويقول ساخرًا:

- عدنا نحن وتبيت في مركز الشرطة ليتم تحويلها إلى النيابة صباحًا.. سامحني لم يكن في استطاعتي إلا أن أقول الحق.. تسرق عيادة الرجل لأنها علمت أنه يموت.. خدعتنا جميعًا ابنة توحيدة..

كان بيكي في طريقه إلى مركز الشرطة.. كان حقا بيكي..

كيف ظلموها؟! بل هم دبروا لها أمرا..

أخبرته أمه بزيارة الطبيب لمنزلها بالأمس في أمر لم يفهمه جيدًا.. كان ينتظر الجمعة ليتناقشوا فيه جميعًا..

لا بد أنها مكيدة.. ربما أغضبهم أن رفضت توحيدة السماح لها بالعمل حتى منتصف الليل في مستشفى

الطبيب كما طلب فدبروا لها المكيدة..

لكن لماذا يفعلون؟! ليست الممرضة الوحيدة في مصر بل أحلام ليست ممرضة في الأساس، ومن يدبرها إذا كان الطبيب نفسه يحتضر في المستشفى كما أخبره الحارس..

أحلام في مركز الشرطة؟!

ماذا تراها تواجه وكيف برقتها وبراءتها تحتل؟!!

لم يكن قسم مصر القديمة بعيدا لكنه حين وصل ووقف يلتقط أنفاسه أخرج جبر هاتفه من جيبه وطلب بهجت متولي وقال في صوت داعم:

- أحتاج مساعدتك أرجوك.. أحتاج زوج ابنتك معي، أرجوك بكل ما هو عندك عزيزا!! لن أدخل المركز دونه أبدا!!

مات السائق؟! لو لم يمته لقتلته بيدها.. كان يجب أن يكون أكثر حرصاً في القيادة.. تحطمت سيارة ثمنها يقارب نصف المليون جنيه..

مات زوجها؟!

أحمق هو الآخر.. كثيراً ما طلبت منه الامتناع عن الجلوس بجوار السائق لكنه يخجل ألا يفعل.. قتله التواضع وحب السائقين والخدم..

حزينة لرحيل زوجها.. كان واجهة أنيقة لحياتها.. لكنها تعبت من مراقبته وتتبع خطواته خوفاً من حماقاته وقراراته.. يوماً كان سيأتي ويموت.. غيابه لن يشكل فارقاً كبيراً في أيامها.. ما كانا يلتقيان إلا في الدعوات الرسمية والسفريات..

نال كل منهما ما يريد.. ألم يكن يدعو الله دوماً أن يموت بعد أن يوقع الكشف على آخر مريض من مرضاه..

حقق الله مبتغاه..

لم يكن حتى يومها في عيادته الخاصة بل كان في المستوصف الخيري الذي يجري فيه الكشوفات المجانية..

مات عاصم بعد كشف مجاني إلى جوار سائقه وبعيداً عنها.. حتى إجراءات الميراث لن ترهقها.. ليس هناك

شيء باسمه.. كل شيء كان يشتريه باسم وحيد أو اسمها..

كان عاصم مُرهقًا في حياته سهلاً في موته ورحيله..
دمعة صغيرة طفقت من عينيها وهي تتذكر وحيدها..
لن يموت؟! شيء كبير بداخلها يخبرها أنه لن يموت..
تثق في صدق حدسها وأنها ترى ما لا يراه أحد..

ألم تر بعينيها أمس كذب الماجنة التي جاءت
المستشفى.. ألم تجزم لعمر أن مفتاح العيادة في جيبها
وأنها ستخرج لتسرقها.. ماذا أحب ياسين فيها؟!
جميلة.. رقيقة.. ناعمة؟!

ما زال هناك من هن أكثر منها جمالاً ورقة.. بل إن
الجمال والرقّة دون أناقة وكماليات لا يستحقان أبداً أن
يقف أمامهما شاب كوحيدها..

هناك «جين» لم يصل إليه أحد بعد.. جين يجعل
الإنسان لا يرى نفسه أبداً بحجمه الطبيعي..

لو عرف كل إنسان نفسه وقدرها حق تقديرها
لاستقامت الدنيا وأحوالها..

لو كان زوجها يعلم أن الله قدر له أن يكون الطبيب
الكبير زوج ابنة الحسب والنسب لكره أن يداعب خادمة
أو يجلس إلى جوار سائق ويتطوع بعمله وجهده في
جمعيات الخير.. ولربما ما كان الآن ميثاً مدفوناً مع
النسيان..

لو أن وحيدها علم أنه ثمرة كل هذا ما فتح عيادة
في منطقة موبوءة كنتك ولا جرؤت فتاة صغيرة لصة
أن تنصب حوله شباكها..

كيف يرضى أن تدخل فتاة مثلها إلى عالمه.. كيف
تتحرك غرائزه نحو امرأة لا تعرف العطور أو المساج أو
مستحضرات التجميل؟!

جاءت المستشفى تبكي ثم ذهبت تسرقه..

ما زالت تدهشها قصة «البانكيت» الصغير الذي
سرقته.. طلبت من عمر أن يعود من مركز الشرطة إلى
العيادة.. أرسلت سائقها الخاص ينتظره ليصعد معه
ويفتح المكان مغا..

أخبرها أن هناك مبالغ نقدية لا بأس بها في مكتب
ولدها الخاص غير المغلق، ومبالغ أخرى في درج مكتب
الممرضة نفسها..

تركت كل هذا وحملت قطعة ثقيلة لتخرج بها.. ألا
يسرقون ما خف وزنه وثقل ثمنه؟!

حين تستلم المقعد تفتح قلبه.. ربما خبات شيئاً
بداخله، بل ربما كانت تسحب من ياسين نقوداً كثيرة
وتخبئها في داخل المقعد..

الفتاة ليست بلهاء إلى هذا الحد؟!

لماذا فعل هذا بنفسه؟!

أغمضت عينيها على دمعاتها..

تخشى ألا يعود؟!

كل يوم يمر وهو في غيبوبة تقترب به من الموت..

تدعو الله أن يعيده إليها.. لا تريد أن تفقده.. تريد أن يعود وتخبره بقصة اللصة التي بسببها مات أبوه والسائق ودمرت سيارتهم الفارهة..

يجب أن يعود ليعلم أن كل إنسان خلق لما قدر الله له أن يكون..

البشر لا يمتزجون إن اختلفت فصائلهم أبداً..

في ألم رفعت عينيها تنظر إلى من يهمس يناديها لتجدها خادماتها..

كانت تبكي في صمت وحين سألتها ماذا تريد قالت:

- أريد رؤية الدكتور ياسين.. اسمحي لي بزيارته.. أرجوك..

هل كانت هذه غايتهم؟!

يريدون حب الفقراء والمجانين.. ربما كان حبهم أكبر

وأصدق لكنه حب لا يجلب إلا التعاسة والشقاء!!

السرقه لا إفراج فيها وإن كانت الكفالة ملايين..
 سرقه أحلام لها ظرف مشدد لأنها تمت ليلاً.. ضُبطت
 متلبسة في وجود شهود، بل حتى المقعد الصغير الذي
 جاءت المركز تحمله بين يديها ليس ممزقاً أو مكسوزاً
 فتدعي ذهابها لإصلاحه..

مرض الطبيب مالك العيادة ورقاده في المستشفى
 بين الحياة والموت ووجود شهود آخرين رأوا هناك
 وسمعوا إنكارها لوجود المفتاح معها كما قال عمر أيضاً
 يجعل لا منفذ أمامها ولا مخرج..

لا شيء يا جبر.. الطريق مسدود.. ستبيت جارتك في
 المركز وتعرض على النيابة ويجدد حبسها مرة تلو
 الأخرى حتى يحدد لها موعد للمحاكمة.. هي سرقه مع
 سبق الإصرار والترصد..

كل هذا سمعته بأذنيها.. كل هذا رآته بعينيها وهي
 واقفة تنتفض خلف جبر والضابط الذي جاء معه
 يتحدث إلى ضابط القسم الذي كان واضحاً أنهما
 صديقان..

«إن ذهبت القضية إلى النيابة لا أمل.. كل ما أستطيع
 أن أفعله هو أن أستبقئها هنا حتى الصباح.. اذهب إلى
 السيدة ولتحضر لتتنازل عن المحضر.. إن لم يحدث لا
 أمل»..

استدار جبر ينظر إليها في ألم.. رأت في عينيه طبقة
كثيفة من الدموع تصارع السقوط وهو يرجو من جاء
بصحبتة أن يذهب معه إليها.. على مضض أخبره الآخر
أنه سيفعل..

بذات الدمع نظر إلى ضابط القسم وقبل أن ينبس
حرفاً نهض الرجل عن مقعده وأخذ صديقه إلى خارج
الغرفة ليتركه معها وهو يقول:

- لا تخش عليها .. سأفتح لها غرفة مأمور القسم تنام
فيها..

لم يقف كثيرًا أمامها حتى عاودتها نوبة بكاء حادة
ودون وعي ألقت برأسها على صدره وهي تنتحب قائلة:
- والله لم أسرق يا جبر..

ظنت عينيها جفتا لكن العيون كالقلوب تفاجنا
بالحب في لحظات نظن فيها أنا دفناه في مقابر
النسيان..

برفق أبعدها عن كتفيه وهو يقول:

- كان يجب أن تحادثيني مبكرًا.. كيف أتركك هنا
وحدك الآن! قد ترفض السيدة لقاءنا وقد يثير ذهابنا
إليها الآن غضبها أكثر..

أمسكت ساعده بكلا كفيها تقول:

- إياك والذهاب إليها.. إياك يا جبر.. هي قاسية..
دبرت كل شيء ولن تتركني أخرج.. لا تذهب.. أموت أنا

إن أنت ذهبت..

في ألم عميق نظر إلى وجهها الذي أصبح كوجه أرنب
بري يركض في غابة مسكونة بالأرواح الشريرة ليقول:
- وأموت أنا إن بقيت أنت هنا.. ليس أمامنا سواها..
هي أمل إن ضاع متنا جميعاً..

حين رآته يخطو إلى الباب المغلق صاحت تقول:

- قل لي إنك لست غاضباً مني..

حبيبته ليست سارقة.. حبيبته بين أضلعها سر لا يريد
أن يعرفه الآن.. يخرج بها من أزمته ويعاتبها أو
يسامحها إن شاء دون عتاب، وقال في ألم:

- شاركت أمي وأمك في تربيتك.. إن أنا سرقت
تسرقين .. أنا غاضب لأنك نسيت هذا التاريخ ولم
تحادثيني.. أنا رجلكم يا أحلام..كيف نسيت وكيف..
كيف بعدها لا أغضب؟!

رَبَّت الطبيب كنفها في هدوء وعاد يخبرها أن الأمل
في عودته كبير.. جميع أجهزة الجسم تعمل بانتظام..
«هناك حالات تستمر غيبوبتها شهورًا يا ناهد.. مازلنا في
الأيام الأولى»..

ابتسمت وهي تنهض عن مقعدها الذي جلست عليه
إلى جواره، لم تكد تصل إلى باب الغرفة وحتى وجدت
إحدى الممرضات تسألها عن السماح بالزوار.. في ثبات
أخبرتها أن لا زيارة لأي إنسان وإن على كل من يأتي أن
يترك اسمه وما أحضره من زهر أو حلوى إن فعل
ويمضي في سكون.. لن تخرج إلى لقاء أحد في صالات
الاستقبال الخارجية..

حين أغلقت الباب واستندت إليه بظهرها ترقب وجه
الغائب على رجع صوت الأجهزة الطبية تنهدت في ألم..
لماذا ينظرون دوماً إلى عينيها.. الطبيب والممرضات
وحتى جموع المعزين في ليلة العزاء والزوار الذين
استقبلتهم في المستشفى..

يبحثون عن دمعها.. نعم ترى دهشة كبيرة في أعينهم
كلما وجدوا عينيها من الدمع خاويتين..
حمقى! هناك أحزان أكبر من أن نبكيها دموغًا..

رحيل زوجها ليس فجيعتها ولا حتى غيبوبة وحيدها

الذي

لا تعرف هل يعود منها أم تراه يختار اللحاق بأبيه..

فجيعتها فيهما مفا.. غضبها منهما وعلى نفسها..

من أجل ماذا صنعا بنفسيهما هذا..

من أجل طفلة بلهاء عندما لم تجد ما تسرقه سرقت
مقعدًا صفيًا وركضت به..

ألت بجسدها على المقعد المجاور لوحيدها وعادت
تنظر إلى وجهه في سكون..

تنازلت عن المحضر وطوت صفحة قصة المجنونة
التي عشقها.. لم تتنازل إكرامًا لضابط الشرطة الشاب
الذي جاء، فكل رؤسائه أصدقاؤها أو يتمنون صداقتها..
ولا تنازلت إكرامًا لذلك الخطيب الذي وقف أمامها يلقي
عن فتاته خطبة عصماء..

تنازلت ناهد لأنها أخذت ما تريد من القصة..

أخذت محضرًا رسميًا يثبت أنها ضُبطت متلبسة
بالسرقة، إن عاد وحيدها تربه إياه وتخبره أنها إكرامًا له
ما تركتها تُسجن..

تنازلت لأنها لن تحتل رؤية ذاك الشاب من جديد،
فهي إن لم تفعل تعلم أنه سيلاحقها..

عندها من الشئون والأمور ما يجب أن تتفرغ له..
تنازلت وعندما أدخل سائقها المقعد الصغير إلى البيت
وشق جلده تنفيذًا لأمرها لم تجد شيئًا..

ابتسمت لحظتها..

وحيدها عشق حمقاء!!

ماذا كان اسمه ذاك الخطيب.. جبر.. نعم ذاك اسمه..
لا تنكر أنه نال إعجابها.. حبيبته اللصة في عينيها كانت
ككل من هم على شاكلتها.. ذات الثياب وذات الرائحة..
وحده الخطيب كان يختلف..

كانت أنفاسه ترتجف خوفًا من أن ترفض التنازل،
ورغم هذا كانت حروفه هادئة ملونة بالعزة والكبرياء..

في لحظة كانت سترفض فقط لتسحقه، لكنها
ابتسمت تخبره أنها كانت ستتنازل على أي حال..

قبل أن يشكرها ويمضي مكرّمًا عزاءه لها ودعاءه
لوحيدها بالشفاء سألته هل هي أخته..

لم تستطع أبدًا أن تمنع تلك الضحكة التي خرجت من
بين شفثيها حين أخبرها أنها ستصبح زوجته..

أمسكت بهاتفها الصغير وطلبت محاميتها وأخبرته أن
يذهب للتنازل عن المحضر.. واستدارت نحوه تقول:

- اذهب وحين تراها أخبرها أنها حقًا بارعة في جمع
الرجال!!

رأت في عينيه شررًا شعر به وأغلق عينيه بعض على
شفثيه في ألم..

كلاهما يعلم أنه لن يتحدث، ووحدها تدرك أنها يجب
أن تتنازل..

لا تريد عداء مع هذه الطبقة.. هذه السماح والحنان
الذان ألقى بهما خطبته إن هي لم تقبل قد تتحول إلى

غدر تدركه..

هي بكل علاقاتها وحدها.. لا تريد عداء مع هذه الفئة
التي

لا تحمل داخلها إلا الحقد والشر..

غايته تحقق وبأوراق رسمية، لكن هذا لا يمنع أبداً
أن جبر أعجبها حقاً!!

ما زالت على قيد الحياة.. ما زالت تتنفس وتخطو
وربما ما زالت أيضًا عذراء..

أطلقوا سراحها وغادرت مركز الشرطة دون رجعة..

أربعة أيام منذ عودتها وهي لا تغادر غرفتها..

أربعة أيام لم يحضر فيها أحد سوى عواطف
لزيارتهم..

دخلت السيدة إليها وأخبرتها أنها ما زالت ابنتها
وتحبها، لكن أحلام تعلم أن شيئًا في صوتها تغير وشيئًا
آخر في عينيها كان يصرخ بالعكس..

بالأمس سمعتها تخبر أمها بصوتٍ عالٍ كأنها تريد أن
تسمعها أن حارة السكر والليمون بأكملها وحتى الشوارع
المحيطة انتشرت فيها قصة السرقة، وأن كئيرات من
زبائن توحيدة حادثنها يردن ثيابهن سواء حاكنها
السيدة أم لم تفعل..

كل شيء فيها مات.. حتى ياسين نفسه أصبح عضوًا
ميثًا متعفنًا في داخلها.. كلما تذكرت وجهه أدارت
وجهها خجلًا وندقا..

كلما مرت صورته أمام عينيها ورأت كيف كانت تتمرغ
بين ذراعيه وتسقي جسده العاري دمعا وقلبات تتمنى
لو ماتت..

بل قد لا تريده أن يعود للحياة كي لا يرى ما صنعوه
بها من أجله..

كل هذا لأنها أخذت مقعدًا صغيرًا لا يعني لهم شيئًا
لكنه كان يعني لها كل شيء..

ماذا يشكل لهم ذلك الجزء من المقعد.. ما زالت حتى
الآن لا تعلم بماذا تفسر لأمها أو لجبر إن سألاها عنه..
وهل من تفسير..

ماذا تقول؟! وكيف تقول إنها ما سرقت ولا أرادت إلا
شيئًا صغيرًا ترتمي عليه بعد أن رماها القدر بعيدًا عنه
يوم ألقاها بين يدي أمه..

كيف تخبرهما أنها ما أرادت إلا شيئًا من راحته!!

هناك أيام تطول كأنها الدهر وهناك أيام تمر سريعًا
كأنها العمر..

عشرة أيام منذ تحررها من شبح القضية والسجن..
عشرة أيام منذ عاد بها جبر في الصباح التالي من مركز
الشرطة بعد أن تم التنازل عن محضر القضية، لكنها أيام
طويلة كأنها الدهر..

ما عادت الفتاة تأكل.. حين أجبرتها عواطف على
تناول بعض اللقيمات رأتها بعينيها تركض إلى حمام
البيت تلقي بها خارج جوفها..

توحيدة كالميتة التي غابت عنها الروح وبقي منها
عينان لا تكفان عن البكاء.. معظم من كان لهن ملابس لم
تنته حياكتها طلبن منها أن تسلمهن إياها، والقلة الباقية
التي دخلت البيت لم يأتين من أجل الثياب، بل جنن
بحثًا عن وجه أحلام، وحين لم يجدنها أمطرن الأم
بالأسئلة والتهكم..

بالأمس سعدت جارتها وجمعت كل ما تبقى لديها من
الثياب وأعادتها إلى من تركنها قبل أن يغدن ويستكملن
أسنلتهن..

الشفقة تقتلها على جارتها وابنتها.. الحزن يقتلها على
وحيدها الذي تراه هو الآخر يموت حزنًا على ما أصابها
لكن لا شيء من هذا يساوي ما سمعته منه منذ
لحظات..

لا شيء!!

ما زال يحبها.. يريد أن يصعد الآن إلى أمها ويخبرها
أنه سيتزوج أحلام..

منذ قال الكلمات ورأسها متدلاً فوق صحون الطعام
التي أعدتها لتناول غداء الجمعة مغاً..

لحظات كأنها الدهر.. شيء في قلبها يرفض أن يتزوج
وحيدها من أحلام بعد ما حدث.. شيء في ضميرها
يخبرها أن الفتاة بريئة لكن ما عادت القضية براءتها..

القضية الآن طهارتها.. عواطف تشعر أن أحلام لوئتها
يد الطبيب.. كل من زرنها من السيدات أخبرنها أن
المترددات على العيادة كن يلوكن سمعتها وهن يلحظن
نظراته إليها ومجونها بين كفيه..

لم لم يتحدثن من قبل.. اعتدن زيارة توحيدة ومنحها
الثياب لحياكتها، بل أكثر من امرأة كانت تريد خطبة
الماجنة لأحد أبنائها..

هن كاذبات ولكن..

انتفضت عواطف وهي تشعر بوحيدها يضع يده على
يدها الملقاة على فخذاها ورفعت عينيها تنظر إليه في
أم وسمعتة يقول:

- نعلم أنها بريئة.. قصة المقعد خلفها قصة يا أمي..
أحلام نشأت هنا.. على ذراعيك وذراعي.. هي بريئة..

سقطت دموع الأم وهمست:

- تعكّر الكوب يا ولدي.. قد يكون الماء طاهراً لكن لم
نشرب من كوبٍ تعكّر؟! ما عادت متهمّة بالسرقّة فحسب
.. هي متهمّة..

قبل أن تكمل قاطعها في لوعة:

- وإن كان.. ما زالت طاهرة وما زالت ابنتنا.. سأطلبها
وأزوجهها.. لن يرفع رأسها أو رأس أمها سوى الزواج
وبأسرع وقت..

كأنها تقاوم رغبتها في الاقتناع بما يقول عادت تقول:
- وأين حديثك عن استغلال الظروف في الزواج.. أما
قلت يوماً إن ما يؤخذ بسيف الحياء هو حرام؟!
نهض جبر عن مقعده ووضع على رأس أمه قبلة ثم
ضمها إلى صدره قائلاً:

- يا حبيبتي.. إن كان الحياء في ذاك اليوم وحده
يدعوها لقبولي زوجها فأنا أعلم أن الحياء وحده يمنعها
ويمنع أمها اليوم عن طلب الزواج.. فلنصعد إليهم، لن
نطعمهم طعاماً بارداً..

في طريقهما إلى الباب وقفت الأم واستدارت إليه
تقول:

- هل تنزوجه اليوم شفقة؟!

ابتسم ابتسامة حانية وهو يقول:

- بل حبّاً وعدلاً.. هي بريئة يا أمي وطاهرة حتى إن
تعكّر الكوب أو تلون!!

لا تصدق أبداً أنها ستغادر غرفتها مرتدية ثياب الخروج وتخرج مع جبر لشراء غرفة نوم تنام على فراشها بعد عشرة أيام وتمنحه جسدها.. كيف وافقت، بل كيف نقر أموراً كانت في أعيننا المستحيل بعينه.. هي حتى لم تقل لا..

بالأمس وحين كان هو وأمه يتناولان معها وأما غداء الجمعة دخلت أمه غرفتها وهي كعادتها ملقاة على سريرها، جلست إلى حافة الفراش وأخبرتها أن جبر ينتظرها بكوب شاي من يدها ويريد أن يحادثها في أمر مهم..

اعتدلت جالسة في فراشها وحاولت أن ترفع عينيها وتنظر إليها لكن ما حاولت يوماً إلا وأطاحت أجفانها ضربات من جيوش دمعها!!

المرأة وضعت كفها على يدها وقالت:

- أعلم أنك ظلمت ظلماً كبيراً، حررينا من هذه الظلمة.. لننس كل شيء يا أحلام.. أمك تموت وجبر يريد أن يحييها ويحييك..

دلّت ساقها وبدلت ملابسها وخرجت إليهم.. تناولت بعض اللقيمات رغم فقدانها شهيتها وأعدت له كوب الشاي وفي أدبه وحنانه أخبر أمها أنه يريد أن يحادثها على انفراد وتوجّهها معاً إلى غرفة الصالون الصغيرة..

حمل من يدها كوب الشاي وأغلق دونهما الباب وحين
اختارت الجلوس على أحد المقاعد حمل مقعدًا آخر
واقترب به من مقعدها ثم جلس بجوارها عليه..

سمعته يرشف يرشف رشفة من كوب الشاي وجاءها صوته
يسألها قائلاً:

- أحلام أما أن الأوان لرأسك أن ينتصب؟! ارفعي
رأسك وضعي عينيك في عيني..

شهقت شهقة صغيرة انسابت بعدها دموعها بجنون..

عشرة أيام تقريبًا منذ تلك الليلة السوداء ورأسها
متدلّ فوق صدرها.. تحاول أن تنظر إلى وجه أمها وهي
ترفع قدميها على فراشها ليلاً أو حين تتوكأ عليها
صباحًا لتجلس على مقعدها المتحرك لكن أبدًا لا
تستطيع..

جفونها ثقيلة بذنبها ودومًا غارقة في دمعها..

عاد يكرر سؤاله ورجاءه وما استطاعت سوى أن تضع
وجهها بين كفيها وتنتحب في جنون..

شعرت به يهبط عن مقعده ويجلس أسفل ركبتيها
وبكفيه أزاح يدها عن وجهها قائلاً:

- سامحي نفسك يا أحلام.. نحن سامحناك..

حاولت أن تفتح عينيها وتنظر إليه.. حاولت أن تقول
شيئًا لكنها كالمذبوحة حين مدّ ذراعيه حول ذراعيها
وضفها إليه لم تقاوم..

هي بحاجة إلى البكاء على كتف أحد.. بحاجة لأن
تشعر أن على هذه الأرض ما زال هناك إنسان لا
يحتقرها أو يجزّمها..

على كتفيه سمعته يقول:

- سؤال واحد.. تجيبين عنه جبر بكل الصدق وأعدك
أني سأنسى ما ستقولين حتى الموت..

انتفضت تبكي على صدره وشعرت به يبعدها عنه
ويضع يده تحت وجهها ويطلب منها أن تفتح عينيها،
وحين فعلت قال:

- لا شيء يهمني سوى هذا..

رأته بأصابعه يشير إلى صدرها وأكمل:

- هل بينك وبين الطبيب قصة حب؟! هل تحبينه يا
أحلام؟!!

بجنون هزت رأسها في عنف ومن بين أنينها قالت
ألف لا.. تكذب؟!!

نعم لكنه كذب لا تتعمده ولا تفهمه..

ما زالت وهي تتلوى على فراشها تدعو الله أن يشفيه
لكنها تعلم أن لقاءهما هو العار والمستحيل فكيف إذن
تحبه..

ما زالت تستعيد أنفاسه حول وجهها ولهيب جسدها
العاري على صدره وكيف بعد هذا تجرؤ أن تقول نعم..
ولفن؟!!

الرجل أنقذها من السجن؟!

كانت تائهة وهي تفكر وكانت صادقة وهي تكذب..

سمعته يتنهد وهو يقول:

- ما زال قلبك خاويًا فلا شيء يملؤه سوى أن
نتزوج.. لا شيء يخرس الأحاديث ويقتل الألم في
صدرك وصدورنا سوى أن نتزوج.. أسبوع واحد
وتكونين زوجتي عندها لن يجرؤ إنسان أن يفتح شفثيه
بسؤال حتى نحن لن نأتي بذكر ما كان قبل اليوم..

هو عهد عليّ وعليك!!

هل كان بإمكانها أن ترفض؟! هل بإمكان بشر على
الأرض أن يرفض إن أخبروه أنهم سيمحون من سجل
خطاياهم ذنبًا أسود يجلده ليل نهار..

لا أمل لها في ياسين، بل كل أملها أن تنسى سقوطًا
ظنته حبًا، ودناءة ظنتها طهرًا..

لو أن عشاق الأرض يتمهلون قبل بيع قلوبهم
وأجسادهم ظنًا منهم أنهم من أجل ما يصنعونه خلّقوا
لعلموا أن هناك أيامًا تأتي ولحظات تولد ندرك فيها ونرى
يقينًا أن ما نظنه حبًا هو الوهم وما نظنه أملًا هو اليأس
وما نظنه ميلادًا هو الموت بعينه..

أطلقت أمها زغرودة وأطلقت أمه أخرى..

جريحة هي زغاريدهما ربما.. مكسورة ربما، لكن شيئًا
في صدرها تنفس، وشيئًا في وجه أمها استرد من الروح

روحا..

كبرت أحلام في عشرة أيام خمسين عامًا.. أدركت أن
الكرامة أهم من الحب وإن كان الحب أكبر..

في ذات اليوم اتفقوا جميعًا على أن يكون الزواج بعد
أسبوع..

قالت عواطف إن هناك قطعة قماش قديمة من
الدانتيل الأبيض سيعكفان على حياكتها ثوب عرس لها..
في إصرار اتفقوا على ترك الشقة للعروسين وتنتقل
أمها إلى الدور الأرضي مع صديقتها..

شيء في اتفقاتهم تشوبه المرارة.. شيء في
زغاريدهم المتقطعة حزين.. شيء في أعينهم التي تقف
بالباب كل حين وآخر تنتظر طرقة يطل بعدها أحد
الجيران ويسأل: «لم الزغاريد؟»

كانوا جميعًا يهتمون بنشر الخبر أكثر مما يهمهم الخبر
ذاته.. حتى هي بدأ رأسها يشرد قليلًا.. في روحها دبّت
أنفاس شجاعة..

ستخرج.. ستفتح عينيها وترفع رأسها وتخرج..

زوجة لا متهمة..

امرأة لا فتاة تلوك الألسنة اسمها وتتشكك في
طهارتها..

نعم.. تريد أن يتزوجها جبر الليلة وليس بعد أسبوع
كانها ستتنزوجه ليلة واحدة تواجه فيها الأعين وتعود

كما كانت.. لكن هناك ليالي إن عشناها لا نعود أبدًا بعدها
كما كنا..

نهضت وساقها ترتعشان تحمل حقيبتها الصغيرة
التي ما لمستها يدها منذ الليلة السوداء، وسارت إلى
خارج الغرفة ليأخذها جبر ويشترى غرفة النوم..

حينما رأتها أمها مدت يدها نحوها ببعض النقود وهي
تطلب منها أن تحتفظ بها ولا تخرج دون نقود..

في ثقة وبابتسامة كسيرة قالت:

- جبر معي..

رائع أن يكون معك رجل لكنها تمنى لو كان رجلًا
تحبه ولا تحب فقط نصرته لها..

بقيت يد أمها ممدودة نحوها والتقطت تلك الأوراق
القليلة وحين فتحت حقيبة يدها تبحث عن حافظة
نقودها ارتطمت عيناها بذاك القلم الأسود الرخيص الذي
كان ياسين يكتب به وصفات الدواء لمرضاه..

لم يأخذه حين فتشوا حقيبتها وثيابها في مركز
الشرطة.. لم يقفوا أمامه لحظة لأنه رخيص لا ثمن له
مثلها..

بأصابعها ضمت القلم ودمعة تغادر عينيها..

هذا القلم الرخيص عندها ثروة تستبقها العمر.. تمامًا
كما أنها هي في أعينهم رخيصة مشبوهة عند جبر ثروة
من أجلها يبيع العمر..

ما تراه رخيصةً قد يكون عند سواك كنز العمر!!

لماذا هي غائمة كل الصور في رأسه؟!

منذ عاد إلى وعيه منذ أسبوع والصور كثيرة ومتلاحقة لكنها مبتورة.. حين دخلت أمه عليه في غرفة المستشفى عرفها.. لم ينكرها لحظة لكنه أيضًا ما كان يعرفها قبل وجودها، بل هو يذكر جيدًا أن ذاك الطبيب الكبير الذي اسمه سامي حين دخل عليه يخبره أنه أفاق من غيبوبة استمرت عشرة أيام أيضًا عرف وحده اسمه لكنه لم يتذكر وجه أمه حين أخبره عنها إلا لحظة رؤيتها..

حين دخلت ناهد عرفها.. تذكر أشياء كثيرة لكن ما زال في كل شيء شيء مبتور..

بالأمس وفي الطريق إلى البيت بعد مغادرة المستشفى كاد يقسم إنه يعرف كل شجرة وكل حجر تعبره السيارة..

شيان يعرفهما جيدًا.. والده وما حدث..

يدرك جيدًا أنه تعرض لحادث بل ويذكر جميع تفاصيله.. يذكر وجه أبيه الطبيب وكفه الحانية يحاول الوصول بها إلى ولده والسيارة تنقلب بعد ارتطامها الفظيع بحافلة النقل تلك..

هو أيضًا كان يحاول الوصول إلى كف والده ثم لا شيء أكثر سوى صور متلاحقة تتوالى في رأسه..

هناك صور لا تفارقه..

صور لشابة جميلة يضمها على صدره ويشرب من شفيتها المرتعشتين بين شفتيه.. صور لجسدها الأسمر العاري بين ذراعيه في عيادته ..

ياسين يعلم أنه طبيب وله عيادة، بل يذكر قصص مريضاته جميعهن وبعضاً من أسمائهن.. يذكرهن جميعاً بالوجوه والأسماء لكن ما زال لا يذكر صلة كل هذا بهذه الشابة التي يضمها إلى صدره وهي عارية..

يحبها.. نعم كثيرًا رغم أن اسمها ما زال عنه غائبًا يخجل من استدعاء صورها معه وهو في حزنه على رحيل والده غارق، لكن يجب أن يجد الجزء المبتور من قصتها معه..

يتمنى لو يسأل أمه عنها لكن ما عساه أيضًا يقول..

هذا الصباح سألها في خجل إن كان متزوجًا، أخبرته أنه كان في طريقه للزواج من ابنة سفير..

ما زال يتحرك بصعوبة رغم أن لا عضو واحدًا فيه مكسورًا.. أخبره د. سامي أنه يمر بمرحلة (Organs Recovery).. كل شيء فيه يتعافى ويستعيد قوته، لكن الأمر ليس سهلًا، حتى رأسه بحاجة إلى وقت ليعمل كما كان قبل الحادث..

أغلق حقيبة السفر التي أعدتها له أمه.. في المساء يسافران معًا إلى ألمانيا.. أصرت على الذهاب به إلى

أطباء المخ والأعصاب هناك وأخبرته أنه من الأفضل
لكليهما في هذه المرحلة أن يبتعدا عن الزيارات
والأسئلة.. هي في حداد وهو من بئر الغياب يعود..

أين عيادته؟!

يذكر تفاصيلها وأثارها وحتى باب بنائها لكن لا يعلم
في أي شارع.. حين سأل أمه أخبرته أنها على كورنيش
المعادي..

الفتاة معه في العيادة.. يموت كل لحظة وهو يحاول
أن ينطق باسمها ولا يجد الحروف..

لو أن أحداً فقط يخبره بالاسم لربما استعاد مع اسمها
باقي تفاصيل الحكاية..

أخبر أمه أنه يريد الذهاب إلى العيادة لكنها طلبت
منه أن ينتظر حتى عودتهما والاطمئنان عليه.. ما زال
جسده يهتز أحياناً عند السير.. هو فقط يريد أن يذهب
عنه يتذكر اسمها..

أفاق ياسين من أفكاره على طرقات صغيرة على باب
غرفته دخلت بعدها صفية إليه تحمل بعض قمصانه
المطوية على كفيها قائلة:

- أخبرتني ناهد هانم أن أضعها في حقيبة السفر..

حتى صفية يذكرها جيداً.. هي من ترعاه منذ
طفولته، بل هي أقرب إليه وأبيه من أمه.. قال كأنه
يتحدث من بئر غيابه:

- كان بابا يحبك كثيرًا..

اعتدلت المرأة واستدارت نحوه وفي عينيها أطياف
دمعة:

- ما استمرت عشرتي معكم هنا إلا من أجله وأجلك..

ابتسم ابتسامة صغيرة كأنه تذكر شيئًا جديدًا قائلًا:

- لا تحبين ماما!!

ربتت رأسه في حنان تقول:

- أستغفر الله.. هي أمك وزوجته رحمه الله وأسكنه

الجنة.. هي من لا تحبنا!!

لن يسافر وصور فتاته تطارده بهذا الجنون، يريد

فقط أن يخبره أحد باسمها، واستدار يقول:

- هناك وجه أتذكره كثيرًا ولا أعرف اسمه.. وجه شابة

سمراء جميلة.. دوفاً معي في العيادة.. هل أخبرتك

بشيء كهذا؟!

جلست صفية على المقعد المقابل لفرشه ووضعت

كفها على فخذ الحائر وهي تقول:

- كانت هناك ممرضة تعمل معك..

قاطعها ياسين في جنون قائلًا:

- نعم هي الممرضة.. ما اسمها؟!

أخبرته أنه ما كان يتحدث عنها، لكن ربما كان السائق

يعلم أو عمر.. فكثيرًا ما كان يذهب إلى العيادة

لتنظيفها..

حين أمسك بهاتفه بين يديه وطلب عمر سكت لحظة
بعد السؤال الذي وجهه له، لكنه أفاق على صرخته وهو
يصيح قائلاً «ما اسمها؟»..

في هدوء أجابه:

- اسمها أحلام!

تحبه؟!

منذ طفولتها تفعل.. كل البنات تحتمي بصدور آبائهن
وأحلام كانت في صدر جبر من بطش أبيها تحتمي..

معه خرجت من بيتها وكفه في كفها بعد تلك الليلة
المشنومة.. ذهب بها إلى «المناصرة»، اشترى غرفة نوم
تركها وحدها تنتقيها، ثم أخذها إلى «الصاغة» واشترى
لها خاتفا وسوازا من الذهب..

لم تكن سعيدة بل كانت منبهرة بالهواء الذي تتنفسه
بعد سجنها في فراشها.. كانت تخطو إلى جواره
وتحاول أن ترفع وجهها الذي نكسته طويلاً وتعلم أن ما
فعله جبر وحده يجعلها تفعل..

عند عودتهم إلى منطقة مصر القديمة سار بها إلى
الكورنيش في اتجاه بناية العيادة ووقف أمام ذات عربة
«الكبدة»..

شعر بها وهي تنتفض حين صاح بائع الكبدة يقول
«حمداً لله على سلامتكم يا أحلام»..

لم تعرف ما تقول إلا أن جبر كعادته يتدخل للقيام
بكل شيء يفسد بين أصابعها.. تقدم يأخذ منه
السندوتشات وهو يقول:

- سلمك الله.. أيضًا يجب أن تقول مبروك.. أنا وأحلام
سنتزوج خلال أيام..

معه نظرت إلى النيل.. نظرت إلى السيارات وقطع
الكبدة، بل نظرت إلى وجه البائع وعينييه لكنها أبدا لم
تستطع أن تنظر في اتجاه بناية العيادة.. خافت إن
فعلت أن يراها الحارس أو تراه.. خشيت أن يكون
ياسين قد عاد أو ترى مريضاته يصعدن ويهبطن..

تعرفهن جميعًا.. تعرف من تتردد لمتابعة الحمل أو
تحديد مواعيد الولادة..

أحلام تعرف أشياء كثيرة لكن ما تعرفه وتؤمن به
اليوم هو شيء واحد..

كان من المستحيل أن تخرج من بيتها أو تخطو
خطوة واحدة إلا إن تزوجها جبر..

أفاقت من استعادة ما حدث وهي تنظر إلى غرفة
النوم التي تم وضعها في بيت أمها بعد نقل غرفتهما إلى
شقة الدور الأرضي.

بل اليوم ترتدي ثوب العرس الذي حاكته لها أمها في
ثلاثة أيام.. الزغاريد تنطلق في صالة البيت بانتظار
المأذون..

- من يصدق خلال أسبوعين تقريبا يموت رجل
ويصبح آخر محرما عليها بعد أن ظنت أنها ما خلقت إلا
له..

من يصدق أنها سجنّت وماتت وما أحيّاها سوى رجل
يصبح زوجها وكانت تؤمن أنها تموت وهو الغريب..
ما زالت تدعو له بالشفاء من أعماق روحها..
لكن أصبحت تدرك أن ما بينهما مسافة كتلك التي
تفصل مشارق الأرض عن مغاربها..
جبر هو رجلها..

سيأتي المأذون بعد دقائق لتوقع بيدها وثيقة عرفانها
بما فعله لها وتبقى العمر تسدد هذا الدين الكبير الذي
طوق به عنقها وعنق أمها الكسيحة..
أخطأت كثيرًا حين ظننت أن ياسين يجعل أمها تطير
من الفرحة..

الفرح لا يدخل بيوتًا كبيتهم..

بعد طرقات صغيرة صاخبة دخلت عواطف وتوحيدة
إليها من خلف زغاريدهما..

ضمتها عواطف إلى صدرها وهي تخبرها بوصول
المأذون، ونهضت عن مقعدها لتنظر إلى مراتها..

صفت إحدى الجارات لها شعرها ووضعت لها
مكياجها وبعد انتهاء عقد القران يأخذها جبر إلى أحد
الاستديوهات المجاورة، وأيضًا وعدها بعشاء فاخر في
مطعم أحد الفنادق التي تقدم وصلات غنائية..

دون اكترات وفي طريقها إلى باب غرفتها كان هاتفها
الصغير يدق دون أن يسمعه أحد..

غائب حين أخبروه اسمها استعداد ملامح قصتها معه
كاملة وإن كان يجهل منها أسمى فصولها..

لو أنها فقط بقيت في غرفتها لحظات أخرى لرات
على شاشة هاتفها اسماً كرر طلبها أكثر من عشر مرات..
كانت تجلس أمام المأذون وأمامها جبر وهاتفها وحده
في غرفة نومها يضيء باسم رجل رغم أنه ما نسيها إلا
أنه للتو فقط تذكرها..

ياسين الببلاوي..

أصر على صعود سلالم الطائرة على قدميه رغم علمه كطبيب وكمريض أن هناك شيئًا في جهازه العصبي ما زال يتعافى.. لكن أحيانًا تكون كبرياؤنا أكبر من نداء عقلنا.

رمى بجسده المرتعش على مقعده في الدرجة الأولى حيث جلست أمه إلى جواره تعلق وجهها ابتسامة صغيرة.

رأته يمنح عمر مظروفًا أبيض مغلقًا قال له في بساطة إنه حاول محادثة أحلام كثيرًا لكنها لم تجب وطلب منه أن يذهب في الصباح التالي إلى بيتها ويسلمها المظروف..

عمر يعرف عمله جيدًا.. ما إن استدار وحيدها حتى أخذت منه المظروف لتضعه في حقيبة يدها واستدارت تنظر إليه تسأل نفسها هل تفتح معه الحديث أم لا.. لكنها هزت رأسها في عدم اكترات وكأنها تقول.. لا يهم!!

هو أيضًا يتمنى لو يحادثها عن أحلام لكن يريد التحدث عنها حبيبة لا ممرضة..

ما زالت أمه لا تعلم شيئًا عن قصتها معه.. لكن كيف عرف والده رحمه الله القصة يوم الحادث..

هناك أمور لن يعرفها أبداً لكن ما يثق فيه أن والده ما كان ليخبر زوجته أبداً بشيء كهذا قبل مناقشته فيه.. سيحدثها عندما يصل إلى «ميونيخ».. كتب لها في رسالته أنه سيفعل..

أدار وجهه يراقب أرض المطار بعد أن ارتفعت الطائرة في سكون ودمعة صغيرة تنزلق خارج عينيه..

حزين هو على فراق والده.. أمه بعيدة عنه، بل يشعر أن أحلام وهو في السماء الآن أقرب إليه منها وهي الجالسة جواره..

عند عودته سيتزوجها رغم رفض أمها وصلافتها في لقائه.. الموت الذي ابتلع والده في لحظة وكاد يطويه معه علمه أن الحياة لا يجب أبداً أن تضيع في المخاوف والتحسبات..

الندم على ما لم نفعله أكبر من ندمنا على ما فعلناه وعلمنا بعد وقت أنه كان خطأ..

خمس ساعات فيم يقضيها ولماذا تضيع منه الساعات الخمس إن كان حقاً يعلم أنه ثابت على مبدئه..

استدار في هدوء ووضع يده على كف أمه التي فتحت عينيها وسمعتة يقول:

- عند عودتنا سأعود إلى لندن بعد أن أتزوج أحلام ممرضة العيادة..

لم تكن دهشتها كبيرة ولم تكن عيناها مفتوحتين دهشة كما كان يتوقع..

ربما لأنها تخشى عليه الانفعالات لكن كلاهما يعرف
أنه بخير..

هل حقًا تعلمت ناهد من الموت شيئًا ظننها لا تتعلمه
أبداً..

عاد يقول كأنه يريد أن يتأكد أنها سمعت:

- أحبها رغم فقرها.. والدي رحمه الله كان يعلم..

في هدوء سحبت يدها من تحت يده واستدارت نحو
المضيقة التي انحنى تحمل أكواب العصير ومنحت
ولدها أحدها وأخذت رشفة من كوبها، وبعد لحظة قالت
وهي تنظر إلى عينيها العميقتين الهادئتين:

- وهل يتزوج وحيد عاصم البيلوي لصة؟!

وضع على رأسها قبلة صغيرة هادئة بعد أن ارتدى
ملابسه وحين حاول الاعتدال ليخرج أمسكت بكفه
وفتحت عينيها ليبتسم قائلاً:

- أسبوعان من العسل والكسل يكفيان.. سأحدثك من

العمل..

اعتدلت أحلام تخبره أنها ستعد له طعام الإفطار لكنه
أخبرها وهو في طريقه إلى خارج الغرفة أنه سيمر
ليشرب كوبًا من الشاي مع الوالدين ويتناول بعضًا من
قطع كعك العرس..

حين أغلق باب الغرفة خلفه اعتدلت العروس في
فراشها ونظرت حولها في سكون ثم انخرطت في بكاء
حاد بعد أن سمعته يغلق باب البيت..

انتظرت يوم عودته إلى العمل لتبكي بصوت عالٍ
دون أن تخاف وصول بكائها إلى أذنيه..

لماذا تبكي؟! جبر يعاملها كما يعامل تلك الطفلة التي
كانت تجلس على ركبتيه وتطرق بابهم في تلك الأيام
البعيدة..

لماذا تبكي وقد سترها الله وتأكدت من عذريتها بين
ذراعيه ورأت وجه أمها ينير حين أكدت لها أنها حقًا
عذراء..

تبكي خوفها وضعفها.. تبكي شعورًا كبيرًا لا تعرفه
بالذنب والخجل.. وتبكي أيضًا دهشتها لكل ما حدث..

حتى هو نفسه رأت في عينيه الخوف ليلة زواجهما
كأنه يخشى الاقتراب منها فيكتشف أنها حقًا باعت
جسدها للطبيب..

ارتفع بكاؤها أكثر وهي تتذكر ياسين ومدت كفها
تحت وسادتها وأخرجت هاتفها الصغير وفتحته على
قائمة المكالمات..

عشر مكالمات من هاتفه وصلتها ليلة زفافها.. هل
تماثل للشفاء وحادثها؟! أم أن أمه هي من فعلت.. ولم
تحادثها.. هو ياسين..

ربما أراد أن يلعبها أو يستفسر منها عن قصة السرقة،
لكن ماذا لو كان أحدهم يحادثها من هاتفه ليخبروها أنه
مات..

هزت رأسها في ألم تردد على نفسها: من منهم يرى لها
فيه حقًا لتعلم بشفائه أو موته؟

لن تمحو هذه المكالمات أبدًا من على قائمة
الاتصالات.. وحدها هي وذاك القلم الأسود الرخيص ما
بقي منه لها..

أصبحت زوجة لرجل جبر عنقها المكسور ولن تكسر
هي عنقه أبدًا حتى بالحنين أو الذكرى..

هي صفحة وطويت.. قصة وانتهت.. حماقة ارتكبتها
وسيبقى منها ندبة سوداء صغيرة على وجه كل

النظرات وعلى وجه روحها لكن سيعتادون التعامل مع
أحلام بهذه الندبة السوداء..

فلتنهض وتطهو الطعام لرجلها..

عادت وارتمت على فراشها.. لماذا كلما ذكروا الطعام
شعرت بالغثيان والدوار..

انتفض قلبها كطائر ذبيح..

نعم.. هناك شيء غير طبيعي تشعر به حتى من قبل
زواجها.. لم الهرب؟!

هناك شيء كبير يجب أن تواجهه..

هو الشهر الثاني الذي لم تنطلق فيه شارة أنوثتها..

اهتز جسدها من الخوف وأرغمت نفسها على النهوض
عن فراشها..

ليست حمقاء.. ليس هناك شيء.. هي زوجة منذ
أسبوعين وكانت عذراء ليلة زواجها..

فيم تفكر؟ كفاها حماقة وجنونًا..

هذا الدوار من أيام سوداء عاشتها ومن ليلة أكثر
سوادًا قضتها في مركز الشرطة..

هذا الغثيان من أيام كثيرة امتنعت فيها عن الطعام
وكوابيس كثيرة بالسجن والعار طاردتها..

أي جنون تفكر فيه.. أي نار تريد أن تشعلها في أيامها
بهذا خاطر الذي راودها كثيرًا..

شعرت أن الطرقات على الباب جاءت تنقذها وحين
فتحت وجدت عواطف أمامها تبتسم في حنان..
أحلام ترى آثار الندبة السوداء حتى على وجه والدة
زوجها..

ندبة لن تزول ولن ينساها أحدهم مهما ادعت لنفسها
ولهم أنها لم تحفرها بيديها في أرواحهم وقلوبهم..
ضمتهما القادمة في حنان تقول:

- أمك في انتظارك.. سنتناول الإفطار معا ونعد طعام
العشاء جميعا في الأسفل.. هيا يا حبيبتي.. اتركي البيت
نظيفا.. ما زال هناك من سيأتي ليبارك لك اليوم..

لم تعد تحتمل .. لم تعد تطيق الصبر أكثر من هذا..
منذ أخبر جبر أمه وأمها أنها حامل ونار حامية تستعر
في ضلوعها..

من الطبيعي أن تنطلق الزغاريد في بيتهم وترتسم
الفرحة على وجوههم.. ومن الطبيعي أن يضمها زوجها
إلى صدره يخبرها أنه لا يصدق أن حبيبته الصغيرة
التي كان يضعها على ركبتيه وهو طفل ستمنحه الآن
طفلاً منه ومنها..

كل هذا طبيعي.. ما هو مجنون وأحمق أن تتجاهل
الحقيقة التي تعلمها وحدها..

كم عمر هذا الحمل؟ شهر كما يظنون أم شهران كما
يوسوس لها الشيطان..

ليس شيطاناً.. من قبل زواجها بجبر بل ومن قبل
حادث ياسين ودخولها مركز الشرطة هناك شيء يخبرها
أنها تحمل في أحشائها من طبيبها بذرة..

أكثر من حالة جاءت إلى العيادة ترجوه القيام بعملية
إجهاض وحين سألته مرة وهي بين ذراعيه لم لا
ينقذهن من العار وينقذ طفلاً من الضياع كان ياسين
يخبرها أنه لن يقتل روحاً وإن فعل فعملية الإجهاض لن
تكون بالسهولة التي تظنها..

تذكر جيدًا أنه أخبرها أن الإجهاض في حالة العذراء يكون أشبه بعملية قيصرية يُفصح أمرها عندما تتزوج الفتاة من رجل آخر وتحمل منه طفلًا.. طبييها سيعرف حتى إن أخبروا زوجها كما تفعل الكثيرات أنها أجرت عملية لاستئصال كيس على مبيض.. هو لا يخوض هذه المهاترات..

أي امرأة تسلم نفسها إلى رجل عليها أن تتحمل كل ما قد يأتيها أو يحدث لها..

كانت تظنها قصصًا غريبة لنساء حمقاوات سقطن في براثن شياطين لا رجال..

كانت تظن نفسها مع الطبيب في أمان.. هو يعرف كيف يأخذها ويبقيها عذراء وأيضا يبقي أحشاءها خاوية..

ما ترك فيها جزءًا خاويًا.. أتى ياسين قبل غيابه على كل أعضائها..

قلبها ميت.. رحمها ينبض بشيء منه وهي زوجة لآخر.. حتى عقلها يكاد ينفجر من الذعر والخوف..

ربما كانت أوهامًا ولكن إلى متى تستيقظ كل صباح وتنتظر خروجه لتردد على نفسها ذات أبيات الوهم هذه..

اليوم تفعلها.. اليوم تذهب إلى المستوصف البعيد في «دار السلام» وتطلب إجراء أشعة تلفزيونية على

حملها.. كان طبيبها يخبرها أن أشعة السونار تمنحك
عمر الجنين باليوم واللحظة..

إن كان عمر جنينها شهرًا يكون ولد جبر وتنتهي
مأساتها لتعود عندها وتلحق حذاءه وتتمرغ في نعليه..

لكن ماذا لو أخبرها الطبيب أن عمر جنينها أكثر من
شهر أو جاوز عمره الشهرين..

أطلقت صرخة صغيرة من شفيتها ولطمت وجهها في
جنون وهي تتذكر كلماته.. على كل امرأة أسلمت نفسها
لرجل أن تتحمل كل ما يأتيها..

تتحمل هي كل شيء وأي شيء.. تتحمل السجن أو
الرجم لكن

لا تريد لجبر أن يحتمل المزيد.. لا تريد أبدًا لأمها أن
تنكسر أكثر.. أمها معرضة للموت في كل لحظة وهذا
يكفيها.. لا تريد لأمه أن تلعنها وتلعن ذاك اليوم الذي
فتحت فيه بابها وقلبها لها وأمها بعد أن هرب الأب من
مسئوليتها..

نهضت عن مقعد بيتها وهي تصيح: «يارب»..

لماذا نصيح باسم الله عندما نسقط ولا نذكره قبلها؟!

ألم تكن تريد شيئًا من رائحة ياسين الببلاوي.. أما
كادت بغبائها وحمافتها أن تدخل السجن حين سرقت
ذاك المقعد الصغير الذي ارتمت عليه كثيرًا تحت قدمي
طبيبها..

كانت تردد لنفسها أنها أرادت شيئًا منه.. حقق الله لها
ما تريد فلماذا تبكي الآن وتستغيث..
لا بد أنها تتوهم..

في جنون دخلت غرفة نومها وأخرجت من خزانة
ملابس زوجها مظلوف النقود التي جاءتهما هدايا بعد
زواجهما..

وضعت في حقيبتها خمس ورقات من فئة المائة
جنيه وتوجهت نحو الباب..

ستمر على المخدوعين لتخبرهم أنها ذاهبة للصلاة
في مسجد السيدة زينب..

أحكمت حجابها حول وجهها الشاحب المرتعش وهي
تتمتم من جديد «يارب»..

تريد أن تعود لتقبل يد أمها وأمه وتقول لهما مبروك
أحمل لكما طفلًا من رجلنا..

أحمل لكما شيئًا في الحلال ولم يبق هناك شيء من
رائحة الحرام وأيامه!!

هناك أسئلة نعرف إجاباتها كما نعرف أسماءنا وأقدارنا
ورغم هذا لا نكف عن ترديدها علّ أحدًا يمنحنا إجابة
أخرى لها..

نعم.. كانت تعلم.. كل شيء في رأسها كان يخبرها
أنها كانت حاملاً يوم أخذها زوجها رغم كونها عذراء..

طبيب مركز دار السلام أخبرها في هدوء أن كل
شيء رائع وجنينا عمره تسعة أسابيع..

كادت تسقط عن سرير الكشف وهي تنهض خلفه إلى
مكتبه الصغير..

الطبيب أذكى منها.. إجابة السؤال كانت واضحة في
عينها..

مد يده إليها بصور الأشعة التلفزيونية وورقة صغيرة
أخبرها أنه كتب لها بعض الفيتامينات لأن ضغط دمها
منخفض وتبدو ضعيفة وشاحبة..

حين مدت كفها تلتقط منه الأوراق قال في حسم:

- إن فكرت في الإجهاض يجب أن يكون ذلك في
مستشفى مجهز ومع طبيب ماهر.. أنت ضعيفة لا
تعرضي حياتك للخطر.. سيعاقبك الله عندها عقاباً
شديداً.. خسرت الدنيا فلا تخسري الآخرة..

سقطت الأوراق من أصابعها وتبعثها دموعها وانتحبت
في جنون لتسمعه يكمل في ألم:

- لا أجري هذه العمليات لكن أردت إبراء ذمتي..

تحاملت على نفسها في ألم ونهضت عن مقعدها وهي
تتمتم:

- أنا زوجة.. والله زوجة..

نهض الطبيب عن مقعده والتقط الأوراق وتوجه
يفتح باب الغرفة كأنه يأمرها بالمغادرة..

وضع الأوراق في يدها وهو يشيح بعينيه بعيدًا وقال
كأنه يلطمها:

- الزواج العرفي سفاح مُقنَع وإلا ما جئت هنا وحدك
ترتجفين!!

كيف تعود وماذا تخبرهم؟! كيف تستقبل عودة جبر
من عمله.. كيف تغفو ليلاً بين ذراعيه وتتركه يتحسس
بطنها بكفه كأنه يربت رأس الجنين..

ترك ياسين في أحشائها طفلاً وغاب..

حادثها في ليلة عدة مرات وعندما لم تجب انتهت
القصة وغاب.. لكنها في عينيه لصة..

عادت تلطم وجهها حيث وقفت على حافة الرصيف
تنتظر سيارة تركبها رغم أنها لا تعلم وجهتها..

ألف سؤال في رأسها.. ستلد بعد سبعة أشهر أو أكثر
قليلاً..

كثيرات من يلدن بعد سبعة أشهر لكن ماذا لو أراد
جنينها الخروج حقاً بعد أشهر سبعة.. ماذا تقول؟!

طفل مكتمل النمو يولد بعد خمسة أشهر!!

ماذا لو كان جبر لا ينجب وعرف بعد عام أو اثنين أنه
عقيم كما ترى في الأفلام وتقرأ في القصص..

ماذا عن «الله»؟!

ما تراه يفعل فيها..

أشارت أحلام بيدها دون وعي إلى سيارة أجرة مرت
أمامها وصاحت تستوقفها صارخة:

- دار الإفتاء!

لا جديد..

نجا من الموت بأعجوبة يعجز الطب عن فهمها.. هناك
بؤرة صغيرة في المخ أصابها شيء من التلف.. سيظل
ينسى أشياء ويذكر أشياء.. ستبقى نوبات من الرعدة
تصيب جسده لحظات وتغيب أو كما قال له جراح المخ
الألماني: «قد تفاجئنا أيها الشاب بالشفاء التام كما
فاجأتنا بعودتك من الغيبوبة»!!

ما الحياة نفسها إلا مجموعة من الاحتمالات.. لا
جديد!!

الجديد الوحيد هو ذاك المحضر المختوم الذي
أخرجته أمه من حقيبتها المثبت فيه أن أحلام كانت
تسرق عيادته..

يومها ابتسم كالأبله وهو يقرأ السطور ويعيد قراءتها
عشرات المرات كأنه ما درس حرفاً واحداً من حروف
اللغة العربية.. كان يجد عينيه تقفان على السطر الأخير
فيرفعهما إلى السطر الأول من جديد ويحاول أن يقرأ
ويفهم أو حتى يجد ما يقوله لأمه التي أخبرته أن
المظروف لم ولن يسلم إلى اللصة التي علمت أنه شبه
ميت فخانت الأمانة..

حين يئست محاولات استيعابه لورقة المحضر
المختومة بالختم الرسمي من خلف دمعة رقصت في
عينيه قال لأمه على مقعده في الطائرة:

- ما الجديد.. لا جديد.. لا جديد أبدًا..

لم يجرب أن يحادثها مرة أخرى من «ميونيخ»، إن أرادت محادثته لأجابت اتصالاته يوم فعل..

لكن منذ عودته إلى القاهرة.. منذ استئنافه العمل في عيادته بالأمس وهو لا يفكر إلا فيها..

أحضرت له أمه ممرضًا شابًا في العيادة.. ومنذ دخلها ياسين بعد الغياب ووجه أحلام يطارده..

على المقاعد وفي الزوايا وعلى مقعد الـ (Lazy Boy) الذي اعتاد أن يضمها عليه..

لا يصدق أبدًا أنها سرقتة أو حاولت السرقة.. أمسكوها متلبسة.. أخذت أشياء كثيرة من العيادة وكانت في طريقها لتحميلها على سيارة كما قالت أمه..

لا يصدق.. كانت ترفض أن تأخذ منه هدية خشية أن تراها أمها فأين كانت تذهب بمنقولات العيادة..

ترفض أن تأخذ نقودًا فهل تأخذ مقاعد وفازات؟!

لا يصدق أنها سرقت، هو فقط لا يفهم كيف اختفت..

كيف لم تسأل عنه وكيف لا ترد على مكالماته..

لا يجد تصورًا يقبله رأسه لتلك اللحظة التي يحادثها

فيها أو يراها بعد أن علم بأمر المحضر..

ماذا يقول؟! هل يسألها لماذا سرقت؟! أم يقول لها

أعلم أنك

لا تفعلين؟ وأين يذهب برأس هذه الإبرة الصغيرة
المغروسة في قلبه وعقله..

محضر شرطة رسمي يفيد أنها ضُبطت متلبسة..

حتى لا يجروا على سؤال حارس العقار أو عمر عن
الحادث.. وكيف يسمح لأحدهما أن يقول عنها لصة..

حائر ممزق ما زالت كلمات أمها تضرب رأسه.. يحاول
أن يذكر كيف انتهى اللقاء بينه وبينها لكن هناك جزء
مبتور لا يستطيع أن يتذكره..

فقط يتذكر أنها رفضت ارتباطه بأحلام وأخبرته أنها
لن تعود إلى العمل.. هم لا يتزوجون من يعملون لديه
ويمنحهم الأجر، وأيضًا
لا يعودون إلى من رفضوه..

هل أقنعها بعد ذلك؟ هل طلبت منه فرصة للتفكير؟!

من تلك المرأة التي دخلت عليهما وهما يتحاوران
وكيف انصرف ليلتها وعاد إلى العيادة؟!

ما زالت الأشياء تغيب عن ذاكرته لكن أحلام وجهها لا
يغيب.. ثقته فيها تحارب في شراسة..

فليحادثها إذن.. فليطلب لقاءها وليستوضحها الأمر..
ماذا لو كانت حقًا حاولت سرقة.. هل يشك؟!

يكاد يجن.. يستمهل نفسه الأيام علّه يعود إلى حالته
الطبيعية الكاملة ليكون قراره أقل تشويشًا..

حين فتح عادل ممرض عيادته باب مكتبه وأخبره
بوجود حالة جاءت للكشف نظر إليه وتنهى في ألم
يخبره أن يدخلها..

كان لدخول أحلام عليه رائحة أخرى ونسائم
يحتاجها كثيرًا.. يحتاجها وهو يصارع حزنه لرحيل
والده.. يحتاجها وهو يحاول أن يعود كما كان قبل
الحادث.. لا رعدة ولا نسيان.. لو أن هذا الباب يفتح
وتطل عليه أحلام بوجهها الأسمر الحاني لعلم أن شفاءه
أكيد ورعشته إلى الزوال!

لا تحزن.. هو الحمل.. هناك نساء كثيرات يُصبن
بالاكتئاب الشديد طوال فترة الحمل يا ولدي.. أنت
قارئ مثقف وتعرف أكثر مني.. كل شيء سيتغير وتعود
أحلامك إلى ما كانت عليه بعد الولادة.. صدقتي!!

رفع جبر عينيه الدامعتين ينظر إلى الرئيس بهجت في
حب واعتذار.. لا يصدق أنه بكى وأخبره عن معاناته مع
عروسه..

نكس رأسه من جديد وهو يقول:

- قبل الحمل بل قبل زواجنا نفسه.. منذ تلك الليلة
المشنومة التي ساقوها فيها إلى الحجز ماتت أحلام..

الظلم قاتل لا يرحم!!

قبل أن يجيبه بأي كلمة رنَّ هاتفه وانشغل بالرد عليه
وغياب جبر في أفكاره..

نعم الظلم قتلها.. يشعر أنها غائبة عن وعيها.. ما
عادت تفعل شيئًا سوى البكاء على صدره كل ليلة..

دومًا تبكي وتنتحب ثم تعتذر له وحين يضمها إلى
صدره ويقرأ لها القرآن تنام كمن فقد وعيه..

عرض عليها الذهاب إلى الطبيب فصرخت في ذعر
تقول إنها

لا تريد أن تسمع كلمة طبيب أو شرطي..

مسكينة حبيته ومسكين هو أكثر في عجزه عن
مساعدتها والأخذ بيدها..

لم تعد تفعل شيئًا سوى الخروج إلى المساجد مرة أو
مرتين كل أسبوع ودومًا تعود أكثر شحوبًا وضعفًا..

أفاقه صوت بهجت من غيابه يقول:

- جبر.. يجب أن نرسل طلبية الأسمت إلى مجمع
العامرية الآن يا ولدي..

نهض الشاب عن مقعده في تناقل يعتذر، لكن بهجت
نهض عن مكتبه وتقدم نحوه وربت كتفه قائلاً:

- هناك شيء واحد كبير سيمحو الظلم والألم الذي
تشعر به زوجتك.. شيء لا امرأة تقاومه يا ولدي ولا
رجل.. شيء كتبه الله لها لأنه وحده الدواء.. هل تعلم ما
هو؟!

في حيرة نظر إليه كأنه يستجديه الأمل، فقال الرجل
بحكمة الأعوام وشيب التجارب:

- الأمومة.. ستنسيها رائحة الطفل القادم كل رياح
الألم.. الأمومة يا ولدي ستحييها.. اصبر وسترى!!

قررت ألا تصمت..

توحيدة لا تنام بعد صلاة كل فجر إلا وهي من
دموعها تتوضأ.. جبر انطفأت الفرحة في عينيه.. حتى
نكاته التي يحاول إطلاقها بينهم تموت عندما ترتطم
بضحكاتهم الهزيلة.. هي أيضًا حزينة لا تشعر أن ولدها
تزوج وأنها ستحمل حفيدها بين يديها في غضون
شهور..

لِمَ كل هذا الحزن؟! لحادث السرقة ذلك..

مضى وانتهى.. ترى موته في عيون جاراتها وزوارها
لكنه ينتصب في عيون هذه الصغيرة التي تحتضر
أمامهم كل يوم..

عواطف ستفيقها.. قررت أن تفعل ليس من أجل
وحيدها
ولا صديقتها أو حلمها القادم الذي عاشت عمرها تنتظر
ولادته.. يشهد رب السماء أنها ستفعل من أجل أحلام
نفسها..

من أجل صباها وشبابها.. من أجل ما تحمله لها من
حب لا يقل شعرة عن حبها لولدها..

هي أقوى من أمها وأقوى من جبر.. كلاهما يشفق
على أحلام ويخشى إن تفوه بكلمة يزيد بكاؤها وذبولها
أكثر..

عروس في العشرين تتحرك كهومياء في السبعين..
خرج ولدها إلى عمله منذ ساعة وستصعد هي إليها
ولن تخرج من بيتها قبل أن تفيقها..
تعرف السر الحقيقي لكل ما هي فيه ولن تهرب أو
تضعف.. من أجل الله ستواجهها به وتنقذها..
وضعت غطاء رأسها واستدارت تنظر إلى توحيدة في
ألم تراها منكسة رأسها على قطعة القماش تحيك غرزا
صغيرة فيها بإبرتها وقالت في هدوء:
- سأصعد إليها.. لن أتركها أبدا تبكي بعد اليوم..
في خوف ولوعة نظرت إليها الأم ثم قالت:
- أما قال جبر إنه الحمل..
اقتربت منها عواطف ووضعت كفيها على يديها
المرتعشتين قائلة:
- كأننا ما أنجبنا.. اسمعي لن أتركها قبل أن تعترف..
كان الإبرة التي في يدها ثقبت قلبها فصاحت في ألم
تقول:
- بماذا تريدني أن تعترف؟!
في ألم أكبر مضت عواطف تقول:
- بما أعرفه وتعرفينه..

هي المرة الأخيرة التي تصعد فيها درجات السلم
بساقها المصابة وتعود تكتنم حسرتها ودمعتها..

شهران منذ تزوجت هذه المجنونة وحيدها وهي
تقتلهم كل يوم.. اليوم إما أن تحييهم جميعًا أو هي
تقتلها..

حين اتكأت على باب البيت تلتقط أنفاسها وقبل أن
تضع أصبعها على مفتاح جرس الباب رأت أحلام أمامها
ترتدي كامل ملابسها تفتح الباب..

شهقت المرأتان وقالت الصبية في خوف:

- كنت سأمر عليكما..

لم تجبها بكلمة واحدة.. بهدوء وفي قوة وحسم
دفعتها إلى الداخل تقول:

- إلى أين؟! إلى مسجد السيدة زينب أم السيدة

نفيسة اليوم؟! إلى أين يا أحلام وإلى متى؟!

أغلقت خلفها الباب واستدارت تنظر إليها ودموعها
بدأت تسقط في صمت ثم أكملت تقول:

- أنت لا تذهبين إلى المساجد..

شهقت الأخرى ولطمت وجهها بكفيها وانفجرت في

بكاء عنيف تصيح:

- بل أذهب..

جلست الأم على أحد المقاعد وبقيت تسمعها وهي
تكرر قسمها وشرحها لهذه الحالة الغريبة التي تنتابها من
الخوف والحزن

ولا تجد مخرجًا منها إلا بين جدران المساجد.. كانت
تبكي وتهذي وتقسم لكنها هي الأخرى في لحظة قررت
أن تقول ما يكوي أضلعها فقالت:

- هو الحمل.. هل تذهبين معي للتخلص منه؟!

رقصت دمعة في عيني عواطف وغابت أحلام في
صمت كبير بعد جملتها الأخيرة والتقت أعينهما كأن كلا
منهما لا تصدق ما سمعته.. في ألم قالت العجوز:

- من أجل هذا جئت.. أعلم أنك لا تريدين الجنين
الذي تحمليه في أحشائك.. وأعلم أيضًا لماذا
لا تريدينه..

كان كل سهام الدنيا أصابت قلبها في ذات اللحظة..
كان كل رياح التاريخ ضربت مقلتيها..

جفت دموعها وجحظت عيناها وهي تسمع كلمات
السيدة التي تزوجت وحيدها.. تعلم إذن فضيحتها..
أيعلم جبر هو الآخر..

اقتربت أحلام في صمت وسقطت على ركبتى زائرتها
وبكت تقول:

- ما كنت أعلم.. والله ما كنت أعلم..

كانت تدفن وجهها في ركبتها وتبكي كاليتامى
وشعرت بيد الأخرى تربت رأسها وتقول:

- بل كنت تعلمين وكان جبر نفسه يعلم.. لم تستطيعي
أن تحبيه وكان يعلم أنك لا تفعلين.. اسمعي يا بنتي..
أتعهد لك أن يطلقك بعد الولادة.. دعي الطفل فهو
حلمي.. ما عاد في عمري الكثير.. لا تحرميني إياه..
سأتكفل أنا به حتى الموت.. يوم تلدينه يطلقك جبر
وافعلي بعدها ما شئت.. لا إكراه في الحب لكن ارحمي
أمك ومرضها.. ارحميني وشيبتني وعجزي.. أنت حرة
من كليهما يوم تلدين.. جبر والجنين..

كانت ساكنة على ركبتيها.. يزيدونها ألماً وحزناً من

حيث

لا يعرفون وشعرت بذراعي عواطف ترفعان رأسها في
هدوء إليها ونظرت إليها وأكملت تتوسل لها أن تكف عن
البكاء والتجول في الشوارع والمساجد..

لن يرغموها على الحياة مع جبر.. هي حتى لم تذكرها
أنه تزوجها لينقذ سمعتها وشرفها..

هو وأمه أكرم منها وفي كل يوم يثبتان لها أنها
وحدها سر شقائهم.. في هدوء انحنى تضع على كف
أمه قبلة صادقة قالت بعدها:

- وحق من خلق هذا الجنين في أحشائي وما كنت به
أعلم.. جبر في عيني سيد رجال الأرض..

في لهفة سألتها إن كانت تحبه وفي صدق قالت إن
ما تشعر به تجاهه شيء أكبر من الحب وأجل..

عاهدتها أن تحارب هذا الشيطان الذي أنساها زوجها
وفرحتها.. وعدتها أن تساعدنا لكنها استحلقتنا برأس
أمها ألا تقتل حفيدها..

أحكمت أحلام حجابها وأخبرتها أنها لن تغادر بيتها
بعد اليوم أبداً..

ركضت إلى غرفتها وعادت تحمل مصحفاً كبيراً
أقسمت عليه أنها الزيارة الأخيرة التي تقوم بها إلى
المسجد اليوم وبعدها تبقى العمر تحت أقدام جبر
وأقدامها..

حين غادرت عواطف البيت سقطت على أحد مقاعد
الصلاة وبكت من جديد..

للمرة الأولى تشعر أنها ترتجف بشيء يقترب من
الفرح.. في لحظة شعرت أن أمها الثانية كشفت قصة
حملها.. كانت تبكي على ركبتيها وتتمنى لو تعلق قدميها
وتطلب منها الغفران والصفح.. فإذا بالمسكينة ترجوها
أن تبقى الجنين وإن كان الثمن طلاقها من جبر..

ما زالت لا تنسى يوم دخلت دار الإفتاء تسبقها
دمعاتها وشهقاتها حين وقفت أمام موظف الاستقبال
تخبره أنها بحاجة إلى شيخ يفتيها في أمر ما..

أشفق عليها ذاك الموظف الشاب وأسرع بها إلى أحد
الشيخوخ لم تكن وحدها معه.. كان إلى جواره موظف
وكان إلى جوار الشيخ شيخوخ آخرون ونساء ورجال
للفتوى قدموا..

كل ما يفصلها ويفصل شيخها عنهم حاز من الزجاج..

هدأها الشيخ وأخبرته أنها لا تستطيع الحديث..
ابتسم في هدوء كأنه اعتاد خوف النساء ويعرف سببه
وأخذ يطمئننها مردداً أن ما تقوله سر لن يعرفه أحد وأن
هذا الشاب الذي يجلس إلى جواره يكتب هو الآخر عليه
ميثاق الله أن لا ينس بحرف أو تطرف له عين حتى إن
رأها أو كانت إحدى قريباته..

حتى التردد في تلك اللحظات ما كانت تقوى عليه..

انطلقت من خلف دموعها تخبره أنها تزوجت رجلاً
طيئاً يحبها لكنها اكتشفت أنها حامل وأن عمر حملها
أكبر من عمر زواجها.. قبل أن يسألها بكت تخبره أنها
عذراء لكن كان لها خطيب سابق..

كانت تدافع عن ياسين دون وعي وكانت ترسم جبر
ملاكاً بريشة ضميرها.. أخبرته أنها حائرة تموت..

أطرق الرجل برأسه لحظات وقال في ألم شديد إن
الله سترها وإنه سيدعو لها بالستر والخير.. قال إن الله
غفور رحيم وعليها أن تكثر من الاستغفار ما استطاعت..
التقطت أنفاسها ولانت قسماتها وهي تسمع كلماته
وبدأت أنفاسها تنتظم وقالت كأنها تحلم:

- عندما أنجبه لن أدع زوجي ينفق عليه.. أعاهدك أيها

الشيخ سأعمل وأنفق عليه وحدي..

قاطعها الرجل في حسم يقول:

- هو حمل سفاح يا بنتي وعليك التخلص منه إلا إن كان في ذاك أذى عليك.. اصطحبي أمك إلى مستشفى آمن وتخلصي من هذا الحمل قبل الشهر الرابع وقبل أن يتشكل وتدب فيه الروح.. عودي بها إلى زوجك وأخبريه أنك فقدت جنينك واستغفري الله.. هو سفاح لا تبقيه أبدًا!! ستترك الله وسيعوضك عنه خيرًا بإذن منه ورحمة..

اليوم تنتهي هذه القصة..

لم تأكل شيئاً منذ عصر الأمس.. طبيب عيادة دار السلام بانتظارها في عيادته وثمان عملية الإجهاض في طيات ثيابها..

حين يموت هذا الجنين تعود وتبقى العمر تغسل بدمها قدمي جبر وتستغفر عن ذنبها..

حمل السفاح الذي تحمله بين أحشائها وحده اللعنة الكبيرة التي تهتز لها جنات أرواحهم جميعاً.. هي أيضاً ما عادت تطيقه..

إن مات ياسين فلتمت بذرته أيضاً وإن كان على قيد الحياة فهو في حياة أخرى ما عاد لها حتى حق الدخول إليها..

شيء كبير بداخلها يخبرها أنها أصبحت تحب جبر كما كانت تحب ياسين.. حتى إن كان ما تشعر به نحوه هو الامتنان فالامتنان نفسه يدعوها للتخلص من حمل سفاح يظنه المسكين ولده..

ساعات وتطوى القصة كما طويت قصة السرقة في محاضر الشرطة..

لا تعرف كيف ستعود ولا تعرف بماذا تخبرهم عند عودتها لكن أصبحت تعلم أنه لا خيار أمامها..

من يعلم قد تموت ويهدأ الجميع بل ليته حقاً تموت..

بلا وعي وضعت أحلام كفها على بطنها كأنها تستمبح
ما بقي منها العذر، وفي هدوء تسللت خارج البيت..

حين وصلت إلى العيادة التي يجري فيها الطبيب
عملياته كانت في انتظارها ممرضة رقيقة سمراء
ابتسمت في وجهها ابتسامة صغيرة حزينة أخبرتها
بعدها أن الطبيب يصل بعد لحظات وأن كل شيء معد..
أشارت لها بيدها إلى غرفة مغلقة وطلبت منها
الدخول إليها وهي تقول:

- أنت رقم أربعة في كشف العمليات، لكن إن لم يأت
أحد حتى حضور الطبيب نبدأ بك..

نكست أحلام رأسها وخطت وهي ترتجف نحو
الغرفة..

أربع نساء أثمات يتخلصن اليوم من بذرة الحب..
أربعة أجنة تُذبح وثرأق دماؤها هذا الصباح.. ليست
الآئمة الوحيدة إذن على هذه الأرض!!

لم تستطع أبداً أن تكتم صرخة صغيرة خرجت من
صدرها حين أغلقت باب الغرفة واستدارت لتجلس..

شعرت أن كل عرق صغير في جسدها انفصل عن
جذوره وصاح في ألم حين رأت ذاك المقعد الرابض في
إحدى زوايا الغرفة..

سقطت على أحد المقاعد أمامه ولم تعد عينها ترى
سواه..

مقعد أسود.. قديم .. متهاك ربما لكنه كذاك المقعد
الذي كان في عيادة ياسين..
هو (Lazy Boy) آخر..

أنهار من الدمع طففت من عينيها.. جيوش من الألم
مزقت أحشائها وعيناها جاحظتان تتجولان على المقعد
من خلف دمعها..

رأت ياسين حين اعتاد أن يمد ذراعيه نحوها يشدها
إليه وتسقط على ذات المقعد فوق صدره..

سمعت صوته يهمس يخبرها أنه يحبها وهي ترفع
أصابعها لتبتعد بخصلات شعرها عن صدره العاري
لتلامس خدها به دون حواجز..

سمعته يهمس أنه يحبها وسمعت نفسها تبكي وتقسم
أنها ما كانت ولن تكون يومًا لسواه..

كالمجنونة بحثت حولها عن جزء المقعد الصغير الذي
كانت ترتمي عليه لتجوب بشفاها جسد ياسين وتغفو
على ساقيه كأنها تولد عليهما وتموت..

لا يوجد لهذا المقعد تابع كذاك الذي سرقتة.. هو قديم
متهاك ربما كان بقايا عاشقين مارسا عليه العشق حتى
كرهاه!!

علا نحيبها وهي تذكر تلك اللحظة التي حملت فيها
«بانكيت» المقعد وركضت خارج العيادة حين اقتادوها
إلى مركز الشرطة..

فعلت كل شيء على مقعد كهذا..

أحبت رجلاً حتى الجنون.. خلعت ثيابها وتمرغت
على جسده.. قبلت قدميه وصدقت أن الفراق عنهما
بعيد ما دامت تبقى له جارية..

سرقت وكادت تقضي بقية عمرها في السجن إن لم
ينقذها جبر.. لماذا فعلت كل هذا؟!
لأنها أرادت شيئاً من رائحته..

واليوم وفي حضرة مقعد كذاك جاءت تتخلص من
أغلى وأجمل شيء وضعه القدر في رحمها من رائحة
ذاك الرجل..

ياسين لم يخنها.. لم يفدر بها.. ذهب يطلبها من أمها..
أخبر أباه بقصة هواهما..

ياسين مات في حادث سيارة أو حتى لم يموت.. لا هو
ولا حبه النابض في عروقها يستحق أن تقتل آخر ما
بقي منه..

جبر لا يستحق أن تنسب له طفلاً ليس منه، لكن هي
أيضاً لا تستحق أن تقتل طفلاً منها ومن ذاك الرجل..

لم تكن تشعر بشيء أو تبصر تلك الفتيات اللاتي
دخلن الغرفة وجلسن إلى جوارها هن الأخريات ينتظرن
دورهن..

لم تسمع صوت إحداهن وهي تحاول أن تهدئها
وتتحدث معها، لم تشعر حتى بكف أم إحداهن التي

جاءت بصحبة ابنتها تربت كنفها وتخبرها أن الله ستار
حليم وكل شيء سيكون بخير..

لم تكن أبداً تبصر أو تسمع سوى لحظات حب كبير
بات مستحيلاً أن تتكرر أو تعود..

ما عادت تفهم سوى أمل كادت تشتريه بحريتها
وشمعتها وها هي اليوم تتخلص منه في عيادة بعيدة
وغرفة مظلمة تنبعث منها رائحة الدم والخطايا..

لم تشعر بشيء إلا بيد تلك الممرضة السمراء تهزها
في عنف وتقول:

- كفاك بكاء.. دورك هو القادم لكن يجب أن تدفعي
كامل المبلغ قبل دخولك إلى الطبيب..

عادت أحلام من رحلتها على المقعد ورفعت رأسها
تكسح دموعها تنظر حولها في ذهول لتسمع صوت
الممرضة قائلة:

- لا تخشي شيئاً.. انتهى الطبيب من عمليتين ودورك
القادم.. أرجوك أن تدفعي..

في ذهول نهضت وتقدمت نحو باب الغرفة تتبعها
السمراء التي تحضل للقاتل أجره لكن أحلام لم تتوقف
عن خطواتها بل استمرت تخطو نحو باب العيادة.. حين
صاحت الفتاة تسألها إلى أين استدارت تنظر إلى وجهها
من خلف دموعها في ذهول تسأل نفسها هل ينتهي
الطبيب من إجراء عملياته ويأخذ هذه الممرضة على
ذات المقعد في غرفة الانتظار..

في عيون الفتاة شيء يقول إنها أحلام أخرى..
كل النساء فيهن ذات العته.. إن وقعت إحداهن في
العشق ظنت أنها أذكى وأقوى وأكثر عفة وطهراً وفي
الحقيقة السقوط رائحته واحدة ورداؤه واحد..
وحدها تختلف.. وحدها ستفعل ما لن تفعله امرأة
على الأرض..

نكست رأسها وفتحت باب العيادة وهي تقول:

- لن أقتل ما بقي منه أبدا!!

خلعت عن جسدها رداء العمليات وانحنت تغسل
يديها تحت مياه الصنبور ثم رفعت رأسها تنظر إلى
صورتها المنعكسة في المرآة وفي ضجر أمعت النظر
إلى وجهها..

هو وجه أسمر مستطيل كل ملامحه حادة وواضحة..
عينها الضيقتان.. أنفها المعتدل وشفاهها المشروطة
المستقيمة كأنهما خطان تم فتحهما بمبضع جراح ماهر..
حتى شعرها لا كسرة واحدة فيه ولا شعرة فيه
يتجاوز طولها العشرة سنتيمترات..

ابتسمت ابتسامة صغيرة وهي تمشطه بأصابعها
السمراء النحيلة.. حاولت كثيرًا في الخفاء أن تضع عليه
زيوت الأرض ليصبح أكثر طولًا لكنها أخفقت بنجاح..

ألفت.. رجل في ثياب امرأة.. حتى اسمها يحمله
رجال كثيرون.. هكذا أراد لها والدها منذ طفولتها أن
تكون وهكذا اعتادت نفسها وأحببتها..

متصالحة مع ذاتها..

تعلم أن جل إمكانياتها تقع خلف هذا الشعر القصير..

رأسها وعقلها هما ثروتها.. كانت دومًا تنجح بتفوق
ودومًا تعود إلى والدها في بيتهم تحمل درجات تفوقها
وتقدمها ويستلم أوراق مدرستها ويوقع عليها قائلًا:

- أفت .. ستكونين أشهر طبيب في مصر..

لم يكن والدها فحسب.. كان صديقها ورفيقها.. بل حين كبرت قليلاً كانت ترتدي بعضاً من بيجاماته أحياناً..

كانا رجلين يسكنان بيتاً واحداً ويعملان من أجل حلم واحد..

لم يقترب منها شاب يوماً.. ليس لأنها ليست جميلة ولكن لأنها لم تعامل أحدهم يوماً كأنثى.. لم تتعلم أن تكون.. الأنوثة لها دروس وفنون..

يوم علمت هذه الحقيقة كانت قد اعتادت ما هي عليه وألفته وبات صعباً أن تغيره..

حين استدار صدرها أصابتها الدهشة وحين انطلقت شارة أنوثتها أصابتها دهشة أكبر.. تعلم أنها أنثى لكن دهشتها كانت دوماً لأنها تنسى ذلك ولا تذكره إلا في تلك اللحظات التي تصطدم فيها بعينيها بالمرأة وهي عارية في طريقها إلى الاستحمام..

كانت دهشتها الأكبر يوم مات والدها يوسف البلتاجي عند عودته من مكتبه في وزارة النقل والمواصلات..

مات وهي في سنة التخرج.. مات حين كانت تعد طعام الغداء الذي طهاه هو قبل خروجه إلى العمل في الصباح..

صاح من غرفته يناديها لتجده يتصبب عرقاً غزيراً.. حاولت أن تحمله على ذراعيها لكنه رفض وتوكلأ يستند

إليها وفي سيارة الأجرة التي استقلها مال برأسه على صدرها وقال:

- أول مريض يموت على كتفك يا دكتورة!!

عادت ألفت إلى البيت حين تيقنت أنه لفظ أنفاسه.. في لحظات إعداده لمثواه الأخير كانت صدمة عمرها الكبيرة حيث منعوها عن الوقوف على جثمانه لأنها «امرأة»!!

تنهدت في صمت وهي تستعيد لحظات رحيل رفيقها واستدارت تخرج من غرفة التعقيم وتمضي نحو غرفة الأطباء..

في الطريق شعرت بأحد الأطباء يدق بكفه على كتفها قائلاً:

- أنقذت دكتور ياسين حقًا اليوم!!

مضى دون أن ينتظر منها ردًا..

جميع من في المستشفى يظنون أنها لم تلتق ياسين البيلاوي من قبل.. حتى هو لا يذكرها..

تعلم جيدًا أنه لا يفعل ليس بسبب إصابته بعد الحادث بل لأنه ما نظر إليها أبدًا ولا رآها في ذلك العام الذي عمل والده في أحد المستوصفات الخيرية حيث كانت غرفة مكتبها هي الواقعة إلى جوار غرفته..

تحب الدكتور عاصم كثيرًا واعتادت أن تشرب قهوتها معه كل يوم قبل مواعيد الكشف وكثيرًا ما كانت تلتقي

ياسين حين يأتي إلى والده..

كان يلقي عليها التحية ويصافحها لتنهض عن مقعدها أو ينهض والده عن مقعده إن كان في غرفتها ليذهب مع وحيدته وتبقى تتبعه بعينها..

ألفت تعلم أن بداخلها امرأة لكن لم تكن تعلم أن ياسين وحده من يحركها في الضلوع..

عام رآته فيه أكثر من عشر مرات ولم يرها هو مرة واحدة..

ترك الببلاوي المستوصف وبقي يحادثها من أن إلى آخر ويوصي عليها أصدقاءه في قصر العيني أثناء تحضيرها لرسالة الدكتوراه وحتى مناقشتها كانت كثيرًا ما تسأله عن ولده ويجيبها كأنه يحادث صديقًا يسأل عن ولد صديقه.. لكنها كانت دومًا تعلم أنه دون رجال الأرض له في قلبها شأن آخر..

حين عملت في هذا المستشفى منذ شهور ورأت اسمه في كشوف الأطباء علمت بأنه سافر للعلاج بعد ذاك الحادث الذي فقد فيه والده عندها تمسكت بالبقاء في عملها حتى عودته..

حين صافحته وأخبرته بتعازيها كانت تعلم أنه لن يذكرها ليس لإصابته الغريبة لكن لأنها تعلم أنه ما رآها يومًا بأكثر من عينيه ومن يبقى في ذاكرتنا هم أولئك الذين نبصرهم بشيء أكبر من العين..

لم تكن تعلم أبدًا أنها ستنقذه من كارثة كهذه التي
كان سيقع فيها اليوم..

تعسرت حالة الولادة التي كان يقف عليها.. انتابته
حالة الرعدة التي تصيبه وكانت هي في غرفة مجاورة
له تقوم بتوليد امرأة أخرى ولادة طبيعية..
ركضت الممرضة إليها تخبرها وركضت إليه..

كانت المرأة قد غابت تحت تأثير المخدر حيث كان
يجب توليدها قيصرًا وكان ياسين يحاول أن يفعل
شيئًا ليسترد سيطرته على أصابعه إلا أن ألفت أمسكت
بيده في قوة وأخبرته أن يجلس حتى يستعيد نفسه..

أمسكت بالمشرب وتولت إخراج الجنين وعاد إلى
جوارها بعد لحظات بعد أن عاد طبيعيًا..

لم تمنعه ولم تشعره أبدًا بخوفها منه.. كانت تعلم
جيدًا أن نوبات الرعدة كما تهاجمه فجأة تختفي فجأة
لكنها بقيت واقفة إلى جواره ترقبه كيف يطمئن بنفسه
على كل شيء وكيف قام بخياطة جرح الأم بدقة هي
نفسها لا تعرفها وحين انتهى قالت في صدق:

- لم أَرِ طبيبًا يخيّط الجرح مثلك..

ابتسم وهو يقول:

- هي طريقة تعلمتها من أستاذي البريطاني.. أنا أيضًا
لم أَرِ في شهامتك..

تركته وعادت إلى مريضتها مطمئنة.. انتهت المراحل
الصعبة حتى وإن واثته رعشته مجددًا فيامكان أي
ممرضة أن تكمل ما بقي..

ياسين ذاك الوسيم الرائع الذي ظنته أكبر حتى من
أحلامها.. له ولوالده عليها حق كبير..

عليها أن تذهب إلى مكتبه وتطلب منه أن لا يدخل
غرفة العمليات أبدًا وحده..

رفعت رأسها في حيرة.. هي تثق أنه يفكر في هذا
الآن لكن ليس هذا ما تريد أن تخبره به..

تريد أن تخبره أنها ستكون معه في كل عملية
يجريها.. نعم.. وما المانع؟!

يسعدها أن تكون إلى جواره.. إن اعترض تخبره أنها
ستأخذ نسبة مما يتقاضاه..

لن تتركه أبدًا يفعلها وحده مرة أخرى..

كارثة كبرى قد تحدث..

هو الحب؟!

نعم حب أنثى لا يراها أحد..

ليس إشفاقًا رغم أن روحها تتمزق وهي تستعيد ما
حدث له وما سيحدث إن حدث له كارثة في غرفة
العمليات ولم يدركه أحد..

ليس ما في قلبها حب قديم أو أمل قديم فحسب، ما
في قلب ألفت رغبة تريد تحقيقها وواجب تريد القيام

به وصنيع تريد رده إلى روح ذاك الرجل الذي ساندها
كثيرًا ولعب معها دور الأب والصديق..

تريد من كل روحها أن تكون مع وحيدته كما كان هو
معها..

تعلم أنه يحتاجها كما لم يحتج رضيع صدر أمه يومًا
على وجه الأرض..

في هدوء نهضت عن مقعدها وتوجهت إلى مكتب
ياسين لتدخل غرفته الصغيرة بعد طرقات خفيفة..

حين رآها نهض عن مقعده وقال مبتسمًا:

- أنا من عليه الحضور إليك لشكرك لكن كنت أنتظر
أن ترتاحي قليلاً..

بعينها ضمته إلى صدرها وفي تصميم وقوة جلست
أمامه وقالت بعد لحظات:

- دكتور ياسين .. هل تتزوجني؟!

لدقيقة لم يفهم.. عاود النظر إلى وجهها في دهشة
عندما استعاد الحروف برأسه..

جميلة ألفت.. طبيبة ماهرة واضحة يحبها الجميع
ويتعاملون معها بكل الاحترام كأنها رئيسهم رغم أنها
ليست أكبرهم وإن كانت تكبره بخمسة أعوام..

تعرض عليه الزواج؟! لماذا لا يندهش؟!

لأن العرض جاء منها هي بالتحديد.. هي ليست ككل
النساء.

تنهد في ألم عندما لاحت صورة أحلام في عينيه..

شهر ونصف تقريبًا منذ عودته وفي كل يوم يحاول
محادثتها.. طلب من عمر أن يذهب إلى بيتها ودومًا
يخبره أنه ذهب ولم يجد أحدًا..

شهر ونصف وهو يقاوم ساقبيه كل ليلة حتى لا تحمله
إلى بيتها..

لماذا يذهب إليها؟ وماذا يفعل أو يقول؟! لو أنها
جاءته قد تختلف القصة.. ما زال يقرأ محضر السرقة
كل ليلة.. ما زالت روحه تنتفض عندما ينظر إلى درج
مكتبه ويتذكر كلمات أمه عندما أخبرته عن الألفي جنيه
التي أخذها عمر من طيات ثيابها قبل اقتيادها إلى مركز
الشرطة خوفًا من أن يسرقها من يعملون فيه..

هل كان حقًا يضع مبلغًا كهذا في درج مكتبه.. لا
يستطيع أن ينفي أو يؤكد لكن ما زال يريد أن ترد على
الهاتف الذي أصبح دومًا مغلقًا.. يريد أن تأتي ويلتقيها
مرة واحدة ليسألها هل حقًا ما حدث صحيح؟!

اهتزت أطرافه وهو يسمعها تقول من جديد:

- هل سمعتني دكتور ياسين؟!

أغمض عينيه في ألم.. تختلف عن أحلام.. تختلف
كثيرًا.. تلك كانت رقيقة ناعمة لكن ألفت واضحة قوية،
لا يشعر أبدًا أنه استاء من عرضها بل هو من حبه القديم
مستاء..

تقدم نحوها وانحنى في هدوء يضع على رأسها قبلة
حانية وقال وهو يبتسم للمرة الأولى منذ تلك الليلة:
- هل تزيدين على كرمك هذا كرمًا وتصبرين!!

وضعت كوب القهوة الكبير على حائط الشرفة
 وجلست على المقعد بجوار السور تنظر إلى شارع
 الكاتب يتشاءب ليفتح عينيه مع شروق الشمس
 استعدادًا لآلاف الأقدام التي ستجوبه وتمشطه في
 النهار القادم..

لم تتخلف يومًا عن موعد السادسة صباحًا معه.. هي
 وكوب قهوتها وهذا السور..

عادت بجسدها إلى الخلف واستندت برأسها إلى
 المقعد ورفعت عينيها تنظر إلى السماء..

أجمل ما تحبه في شرفة بيتها أنها دون سقف..

أغمضت عينيها في زهول؟!

ماذا فعلت بالأمس وكيف طلبت من ياسين الزواج..
 لم تمر الفكرة برأسها لحظة.. كانت فقط سترجوه أن
 يصطحبها معه في كل عملياته خشية أن تواتيه نوبات
 الرعشة تلك.. كانت ستعقد صفقة تقتسم فيها أجزاء
 وتسدي فيها معروفًا إلى رجل أحبته ورحل ليترك ولده
 يواجه هذه العلة المجهولة فإذا بها تقدم عرضًا قد
 يبخس بها وبثمنها..

ماذا أصابك يا ألفت؟! هل حقًا تخوننا شفاهنا وتنطق
 بما لا نعلم أنه كان يدور برؤوسنا..

اعتدلت وأخذت رشفة صغيرة من قهوتها ودون وعي
هزت كنفها في استسلام..

ما حدث قد حدث.. نطقت شفتها بما لم تكن عن
نفسها تعرفه أعوامًا..

تريد الزواج؟!

أبدًا.. هي تريد أن تكون بجوار هذا الرجل..

ماذا لو رفض؟! ماذا لو تجاهل القصة..

ستنساها كأنها ما كانت.. لن ينتقص ما حدث شيئًا
من كرامتها..

ألفت قوية.. تثق في نفسها ولا ترى أنها أبدًا أقل من
أي رجل يطلب الزواج من فتاة ترفضه فيبتسم ويمضي
مكملًا حياته دون خدش واحد..

ليست نادمة ولا خجلى.. هي فقط مندهشة من تلك
المرأة التي أطلت في لحظة من أعماقها وأعلنت رغبتها
دون خجل..

هو وسيم أنيق وهي بسيطة..

هو ابن البلاوي أحد أكبر الأطباء لكنها أيضًا أستاذ
في قصر العيني وفي طريقها لأن تكون في مكانة
كبيرة..

الزواج ليس هدفها.. صحبة هذا الرجل وحده غايتها..
تلك القبلة الصغيرة التي وضعها على رأسها جعلتها

تريده أكثر.. ليس كرجل لكن كشريك يحتاجها وتحتاج
وجوده..

إن رفض ياسين عرضها بأي طريقة كانت ستخبره
وبأي طريقة تكون أنها باقية معه..

لن تتركه أبداً.. كلاهما يحتاج الآخر..

كيف ثمضي يوم الإجازة هذا؟!

بل كيف تسأل بعد أعوام مر عليها فيها مئات أيام
الإجازات..

سترتدي ثيابها وتخرج لزيارة عمته وشراء
مستلزمات بيتها ثم تعود إلى الشرفة في جلسة المساء
ترقب وجوه المارة وركض الأطفال..

مسئولة عن عمته ومسئولة كانت عن والدها وها هي
تبحث عن مسئولية جديدة تريد أن تحل بها كتفها..

هناك بشر سعادتهم في أن يجدوا من يحمل عنهم
أعباءهم أو يقاسمهم فيها..

إلا أن ألفت كل سعادتها أن تحمل على كتفها أعباء
ومسئوليات من هم بحاجة إليها..

ياسين يحتاجها وتحتاجه..

لا احتياج على الأرض أكبر من هذا الذي شعرت به
أمس.. «الحب»!!

ما زال اللون الأشقر هو أجمل الألوان على شعرها.. ما
 زالت تندهش كلما وضعت على رأسها، كيف يبدو على
 بعض النساء رخيضا باهئا ويبدو على أخريات جميلاً
 أرستقراطياً..

ماذا تنتظر ناهد لتبدل ثيابها وتخرج إلى لقائه؟!

فلنعترف.. لا تريد أن ترتدي اللون الأسود..

انتهت فترة العدة بالأمس.. بإمكانها أن تتزوج هذا
 المساء إن شاءت..

كيف تفتح ياسين في الأمر؟!

لا تصدق أبداً أن الأم تخشى ولدها وتنتظر قراره في
 أمر يخصها..

رحل عاصم.. رحل بعد أن عاش كما يريد.. يتنقل بين
 المستوصفات الخيرية ومكتبات الجامعات وبيوت
 الأصدقاء..

بل رحل كما طلب من خالقه.. بعد أن وقّع الكشف
 الأخير على أحد مرضاه ودون ألم أو احتضار..

فلتحيا ما بقي لها كيف تشاء..

ياسين لن يعترض.. أصبح أضعف من أن يرفض.. ما
 زال تحت تأثير حزنه على فقدته لوالده وخوفه من
 نوبات الرعشة والنسيان..

شيء خفي بداخلها يمنعها عن مصارحته.. ربما لأنها
منعته عن ممرضته، وتخشى أن يمنعها هو عن طبيبتها.
ما زال يحاول الوصول إليها.. أخبرها عمر أنه طلب
منه الذهاب إلى بيتها ليطلب منها الذهاب إليه.. أخبرها
أيضًا أن ياسين أخبره أنه حاول كثيرًا محادثتها لكن
هاتفها دوماً مغلق..

هل تشعر ناهد بالذنب؟!

أبداً.. أنقذت ولدها من لصة عندما لم تجد ما تسرقه
حملت مقعدًا وهربت به..

اختلقت قصصًا عن سرقتها النقود.. فعلت فقط ليبدو
الأمر أكثر فداحة لكن لا فارق!!

ربما لو مات عاصم والتقت هي فاضل قبل قصة هذه
الممرضة لما اهتمت كثيرًا..

رفعت حاجبها في زهول وهي تنظر إلى مراتها.. هل
حقًا كانت لتترك ياسين يتزوج ممرضته البلهاء لو كان
فاضل في أيامها حينذاك.. هل حقًا تتبدل مواقفنا
وتتلون مبادئنا إن كانت القصة قصتنا وكنا نحن
الأبطال؟!

ما يقلقها قد يكون السرعة التي اتخذت بها القرار..
السرعة التي تريد بها أرملة الزواج..

لا وقت لديها ولا عمر يضيع في التردد والتفكير..

قصتها معه تختلف عن قصة ولدها..

لا وجه للمقارنة.. فاضل طيب..

ربما ليس ثريًا.. ربما ليس في سنها بل يقترب من
سن ولدها، لكنه طيب ومن عائلة استطاعت أن تنفق
على تعليمه ولا تسكن الحارات..

الأرملة ابنة السفير والتي تجاوزت الستين عامًا تريد
أن تتزوج شابًا في منتصف عمرها..

ما بقي من عمرها هو ما تريد إنقاذه.. هو وحده ما
تريد أن تحياه..

إن بلغ ياسين الستين وتجاوزها فليفعل عندها ما
شاء كما كان أبوه يفعل..

لم يكن أحد ممن تخشى أقاويلهم الآن يشعر بها وهي
وحيدة تعاشر أحق يجلس إلى جوار السائق ويتبادل
النكات مع الخادمة..

فاضل مثلها .. لا ينطق الكلمة إلا بعد أن يضعها على
الميزان وبعد أن يفتح عينيه وينظر إلى من يتلقاها وإن
كان يستحق حقًا أن يتحدث معه أم لا..

فليفعل ياسين ما شاء.. بل سيفعل ما تشاءه له..
سيتزوج ابنة السفير التي تراها مناسبة له.. نصيبه من
نقود والده باسمه كما هو نصيبها..

هذا البيت أيضًا باسمها وهو حق لها وحدها..

نهضت ناهد عن مقعدها وتوجهت نحو خزانة
ملابسها وأخذت تنحسس جميع ملابسها لتفريق على

رنين هاتفها.. إنه فاضل..

ابتسمت في دلال تسمعه يسألها عن موعد العشاء
وقبل أن تجيبه أخرجت ثوبًا أزرق اللون به نقوش
حمراء وقالت:

- العاشرة، وأعددت لك مفاجأة كبيرة.. أحسن
استعدادك لها!!

لا شيء في منطقة «الملك الصالح» أو «مصر القديمة» يختفي..

أحلام تعلم أن ياسين عاد إلى العمل في عيادته ثلاثة أيام كل أسبوع.. تعلم أيضًا أن ممرضًا رجلًا يعمل لديه وأنه ما عاد كما كان..

أخبرتها أمها بالقصة التي أخبرها بها روادها من النساء اللاتي يحكن الثياب..

شهران تقريبًا تخرج فيهما شريحة هاتفها القديم كل يوم وجبر ليس في البيت وتضعها لحظات في هاتفها وتنتظر الرسائل التي تخبرها بالمكالمات الواردة..

ما زال يطلبها وفي كل مرة تمنى ألا تجد فيه اتصالاً رغم أنها تعلم أنها لا تحتفظ بالرقم القديم إلا لتجده يتصل..

كل شيء في ذهنها مختلط..

منذ هربها من عملية الإجهاض لا تفهم نفسها..

ترمي بنفسها كل ليلة بين ذراعي جبر وتطلب منه أن يحكم حولها ذراعيه وتبكي وتلتصق ب صدره كأنها حقًا تحبه..

بعد أن ينام وتستدير أيضًا للنوم يطل ياسين من تحت جفنيها.. تمنى عندها لو توقظ جبر وتطلب منه أن يساعدها في طرده من مقلتيها لكنها تذوب خجلًا

وهي تتحسس أحشائها وتعلم أن بداخلها منه شيئًا.. لن تترك زوجها ينفق على جنينها.. ذهبت إلى مستوصفات منطقة دار السلام بأكملها وأخذت وعدًا بالعمل فيها بعد الولادة.. لكن هل هي النقود التي إن أعفت جبر منها ارتاح ضميرها..

الخديعة التي قد يحيا العمر فيها، الخديعة التي قد يعرفها يومًا،

ولا تعرف إن حدث هذا ماذا تصنع بنفسها هي التي تلهب ضميرها جدًا كل صباح وكل مساء..

بعد أن تضع حملها تعاهد ربها أن تحمل في أحشائها من زوجها طفلًا آخر.. ستبقى العمر تحت قدمي جبر وأمه..

ستجد ألف طريقة تستغفر بها ربها عن فعلتها لكن تريد أن تحتفظ بما في أحشائها..

ألا يردد زوجها دومًا أنها ليست زوجته فحسب بل أخته وابنته.. لن يبخل رجل مثله على تحمل مسؤولية طفل أخته أو ابنته إلى جوار أبنائه التي ستلدهم له.. طيب جبر..

نعم هو أطيّب من طيب الأرض وريحانها.. منذ أسابيع ألقّت بكتاب الله بين يديه وأخذت عليه قسماً وميثاقاً أن لا يأخذها إلى طيب أبداً وأن تضع حملها هنا في البيت..

بكت تخبره أنها ترتجف إن سمعت كلمة طبيب أو
تخيلت نفسها في مستوصف أو مستشفى.. ضمها إلى
صدره يخبرها أن كل هذه الآلام ستتحرك منها عندما
تحمل طفلها على ذراعيها..

أنار لها طريق كذبتها القادمة..

عندما تلد تخبره أنها تحررت من عقدة الطبيب ولهذا
ستلتحق بالعمل في مستوصف..

ليس ساذجاً.. جبر ليس أبه ولا هي شريفة أو
ساقطة.. فقط تريد ما أراد الله له أن توضع بذرته في
أحشائها.. جنون هادر من الأفكار المتلاطمة في رأسها..

لم تعد تقاوم ولم تعد تبكي..

أصبحت كأنها في الأربعين رغم أنها ما زالت عروشا..
أصبحت تطهو لها وللمرأتين .. أصبحت تفتت نفسها
تحت أقدامهم جميعاً كأنها بما تفعل منهم تستغفر..

جبر في كل ليلة يضمها ويخبرها أن ترتاح فأمه دوماً
تشكو إليه من إصرارها على القيام بكل شيء..

وباتت هي على ذراعيه كل ليلة تبكي وتطلب منه أن
يضمها أكثر.. ما فعله معها أكبر مما يظن أو يتصور..

يظنها عن زواجه بها بعد قضيتها تتحدث.. يظنها عن
وقوفه إلى جوارها حتى تنازلت تلك الجبارة عن
المحضر تتحدث، ليس ساذجاً وليست شريفة..

هم فقط اثنان يتحدث أحدهما عمًا يعرفه ويتحدث
الآخر عمًا يجهله الأول.. تتحدث عن شيء يجعلها لجبر
أكثر استسلامًا وأكثر عرفانًا وحبًا..

ما عاد التراجع الآن ممكنًا.. حتى الشيخ أخبرها أن
التخلص من الجنين مشروط بضمان سلامتها..

أصبح للجنين قلب ونبض إن حاولت فصلهما عنها
ضاع منها نبضها ومات قلبها..

فات أوان كل شيء..

فات أوان العودة إلى ياسين.. وأوان التخلص من
حملها..

ما بقي أمامها سوى أن تستغفر ربها بدمعها.. وزوجها
بالتفاني في خدمته هو وأمه ليل نهار حتى يقضي الله
أمرًا كان مفعولًا!!

لماذا لم تتردد ألفت في أن تعلن رغبتها بالزواج منه
ولماذا لم تتردد أمه لحظة عند عودتها من سهرتها
بالأمس بعد أن بدلت ثياب الحداد أن تخبره أنها
ستتزوج؟!

لماذا لم يغضب كثيرًا ولماذا يتردد كل يوم في
الذهاب إلى منزل أحلام؟!

لأنها ضُبطت متلبسة بمحاولة سرقة بينما كان
يصارع الموت على فراشه.. أم لأنه ما زال حزينًا مكسور
الوجدان على والده وعلى نفسه..

يعلم أن إصابته هزت ثقته بنفسه وبحببته وأمه
وكل شيء.. أصبح دومًا خائفًا أن تواتيه نوبات الرعشة
وهو يوقع كشفًا أو يتحدث إلى إحدى مريضاته.. بل في
الحقيقة هناك رعب كبير بداخله أن تواتيه نوبة الرعشة
وهو يقف أمام أحلام إن ذهب إليها..

يعلم أن احتمالات النوبات تزيد إن هو انفعل بشيء
وكيف
لا ينفعل إن وقف أمامها..

نوبات الرعشة ليست أسوأ أبدًا من جراءة ألفت في
كلماتها، ماذا لو صدها أو جرحها بكلمة.. لماذا لم تخش
من رد فعله على كبريائها ولماذا لم تخش أمه أن يلقي
إلى مسامعها بكلمة قاسية لنزعها ثياب الحداد وطلبها
للزواج؟!

لأنهم جميعًا يعلمون أنه أصبح ضعيفًا مهزوزًا..

هل يمنع الإنسان نفسه عن السير في طريق يعلم أنه يريد له لمجرد خوفه من أن يكون الطريق مسدودًا أو قد يلقى فيه بعض المخاطر؟! وهل إن استسلمنا لمخاوفنا نحرك أقدامنا خطوة في أي اتجاه..

أين عاصم؟! لو كان هنا لأخبره أن الخوف هو عدو الإنسان الكبير.. لو كان هنا لحدثه عن الرضا بالقدر والتعامل معه.. لو كان هنا لأيقظ بداخله الإيمان والقوة..

هل يخذل أباه؟! هل انتهت كل المبادئ والآيات القرآنية التي علمها إياه بموته؟! هو إذن يقتل والده مرتين..

عاصم مات في قلب ناهد وعلى الأوراق الرسمية..

تم محو اسمه من كشوف الأطباء والسنة المرضي..

ياسين فقط قادر على إحيائه إن عمل بما علمه له واستحضر كل ما لقنه إياه عن مواجهة الكوارث والألم..

يريد أن يلتقي أحلام.. يريد أن يواجهها وينظر في عينيها.. يرقبها وهي تحاول تبرئة نفسها ويختبر قلب المؤمن الذي طالما حدثه عنه والده وهو يعلن أنها تكذب أو يعلن أنه يصدقها..

سيحيا بعاهته هذه يمارس الطب.. لن يجري عمليات أبدًا.. سيعود إلى إنجلترا وينهي رسالة الدكتوراه.. سيتجه إلى تدريس الطب وإن شاء ممارسته يشطب

كلمة «التوليد» ويكتفي بطبيب نساء.. إن واثته الرعشة
يومًا وهو يوقع الكشف على سيدة يعتذر منها ويلقي
بجسده على مقعده حتى يستعيد سيطرته على نفسه..

بكل الشجاعة والصدق سيقول بعدها: «سيدتي..
حتى الأطباء رغبًا عنهم يمرضون»..

إن شاءت أن تكمل أكمل معها وإن خافت أعاد إليها
نقودها..

لن يخذل والده أبدًا.. سيكتب له عمراً جديداً..

الآباء إن نجحوا في تربية أبنائهم ما ماتوا يوماً..

عاصم يستحق أن يحيا ويأسين لن يخذله.. أمامه
اختبار كبير ويجب أن يجتازه..

سيضع القلم على مكتبه وحين ينتهي من آخر كشف
أمامه يخرج ويتوجه إلى بيت فتاة أحبها بصدق ولا
يعلم إن كانت خذلت أم لا..

لن يموت ما دام في صدره قلب ينبض بلمسات أب
كأبيه أبدًا..

سيذهب ويجتاز هذا الاختبار الكبير..

لكل مذبذب طريقته في الاستغفار.. هناك من يسجد
وهناك من يبكي وهناك من ينذر عمره لخدمة من أخطأ
في حقهم..

اختارت أن تفعل كل هذا معًا، فهي عن ذنبها ثابتة
لكنها ما زالت تحمل بين أحشائها ذنبًا أكبر وتتمنى أن
يولد بين يديها وتكمل به حياتها..

جبر كان جالسًا يرقبها وهي تعد له طعام العشاء
وتمنعه عن أن يعاونها رغم شحوبها وتعبها..

حين وضعت الصحون الصغيرة التي أعدتها على
مائدتهم الصغيرة مال يقبلها على وجنتيها وأغمضت
عينها كأنها تستغفره قائلة:

- أيًا كان ما أفعله من أجلك فهو قليل..

كعادته كل ليلة وضع اللقمة الأولى في فمها وقال
محاولاً أن يشيع المرح ويمر بأصابعه على بطنها
المنتفخ:

- تهمل النساء رجالها حين يصبحن أمهات.. لا تفعلين
هذا.. أريد أن نفعل أشياء كثيرة.. أريد أن نسافر معًا..
أن نجلس أمام البحر ونركض على الشاطئ.. أحلام..

رفعت عينيها الحانيتين تنظر إليه ليضع كفه على
يدها ويقول:

- أريد أن أراك مرة من قلبك تضحكين..

بشفتيها انحنت على أصابعه تضع قبلة كأنها تستغفر
من جديد وأغمضت عينيها لتفتحهما على صوت
طرقات على باب بيتها..

نهض كعادته وتبعته تستحلفه أن يكمل طعامه
ويتركها ترى من الطارق لكنه في تلك اللحظة فتح الباب
ومن خلف كنفه رأت أمامها من ظنت أنها يومًا لن
تراه..

كانت ترتجف خلف ظهره في جنون حين كان ياسين
ينظر إليها وهو يحاول أن يتذكر.. هل كان لها أخ نسي
وجوده؟!

عندما أعاد جبر عليه السؤال في هدوء تقدم الزائر
ومد يده نحوه يصافحه قائلاً:
- دكتور ياسين البلاوي..

لا يمكن أن ينكر الاسم لكن قبل أن ينطق حرفاً
تقدمت أحلام نحوه كعصفور تحت الأمطار في ليلة
عاصفة يقف.. تقدمت من خلف ظهر زوجها وصوتها تائر
يتهدج خرج متقطعا باكياً يقول:
- ماذا تريد؟! لماذا أنت هنا؟!

بذراعه أوقفها عن التقدم أكثر قائلاً في صوت حاسم:
- تفضل..

في طريقه إلى الدخول لمح بطنها المتكور أمامها
وأرخی عينيه في ألم..

هذا الرجل زوجها.. حين رفع رأسه وعاود النظر إليها
وجدها تبكي وترتجف.. هل تخشى أن يقول شيئاً؟!
كيف ظننا تعرفه وهو وحده من لم يعرفها..
قبل أن يجلس إلى المقعد الذي أشار إليه جبر قال
في سكون:

- اعتذر إن جئت دون موعد.. هاتفك دوماً مغلق
سيدة أحلام.. أنا هنا لأبارك زواجكما ولأستوضح شيئاً
أظن استيضاحه حقاً لي إن لم تمنعي..

أمسك جبر بكف زوجته في قوة وهو يقول:
- للضيف حقوق كثيرة.. هل تشاركنا الطعام أم نشرب
كوباً من الشاي؟!

دون وعي منها سقطت على أحد المقاعد تردد في ألم
من خلف دموعها:

- عن ماذا تريد الاستيضاح.. عن التهمة التي ألصقت
بي أم عن السجن الذي كنت سأزج إليه زوراً وظلماً؟
عن ماذا؟!

كان ياسين يترنح تحت صدى بكائها ورعشتها لكنه
تحدث في هدوء شديد بلسان طبيب يستفسر عن
ممرضة أتمناها وحدث منها ما حدث..

أخبر جبر أنه لا يريد سوى أن يسمع منها كما سمع
وقرأ في الأوراق الرسمية.. أخبره أنه لا يصدق أنها
حطمت درج مكتبه لتسرق هذه النقود..

صاحت أحلام وصاح جبر ولم تهدأ حتى دخل بها إلى
غرفتها وعاد إليه ليجلسا وحيدين لحظات أخبره فيها
الأخير أن أحلام كانت حقًا تحمل مقعدًا صغيرًا بين
يديها خرجت به من العيادة بعد زيارتها له في
المستشفى..

أخبره أنه حتى بعد أن أصبحت زوجته وأمًا لطفله
القادم لا يعلم لماذا فعلت هذا لكنه يؤمن أنها لم تسرق..
لا أدراج كسرت سيدي الطبيب ولا نقود ضبطت معها
وما أخبرك به عمر محض افتراء وكذب..

في هدوء أخبره أن زوجته منذ تلك الليلة التي
قضتها في مركز الشرطة ترتجف إن سمعت كلمة طبيب
فليعذرها ولكن ليثق أنها ليست سارقة..

في كبرياء جريحة رفع رأسه يقول إنه كان يتمنى لو
يذهب إلى زيارته ويسأله عن سر المقعد فربما وحده
يملك الإجابة..

طيب هذا الشاب.. قوي ويحبها..

حقائق لا تقبل النزاع ويتوجب معها احترام مشاعره..
أحلام زوجة ومشروع أم..

نهض ياسين عن مقعده وقال:

- ظننتها أخبرتك بقصة المقعد.. أنا عن قصة النقود
جئت أسأل.. منذ الحادث وأشياء كثيرة تسقط من
ذاكرتي وأذكرها بعد حين.. واثق أنا أني من طلب منها
إخراج المقعد من العيادة لكن أقسم لك بالله إنني لا أذكر

السبب.. أنا حتى لا أذكر إن كانت هناك نقود ليلتها في
مكتبي أم لا..

قبل أن يغلّق جبر دونه الباب تبادل كلاهما نظرة قالت
الكثير..

ما زالت قصة المقعد لم تُحل.. ما قاله ياسين ليس
مقبولاً.. إن كان حقاً هو من طلب منها الخروج بالمقعد
من العيادة فهل تفعل أحلام وهو على فراش في
مستشفى يحتضر؟!

كلاهما في عينيه نظرة جريحة لكن كلاهما احترم
الآخر.

أحدهما فعل لكلماته والآخر لصمته عن الكلام..

مضى ياسين وأغلق جبر دونه الباب واستدار يبتلع
دمعة تجولت في مآقيه وهو ينظر إلى باب غرفتها..

يعلم أنها خلفه تبكي ويعلم أنه لن يتركها تبكي وإن
كانت تستحق البكاء!!

كان ياسين أيضاً على سلالم البيت يبكي في صمت..

خائنه أحلام.. تزوجت لحظة ظنته ميثاً.. لم تكلف
نفسها حتى عناء شهور تقضيها عليه في حداد..

في لحظة عادت إليه صورتها في لقائهما الأول.. أمها
تتعاطى دواءً غالي الثمن.. من أجل هذا جاءت تطلب
العمل لديه ومن أجل هذا ألحقها هو بالعمل.. كيف نسي
هذه القصة وكيف عادت إليه؟!

أحلام تزوجت لتنفق على علاج أمها..

في لحظة أخرى ظهرت أمام عينيه صورة مكتبه في تلك الليلة ورأى وجهها وهي تغلق الدرج وتضع المفتاح في جيبها.. الدرج خاوٍ ولا نقود فيه والمفاتيح معها دوماً..

مَن كسر الدرج إذن؟!

هو عمر .. لا سواه..

هو مَن أراد سرقة وألصق بها التهمة..

ياسين يعلم أن أحلام لا تسرق..

قلبه أصدر الحكم.. لا هي سارقة ولا هي خائنة لكنها

الآن محرمة عليه..

حرمة زواجها أقسى من الخيانة والسرقة!!

حب «العجائز» دوماً أفضل..

مع اللحم المشدود أنت في مأزق دائم..

الصبية تريد هدايا وقبلات طويلة وزيارات منزلية
تحمل فيها صحون الحلوى وعلب المجوهرات لتحبك
أمها ويطمئن إليك أبوها..

مع امرأة كناهه يكفيها كثيرًا أن تضع ذراعيها في
ذراعي شاب كلما نظرت إلى شعر رأسه الخالي من
الشيب تزهو روحها سعادة وفخرًا..

معها ليس مضطرًا إلى الكثير حتى القبلات أنفاسها لا
تحتمل أن تطول كثيرًا..

كان لقاءها بالأمس رائعًا.. بذاك الثوب المزركش الذي
أعلنت بارتدائه خروجها من حدادها على زوجها، كانت
أجمل..

ليست سهلة ولا مندفعة.. لم يرها يومًا تعرض أن
تدفع ثمن عشاءهما رغم إصرارها على أن يكون دوماً
في أكثر الأماكن غلوًا وبذخًا..

فاضل ليس ثريًا ليتحمل كل هذه النفقات لكنه
يربدها..

يعلم أن حتى والديه يظنانه ينصب لها شركًا لكنه بين
ذراعيها يهرب من كل شرك الفتيات الصغيرات اللاتي

يلتقيهن في محيط عائلته أو عمله بالمستوصف الذي
يعمل به..

يظنون الطبيب ثريًا لمجرد كونه طبيبًا.. يظنون أن
ثروة كبيرة تُمنح له مع شهادة التخرج في كلية الطب
ولا يعلمون أنه حين يتخرج
لا يجد مكانًا يعمل فيه، وإن وجد فما يحصل عليه من
أجر قد يساوي ما يحصل عليه حامل شهادات الدبلوم..
أحب مرة وعلم أن الحب طريقه مسدود.. لقلبه عيون
ربما تكونت من دراسته في قصر العيني..
يحب ناهد..

يحب أناقتها وتسريحة شعرها وعطرها ويعلم أنه إن
أكمل طريقه مع «يُسر» فتاته ما استطاع يومًا أن يراها
في ثياب كتياب ناهد إلا بعد أن تتجاوز الستين من
العمر، وقد لا تبدو عندها في بهاء ناهد وطلتها..

الكفاح والحرمان كان سيضنيها.. الخوف والألم معه
في الرحلة كانا سيطفئان في عينيها البريق الذي ما زال
يشتعل في عيني ناهد حتى بعد تجاوزها الستين من
العمر..

يريد أن يتفرغ لدراسته.. لا خوف من فواتير ولا
ترقب لأطفال
ولا هموم..

هي امرأة تريده دومًا سعيدًا وشابًا وهو رجل يريد أن
يستمتع بكل ما لديها وما تقدمه له..

قبل أصابعها أصبغا تلو الآخر وهي تؤكد عليه الذهاب
إلى تناول العشاء في بيتها ولقاء ولدها..
ما الفرق؟!

يوم خطب يسر ذهب وجلس تحت المنظار أمام
والديها.. لم يكونا من الأثرياء لكنهما كجميع الحمقى..
يظنان رجلاً يخطب فتاتهما هو فارس يحملها
ويحملهما إلى عالم آخر ما عرفا بكفاحهما أن يقتحماه..
- هل تملك بيتًا يا فاضل؟!

- لماذا تظن أن ابنتنا ترضى بالحياة مع والديك في
شقة العباسية القديمة؟!

تعب من الأسئلة وماتت فرحته على أعتاب الأرقام
وقوائم المستلزمات..

حاولت أمه كثيرًا أن تسهل له الأمور وحاول والده
كثيرًا أن يمنحه كل ما يستطيع لكن ما كان والدا يسر
يريدانه كان أكبر مما هو وعائلته بأكملها يستطيعون
تقديمه..

ترك يسر وهي تبكي على ذراعيه تتوسل إليه ألا
يتركها حين أعلن أنه ينسحب من مشروع الزواج ذاك،
طارده والدها يعلن استعداده للتفاوض والتنازل عن
كثير مما طلب لكن فاضل شعر عندها بالزهد في القصة
بأكملها..

ما زال يحبها.. ما زال بعد أربعة أعوام يتمنى لو
يعرف شيئًا عن أخبارها، لكنه في كل يوم يؤمن أن حب
الصبايا لا يجلب إلا التعاسة والفشل..

أنهى رسالة الماجستير بعد فراقها وادخر مبلغًا من
المال بعد أن خلع محبس الخطوبة ذلك..

لا هدايا ولا مناسبات أو «مواسم» كما يسميها أهلها..

يعلم أنه ينفق كل ما ادخره مع ناهد لكنه سعيد..

هو ينفق وهي ممتنة.. ينفق ويعلم أن ما ينفقه
سيعود إليه.. ستنعيده في صورة هدية أو حتى على
الأقل إعفاء من أحد تلك الواجبات الكثيرة التي كانت
الحبيبة تطارده بها..

الخميس يحمل صحنًا من الحلوى ويعيد ذات المشهد
القديم.. سيخطبها من وحيدها لكنه يعلم أنه مقبول.. لن
يجلس تحت المجهر كفأر التجارب الذي جلس يومًا
تتفحصه عائلة يسر..

الخميس يجلس فاضل السيد والثقة تكسو أوصاله..
هو مقبول ولو كره الكارهون..

حتى إن كان ياسين وحيد العروس يرفضه ولا يقر
زواج أمه بشاب في عمر ولدها تقريبًا لن ينبس بحرف..

حب العجائز أجمل وأكثر بهاءً، حتى أمه لن تشعر
بالغيرة من شابة صغيرة تنافسها حب ولدها..

سيحيا في هدوء ويعمل في هدوء..

لا يضيره أبدًا أنها عجوز.. يثق أنها ستبذل أضعاف
أضعاف جهد أي صغيرة لإرضائه..

ستهتم بجمالها أكثر.. ستتجمل أكثر وإن لم تفعل لا
ضير.. كل النساء في الظلام سواء!!

هل كرهته حقًا عندما رآته؟!

لماذا شعرت في لحظة أنها تريد أن تنشب أظافرها

في عنقه

ولا تعود بهم إلا محملين بقطع من لحمه ودمه..

لماذا كان ينظر إلى بطنها المكور أمامها.. هل أحصى

بعين الطبيب شهور حملها.. هل علم أن ما تحمله في

أحشائها منه.. وهل تركها بعد هذا ومضى؟!

أي فأر أسلمته روحها وقلبها..

ماذا كانت تريده أن يفعل؟! هل تمنى أن يصرخ في

وجه زوجها يخبره أنه والد جنينها؟! وهل كان ياسين

عندها إن فعل يصبح رجلاً يستحق الاحترام؟!

كل المشاعر تتلاطم في روحها منذ دخل البيت

وخرج منه..

كالمجنونة بل باتت حقًا مجنونة تصرخ وتبكي وتلطم

وجهها كلما خرج جبر إلى عمله وتتكور كمتهم ينتظر

إعلان ثبوت الجريمة عليه كلما عاد إلى البيت وسألها

سؤال كل يوم «أحلام.. ما بك؟»

ما الذي ليس بها؟!

لا شيء على الأرض ليس بها.. لا شيء من عالم

الإنس أو حتى الشيطان لم يعد بها..

إن تحسس جبر بطنها ظنته يقيس حجمه.. هي حامل في نهايات الشهر السادس ويظنونها في الرابع.. بطنها ليس كبيرًا لكن إثمها كبير ولا تعرف كيف تتطهر منه..

هل تخبر جبر بالحقيقة؟ هل تذهب إلى ياسين وتعترف له.. ما زالت قطرات من دمائها تهفو إليه..

ما زالت بعد عراق كل صباح وصياحه تستعيد تلك النظرة الكسيرة التي نظر بها إلى بطنها ثم رفع رأسه ليبارك زواجها..

ياسين ليس دنيئًا.. أخبرها زوجها كيف أعلن أنه وحده من طلب منها إخراج المقعد من العيادة.. وحدها تعلم أنه ما فعل يومًا..

ياسين وجبر ضحايا جنونها وغبائها..

رجلان أطاحت هي برجولتهما أرضًا رغم أنها وحدها أشلاء يحاولون جمعها ولا يستطيعون..

ماذا لو كانت إرادة الله أن تلد في الشهر السابع..

ماذا عندها تقول؟!

ولدت طفلًا صحيحًا معافى وهو في شهره الخامس..

شعور كبير يسيطر عليها بأن هذا ما سيحدث..

سيسقط جبر وأمه وأمها..

مزيد من ضحايا خطيئتها.. مزيد من الأشلاء..

تختنق .. لو أن أحدًا ما على هذه الأرض بإمكانها أن
تلقى على مسامعه بالحقيقة لربما خفت هذه الأحمال
التي تجثم على صدرها..

لاحت في رأسها صورة امرأة تحبها لكنها طردت
الفكرة.. لن تفضح نفسها أمام أحد وإن كانت مريم..

يجب أن تنهض عن فراشها وتبدأ رحلة كل يوم..
ستهبط إلى بيت الوالدين وتطهو الطعام وترى أمه
وهي تساعد أمها في حياكة ثياب المولود القادم
وتبتسم وهم يسألون أي الأسماء عليه يطلقون؟!

منذ أيام وضعت يدها على شفتيها تكتمها في عنف
وهي تشعر أن الحروف تكاد تنزلق خارجها..

في لحظة شعرت أنها ستصيح وتقول: «كفاكم
جنونًا.. لئن تحيكون الثياب؟! لئن تعدون الشموع
وعلب الحلوى؟! هو ابن سفاح»..

نعم.. أما قالها شيخ دار الإفتاء..

جبر يعمل وأمها المشلولة تنكفئ على آلة الخياطة
أكثر وعواطف من نقود معاش زوجها تدخر من أجل
دناءة امرأة ظنت أنها يومًا تحتفظ ببذرة ألقاها حبيبها
داخلها في الحرام..

جنينها كذاك المقعد.. كلاهما سرقة وكلاهما فحش..
كما كاد ذلك المقعد أن يزوج بها إلى السجن فلا بد وأن
هذا الجنين سيزج بها إلى الجحيم..

في ألم تحسست بطنها.. في سكون أغمضت عينيها
ورأت ياسين وهو يقبلها..

تشتاقه! نعم تشتاق ياسين..

تمنح نفسها لجبر بكل الحب والترحاب لكنها كفن
يكرم ضيفًا جاء محملاً بالهدايا..

تمنحه جسدها وشفتيها وترقب بعينيها المفتوحتين
استمتاعه بها.. تضع يده على الأماكن التي يحبها وتضع
شفتيها على الأماكن التي يريدها..

تمامًا كما نعد مائدة لعزیز أكرمنا.. لمحسن أنقذنا.. من
قوتنا ونقودنا وجهدنا نطعمه ونريده أن يستمتع بكل
قضمة لكن نحن
لا نتذوق معه شيئًا..

نحن رؤوسنا مشغولة بالاطمئنان على استمتاعه
عرفانًا منا
وتقديرًا له..

مع ياسين .. كان الأمر يختلف..

معه كانت تغيب وهو معها غائب لا إعداد ولا انتقاء..
كل شيء يأتي وحده وكل شيء يأخذهما في غياب
أكبر..

الحب يبلغ ذروته وقمته إن أخذك وغاب بك عن كل
حضور.. كيف تحول ذاك الحب إلى إثم كبير وتحول
المعروف إلى طوق
من نار؟!

كيف وإلى متى تتمزق بهذه الكرة التي في أحشائها
بينهما؟!!

هل تذهب إلى ياسين وتخبره؟!!

أم تجنو على ركبتيها وتعترف لجبر بالحقيقة وترجوه
أن يطلق سراحها..

لم يخسر شيئًا.. سيعود إلى أمه وتعود إليها أمها..

غرفة النوم ستمنحه إياها بل بإمكانها أن تتزوج
ياسين وتترك له البيت كاملاً ولتبقى أمها مع أمه..

سيفهم ويففر ويعيد إليها حريتها..

هو الصدق وإن كان أكثر الطرق ألقًا ووجعًا إلا أنه
دومًا درب الأمان..

بعد أن يعلم زوجها كل شيء تذهب إلى ياسين..

سيمحو عن جبهتها كل الألم الذي نقشته أمه عليها..

قد يتألم جبر قليلاً لكن من أجلها سينسى الألم..

هي أجبن من أن تستطيع إخباره.. تعلم أنه عند
عودته سترخي عينيها وتجلس إلى جواره في سكون
كأنها تستغفر عن كل ما يدور في رأسها الآن..

أحلام تخبر أمها بالحقيقة وتعلم أنها لن تصمت عندها
لحظة..

توحيدة لن ترضى أن ينسب إلى جبر طفل ليس منه..

ستلقي بالكرة في ملعب أمها وتهرب إلى ياسين..

بعنف لطمت رأسها بكلتا يديها..

لو لم تكن حاملاً لكانت الأمور أسهل.. لو أسقطت هذا الجنين لكان الطريق أيسر..

هذا الجنين هو لعنتهم جميعاً.. شيخ الإفتاء كان على حق..

لماذا لم تدخل إلى الطبيب وتتخلص منه؟!

توهمت أنه حلم عمرها.. ظنت أنه طوق نجاتها من الشوق والحرمان..

لو لم يكن بداخل أحشائها هذا الجنين لكان تمرغها على قدمي زوجها أقل وإشفاقها على أمها وخجلها من أمه أقل..

لو مات هذا الجنين الذي ما علمت بوجوده لغاب شبح الذل والعار عن عروقتها..

كيف تمسكت به وأين الآن تهرب منه؟!

جبر يتركها تذهب إلى ياسين وكيف يحيا ويواجه أمه وجيرانه وماذا يقول لهم؟ تنازل عن ولده لزوجته وعشيقها.. أم يعلن أنه ما كان ولده..

بلا وعي لطمت على وجهها ألف لكمة..

إلا العار والشرف..

في مقتل ستضربهم.. إن هرب ياسين بها إلى لندن كما كان يعتزم فمن أين تهرب هي من دمائهم التي تلاحقها..

نسجت شرنقة حول نفسها وأحكمت إغلاقها..
إن مزقت خيوطها أطاحت بكل من أحبها وستروها
صرعى تحت قدميها..
كانت أفكارها تتلاطم ودمعها يزحف في جنون
وانهالت بقبضتيها تضرب بهما بطنها في ألم..
لو أنها أسقطت ثمرة الحرام.. لو أنها فعلت..
كانت تضرب بطنها في قسوة وأفاقت على صرخات
أنين تخرج من بين شفتيها.. تتوجع.. الغافي في
أحشائها يدافع عن نفسه.. حتى من اشتدته بالكرامة
والشرف يؤلمها حفاظًا على كيانه ووجوده..
كان بقاءه حلقًا.. وأصبح وجوده كابوسًا!!
أه لو يعلم الغافي أن حلم اليوم يصبح أحيانًا وحده
كابوس الغدا!

«عملنا أن نخبر الناس بحقائق كبيرة ومفزعة عن أنفسهم قد يتمنون لو لم يعرفوها فكيف لا نصارح بعضنا بحقيقة مشاعرنا ولماذا نَجبن؟!»

تلك كانت كلماتها التي قالتها في هدوء بالأمس حين طرقت بابه لتشرب معه كوب قهوة في مكتبه بعد انتهاء العمليات..

رائعة ألفت.. قوية وعميقة وصادقة..

حين رفع عينيه في ذهول إلى وجهها بعد تلك الجملة أكملت تخبره أنها ليست خجلى من تصريحها بحبه أو رغبتها في الزواج منه لكنها لا تريده أن يخجل منها ويتوارى خلف جمل يقولها على استحياء..

أخبرته في صدق ووضوح عن علاقتها بوالده.. كيف أحبت كليهما.. ترى تردده جليًا أمامها..

«إن نحن ترددنا وفكرنا فهذا يعني أن من الأفضل أن ننسى من ترددنا في قبول الاقتراب منه.. هذا هو الأمر ببساطة.»

جملة أخرى بليغة وقوية ألقته على أذنيه ولم يستطع ألا يغمض عينيه ويقارن بينها وبين أحلام..

ما فائدة المقارنة؟! لكن كيف نقنع قلوبنا أن لا تفعل!!

نهض عن مقعده وتوجه إلى المقعد المقابل لها وجلس أمامها.. أغمض عينيه وقال في ألم:

- ألفت.. أمي ستتزوج شابًا في عمري تقريبًا.. وقعت في هواه وهي ما زالت في شهور العدة.. أنا شبه مريض ونصف مجنون.. أيضًا كان لي قصة مع شابة صغيرة كادت أمي أن تضعها ظلمًا في السجن.. أنت أجمل وأجل من أن أضعك في دربنا، لكن أحتاجك.. أحتاج دفاء هذا الصدق الذي يخرج من حروفك.. أريدك في حياتي وأيامي لكن لا أملك الكثير، حتى مستقبلي ما عاد مباشرًا وأنا بهذه الإصابة اللعينة..

كانت تتابع كلماته بعينيها وكان يتابع عينيها بروحه..

هو بحاجة إلى يد كيدها وعقل كعقلها.. هو بحاجة إلى مخبأ يختبئ فيه من غارات الماضي وأشباحه..

وضع يده على أصابعها في حنان وأكمل:

- أحتاج رفيقًا يكمل معي الدرب.. إن كنت حقًا تقبلين تسعديني، لكن لا أريدك أن تفعلي إكرامًا لوالدي أو تعاطفًا معي..

قاطعته لحظتها تسأل:

- أمك ليست طفلة وعليها أن تتحمل مسئولية اختيارها.. هذا

لا يضيرني في شيء.. كل ما أريد أن أعرفه هو قصة فتاتك!!

كيف تعلقت عيناه بها كأنه ينتظر أن تأخذه على صدرها وتطلب منه أن يفرغ القصة لكنها كعادتها قالت جملة أخرى من جملها العميقة:

- ياسين .. لا أهتم بما كان بينكما أو ما فعلته معها
والدتك.. ما كان كان.. ما هو كائن الآن وحده المهم.. هل
تحبها؟ هل تربدها؟ هل تتمناها؟!

نكس رأسه وأخبرها أنها زوجة وتكاد تصبح أمًا..
أخبرها أنها كأمه في لحظة اختارت ما يسعدها بينما
كان هو بين ذراعي الموت..

أخبرها أنها «كان» الذي ذكرته لكنه يعجز عن عبور
البوابة إلى «ما يكون»..

شيء ما عالق في عنقه من ماضيه.. ليس الحب أو
الشوق إلى فتاته لكنه شيء أعمق وأكبر وإن كان يغمض
عليه فهمه..

يشعر بمسئولية ما تجاه الفتاة.. يشعر بخيط ضعيف
ما زال بينهما منتصبًا رغم انقطاع كل الخيوط..
رفع رأسه وعيناه تدمعان ونظر إليها يسألها عفا إذا
كانت تفهمه؟!

هل تساعد؟ هل تبقى معه رغم كل هذه الأشياء؟
وهل تساعد للوصول إلى الخيط النحيل الذي يشعر أنه
ما زال يربطه بفتاة ما أصبحت له ولن تكون؟

نهضت عن مقعدها ومدت يدها تصافحه وقالت:

- لا تنبش كثيرًا ياسين.. ما فائدة أن تفعل.. إن حتى
أنت تذكرت وأدركت أنها كانت لك زوجة فأني شيء
بإمكانك أن تفعله الآن..

حين يختارون الخروج من حياتنا نحن لا نعيدهم
إلينا بالقوة..

نحن فقط يا صديقي نحترم ما أرادوه ونتعلم كيف
نصنع لنا بعدهم حياة..

غادرت ألفت مكتبه وما غادرت كلماتها رأسه..

لو تنقش الغمامات السوداء هذه عن ذاكرته.. يشعر
أن شيئًا كان بينه وبين أحلام لا يذكره.. شيء لا تريد
هي نفسها أن يذكره..

هل كانت زوجته؟!

يذكرها عارية بين ذراعيه لكن لا يذكر أبدًا أنها كانت
خائفة

ولا ماجنة..

المرأة لا تكون بين ذراعي رجل بتلك الثقة وذاك
الاطمئنان إلا إن كان ما بينهما زواجًا..

هل كانت تخبئ عقد الزواج في ذاك المقعد الذي

خرجت به من العيادة؟!

لا شيء آخر يجده يبرر لها أن تأخذ مقعدًا صغيرًا
وتركض به وهو يصارع الموت.. لكن أما كان من الأسهل
أن تستخرج الورقة من المقعد حتى إن مزقته وتضعها
في طيات ثيابها وتمضي..

لو أنه فقط يستعيد الصور كاملة دون هذه البقع

السوداء الداكنة التي تشوهها..

فلينس القصة، حتى إن كانت أحلام يومًا زوجته،
فهي زوجة لرجل آخر الآن.. هو أمام الله يطلقها إن
كانت..

لمعت عينا ياسين كأن شهبًا من السماء سقطت
عليهما..

ماذا لو كانت حقًا زوجته وكانت منه تحمل ما رآه في
أحشائها..

بدأت قصة تكتمل خيوطها في رأسه.. أحلام زوجته
حين علمت أنها تحمل منه طفلًا وحين ساقها عمر إلى
مركز الشرطة أخذ منها عقد الزواج الذي كان بحوزتها
وبالاتفاق مع أمه تم تدبير قصة السرقة لها..

هذا الطفل الذي رآه مكورًا في بطنها هو منه..

هذا الجنون والسياح الذي قابلته به هو الدليل.. كفها
التي وضعتها على بطنها وهي تنقل عينيها بينه وبين
زوجها دليل آخر.. هذا الزوج الطيب وحده يعلم
الحقيقة لهذا حملها إلى غرفتها وعاد إليه وتلك
الابتسامة الجريحة على وجهه يسأله عن سر المقعد..

لكنه ليس واثقًا من قصته.. هذه البقع السوداء
الداكنة في رأسه لا تدعه يرى أحلام وهي توقع عقد
زواج منه سواء كان رسميًا أو عرفيًا..

هذه الدوائر السوداء تخفي عنه حقيقة القصة لكنه
يجزم أنها ليست علاقة جسدية بين طبيب وممرضة..

هي أنقى وأطهر..

«لا تنبش كثيرًا ياسين»!!

قالتها أفت وهي على حق.. لكن هل كل الكلمات
الحكيمة الصادقة هي كلمات بإمكاننا أن نتبعها!!
نار تضطرم في ضلوعه منذ تراءت له القصة كما
يظنها..

يدرك ألا طريق أمامه نحو اليقين بهذه الذاكرة
المعاقة وهذا الجسد المرتعش..
الحقيقة الكاملة في صدر أحلام وربما في صدر
زوجها أيضًا..

الطريق إلى صديهما مغلق والنبش فيه قد يقتلهم
جميعًا ويقتل أفت معهم..
لن يشعل نازًا لا يعرف كيف يطفئها.. قد تكون قصته
خيالًا واهمًا وعندها تُحصد روح أحلام مرتين..
يجب أن يبتعد.. الحقائق تكشف عن نفسها إن طال
الزمن أو قصر..

ستأتيه الحقيقة حتى بابه.. لن ينبش أبدًا، ولكن هل
حقًا يستطيع؟!

ترتجف في جنون من غيظها وألمها..

لم لم تصفعه على وجهه ألف صفة بل ليتها بصقت
في عينيه..

الأحمق!! ليتها طردته خارج بيتها.. لا تصدق أبدًا أنه
بعد كل ما قال لم تنبس حرفًا بل بقيت تحديق في وجهه
وتستعيد حروفه حتى حين كان ينهض ويغادر بيت
عاصم..

بيت عاصم!!

هكذا بدأ حوارهم معها.. هبطت إلى لقائه من غرفة
نومها بعد أن أخبرتها صفية بأن الدكتور سامي أسعد
في انتظارها بصالون البيت..

ارتدت ثيابها على عجل وبرأسها ألف فكرة مجنونة
تفسر لها حضوره دون موعد أو حتى مكالمة هاتفية..

هو صديق عاصم وصديقها بل وأقرب الأصدقاء
إليهما معًا..

حين صافحته وجلست أمامه تنظر إليه في قلق لم
يطل صمته بل رفع عينيه في قسوة كأنه يفرض أمرا
عسكريًا وقال:

- لن تفعلها في بيت عاصم يا ناهد!!

رغم أن صوته كان هادئًا إلا أنه كان هادئًا غاضبًا..

زاغت عيناها وقبل أن تسأله أخبرها أنه لا يصدق أنها
وفي عمرها هذا وبعد ذلك العمر الذي قضته مع رجل
كزوجها تأتي بطفل، بل قزم ممسوخ إلى بيته وفراشه..
حاولت أن ترفع رأسها وتصرخ فيه بل أن تطلب منه
مغادرة البيت..

البيت ليس ملكاً لعاصم.. هو باسمها وحدها، حتى
وحيدة ليس شريكاً فيه..

سامي قرأ ما في رأسها وأكمل يخبرها أن عاصم
سجل البيت باسمها لأنه توقع كل شيء إلا الجنون..

أين كبرياؤها؟! أين غرورها الذي جعلها تسحق تلك
الممرضة الصغيرة يوم جاءت تبكي في ردهة
المستشفى عشقها لوحيدها الذي كان يموت..

أين ذهب ذلك الغرور الذي جعلها تطرد شابة تحب
رجلاً من عمرها وإن لم يكن من دائرتها لتسلم نفسها إلى
طفل مثل فاضل؟!

حاولت تلك اللحظة أن تفتح شفيتها وتصيح تخبره
أن فاضل ليس طفلاً وليس كتلك الضئيلة ذات الملابس
الرثة..

فاضل طبيب في طريقه للحصول على الدكتوراه..
هو ابن عائلة تملك بيتاً وسيارة ورصيماً يكفي لأن
يخرج بها إلى أماكن باذخة..

اللعين كأنه يقرأ كل حرف يدور في ذهنها..

نهض عن مقعده واقترب منها يقول:

- ناهد.. سيصيبك الجنون معه.. هذه الأصابع التي
تضعينها على وجهك ستضطرين لوضعها حتى وأنت
نائمة.. يوماً ستصادفين من يخطئ ويدعوه ولدك..
فاضل كان عاشقاً لفتاة من عمره.. الفقر فرّق بينهما..
لهذا جاءك.. أفيقي، ماذا تفعلين بولدك وبعاصم رحمه
الله؟!

أمسك بكتفيها وأخذ يهزهما في قوة وهو يردد في
ثبات:

- أفيقي يرحمك الله..

أين ذهبت صلافتها وقوتها؟ أين غرق سيل كلماتها
الحاضرة دوماً على لسانها لقنص كل من يقترب منها..
نظرت إليه وذراعاها ما زالا على كتفيها وقالت كأنها
تئن:

- يحبني وأنا أحبه..

عاد سامي يهزها وهو يقول:

- تلك الممرضة كانت تحب ولدك ومن المؤكد أنه كان
يحبها..

لم أحادثك في قصتهما.. لم أحاول أن أثنيك عن
موقفك حتى بعد أن عاد ياسين إلى الحياة برحمة من
الله.. هل تعلمين لماذا لم أفعل.. ناهد؟!

كم مرة ردد اسمها؟ كم مرة كان يهز جسدها في قوة
بين ذراعيه؟ لا تذكر.. لكنه توقف حين رفعت عينيها
إلى عينيه ليخبرها أنه لم يفعل لأنه يعلم أن قصتهما
ختامها الضياع..

ضياع الشباب مقبول.. العمر والعافية والإرادة دوماً
أمامهم لتعويض الأخطاء لكن هي صرح إن سقط لن
يقف يوماً على قدمه من جديد..

عندها فقط استعادت بعضاً من قوتها.. ليست صرخاً
هي الكلمة التي يعينها.. ما يعنيه أنها «عجوز» وهذه
الكلمة تشعل في ضلوع الأنتى نازاً وتدق طبولاً وتعلن
حرباً..

نفضت ذراعه في قوة وأخذت تصيح تخبره أنها
خرمت مع صديقه كثيراً من أشياء يمنحها إياها فاضل
فلم ترفض.. أن يتركها الله على قيد الحياة فهذا يعني
أنه يريد أن تحيا وتستمتع.. فاضل صغير؟ ومتى كان
عمر الرجال يقاس بالأعوام يا سامي؟!

صديقك المرحوم هو من كان طفلاً يداعب الخدم
والسائقين.. صديقك كان مراهقاً يتنهد لقصص غرام
وحيده وممرضة عيادته..

أليس من حقها أن تكون طفلة هي الأخرى وترتبط
بشباب يحيي فيها ما قتله «المرحوم»..

ما يقتلها الآن هو شعورها أنه كان في كلماته أقوى
منها وأنها في صمتها أوهى منه..

ربما كان عنصر المفاجأة الذي أربكها وأضعف
منطقها..

لكن أي مفاجأة على الأرض كتلك التي فجرها بعد
كلماتها الأخيرة..

المجنون عاد يقترب منها ويسألها في ألم:

- هل تريدان الزواج؟!

في البداية لم تفهم، لكنه عاد يكرر عليها السؤال،
وحين أخبرته أنها تريد الزواج قال:

- تزوجيني أنا.. نعم أنا طبيب.. من عمرك.. ثري.. لن
أسرق بيت عاصم أو قروش.. أنا أرملة، اتركي فاضل
ولنتزوج..

شيء ما تحرك في عروقها تلك اللحظة.. شيء ما رفع
رأس أنوثتها وغرورها عاليًا من جديد..

ابتسمت رغم رجفتها وغضبها وقطرات دمعها..

نظرت إليه وقالت:

- هل تحبني سامي؟!

ذاك المجنون كصديقه.. ذاك الدنيا كولدها اقترب
منها وعيناه تدمعان قائلاً:

- بل أحب صديقي، وهو أمر لو تعلمين عظيم!!

هناك بشر سهل أن تتنبأ بوقع خطواتهم على درب الحياة، بينما هناك آخرون قدرهم أن تتغير أقدارهم ليشهدوا حياة ما مرت بذهنهم يوماً صورها وإن كانوا من المجانين أو الرواة..

لم يكن يعلم أن ناهد تبحث عن الحب لتلقي بنفسها بين ذراعي طفل كفاضل، وكان يظن أن أحلام لا تريد سوى الحب فإذا بها تخلت عنه في لحظة..

لكن هل هذه وحدها القصة؟! أبداً!!

القصة الكبيرة التي ما كان يظن يوماً أن يصبح بين طيات صفحاتها هي أن يترك بيت والده ليحيا في العيادة..

أحضر كل ملابسه وترك للعروس غرفته خاوية.. هي حتى لم ترجه كثيرًا ليبقى معها..

في هدوء سألته إن كان واثقًا من قراره وفي هدوء أجابها أنه واثق من مشاعره..

هي عروس وهو ابن الراحل الذي يعجز عن رؤية شاب صغير يغفو بجوارها على فراشه..

في حيرة قالت إنه وافق على زواجها ولم يعترض وفي مرارة أجابها أنه ما زال لا يعترض لكن هناك فرقًا بين أن تعترض وأن تقر ما لم تعترض عليه..

عاجز عن قبول الوضع الذي اختارته لكنه ليس
معتراضاً عليه..

السماء حين تنهي دور شخص من أيامك تفاجئك
دوماً بشخص آخر يظهر ليكمل الدور..

غابت أحلام وجاءت ألفت..

ألفت جاءت معه إلى العيادة عشرات المرات.. أشرفت
معه على نقل غرفة الكشف إلى الغرفة الخارجية في
الصالة.. حددت الأماكن التي يوضع فيها سريره وخزانة
ملابسه في غرفة الكشف القديمة لتصبح غرفة نومه..

كان يتابعها في هدوء وهي تخبر العمال أين يضعون
كل شيء وإلى أين يحملون باقي الأشياء..

حين طلبت من أحدهم أن يحمل مقعد ال(Lazy boy)
إلى صالة البيت أمره بوضعه في غرفة نومه الجديدة
مقابلاً للشرفة المطلة على نيل مصر القديمة..

معها وقف يفرغ حقائب ملابسه كأنها رجل أو صديق
يتحرك في أرجاء العيادة.. في لحظات كان يتمنى لو
يحتضنها ويخبرها أنه حقاً شاكر لكل ما تفعله من أجله،
لكن دوماً يراها تتحرك كأن شيئاً لم يجمعهما أو اعترافاً
بالحب لم تسكبه يوماً في أذنيه..

حين أخبرها عن رغبته في السفر إلى بريطانيا
لاستئناف رسالته والحياة فيها لم تهتز عينها بل نظرت
إليه لحظة طويلة ثم أخبرته أن يتريث..

لن يترك مصر لأن أمه تزوجت.. لن يترك وطنه لأن
حبيبته أيضًا فعلتها.. يتركها فقط إن وجد حياته
الجديدة مستحيلة..

«جرب هذه الحياة ياسين ثم خذ قرارك»..

ربما كانت على حق.. يريد العودة إلى بريطانيا لابتعد
عن شبح رؤية أمه وزوجها الجديد معها..
يريد أن يترك البلاد هربًا من أن يرى أحلام جارته
وهي تخطو إلى جوار زوجها وتحمل على ذراعيها
طفلها..

كلها أشياء تخبره بهزائم كبيرة لذكائه..

لا عرف الأم ولا فهم الحبيبة..

في هدوء ألقى بجسده على المقعد الذي كان يضمه
هو وأحلام وأرخی أصابعه ليضغط على مفتاح تشغيله..
أغمض عينيه وهو يشعر بدغدغات المقعد له..

خذلته أمه كما خذلته أحلام لكن الله أرسل له ألفت
تخبره أن الداء امرأة والدواء أيضًا امرأة..

لم يكن والده يملك شيئًا.. بيت المعادي باسم والدته،
العيادة باسمه..

كل ثروته مليون جنيه.. أخذت أمه نصيبها منها..

يعلم أن له في البيت نصيبًا لكن تلك كانت مشيئة
والده أن يكتب باسم زوجته البيت..

زفاف أمه بعد أسبوع..

جنون المرأة لا يقف أمامه جنون ولا يدرك مداه عقل
إنسان..

أرعى قدمه عن مقعده في ضجر وهو يسأل.. هل
يكتشف في ألفت يوماً غير ما يراها عليه؟!

لكل إنسان وجوه لا يظنها هو نفسه قائمة بداخله
حتى لحظة ظهورها..

لم يكن يعلم أن بداخله هذا الطفل الذي ألقى كل ما
في جعبته بين كفي ألفت ووقف يتبعها كأنها أمه..

أمه؟! لماذا يشعر أنها ما عادت كذلك؟! كأنها ماتت مع
والده.. كأن العائلة بأكملها رحلت وجاءت ناهد جديدة
وياسين آخر هو في بداية تعارفه عليه..

أفاقه صوت جرس الباب وبدأ يخطو وهو يبتسم..

جاءت حسب الموعد وكما طلب منها..

حين فتح وجدها تحمل بعض الصناديق الكرتونية
بين يديها وأسرع يحملها لتدخل واستدار يقول معتذراً:

- ألفت.. نسيت إعداد السلطة.. دقائق وأفعل..

أحضرت له طعام الغداء الذي أعدته في بيتها لتحتفل
معه بافتتاح العيادة في ثوبها الجديد..

في هدوء توجهت خلفه إلى المطبخ قائلة:

- نحن نعتذر فقط عندما يصبح من المستحيل تدارك

الخطأ..

ما زال بإمكانك أن تعذها بينما أقوم أنا بتسخين
الطعام..

تسمر مكانه لحظة وهو يفكر في كلماتها وكأنها
فهت.. استدارت تواجهه بعينيها وقالت:

- تُعفي نفسك من قول مؤلم وهو الاعتذار ولا تحرمننا
من فعل طيب وهو الطعام.. الاعتذار ليس حلاً بل
تصريحاً بعدم وجود حل.. هل توافقني؟!

سقط جفناه أحدهما على الآخر وجذبها نحو صدره
في سكون.. ليس في عناقه لها شهوة أو حب.. في
عناقه شيء أكبر وأجل.. اعتراف باحترام كبير.. إعلان
عن امتنان وسكينة لم يعرفهما يوماً حتى بين ذراعي
أحلام..

حين انتهى من إعداد ما ظن أنه لن يعده كانت ألفت
قد وضعت صحنى الطعام على مائدة صغيرة وضعها
في ركن المطبخ، وفي اللحظة التي رفع صحن السلطة
الذي أعده وتوجه به نحوها باغتته إحدى نوبات
الرعدة التي تضربه دون إنذار.. كل جسده كان يرتجف
كعصفور مذبوح..

كانت تجلس على مقعدها في مواجهة نافذة المطبخ
لكنها انتفضت على صوت ارتطام الصحن بالأرض حين
سقط من بين يديه..

ركضت نحوه وهو في مكانه يراقب نفسه كما لم تكن
منذ ثوان قليلة..

كلاهما يعلم أن الأمر سينتهي في دقائق قليلة، لكن كليهما كان خائفًا مذعورًا..

حاولت أن تخطو به فوق قطع الخضراوات الصغيرة المتناثرة على الأرض، لكن لم تكد أن تفعل حتى هدا جسده بين ذراعيها..

غابت نوبة الرعدة كما حضرت دون سابق إنذار..

ابتسمت كأنها تواسيه لكنه لم يز ابتسامتها..

كان مشغولًا بالنظر إلى الفوضى التي أحدثها..

قطع الزجاج وشرائح الخضراوات.. كل شيء يسقط من بين يديه قطعًا صغيرة في لحظة، ورفع عينيه إليها وقبل أن يقول كلمة وضعت ألفت كفيها حول وجهه وقالت:

- أنت بخير .. تباعدت النوبات وستتبعك أكثر حتى تختفي.. افعل كل شيء وفكر في كل شيء إلا أن تحزن على نفسك.. أنت بخير ياسين.. بخير..

كأنه كان يكذب أو يؤدي دورًا تمثيليًا كل شيء فيه هدا وعاد إلى قوته..

ضمها إلى صدره وقال:

- سأفعل شيئين أيتها الجميلة.. سأحبك وسأعد صحنًا آخر عوضًا عن الذي ضاع وانكسر.. هذا ما علمتني إياه!!

أحلام.. لا أحد أبدًا يريد أو يختار أن تنقلب أيامه
رأسًا على عقب..

لا أحد أبدًا يريد أن يغفو على وسادته في حال ثم
يصبح في ألف حال آخر..

لم يكن ذاك الحادث من اختياري..

لم يكن أبدًا جسدك غاية أو هدفًا لكنه كان عندي
وسيلة ليعبر بها ذاك الحب عن نفسه بعد عجز كل
الوسائل الأخرى!!

لم أكن أيضًا أتوقع أن تسلميه إلى رجل آخر بتلك
السرعة لاحتمال موتي، بل حتى ولا لموتي ذاته..

لا ألومك حبيبتي.. يبدو أن النساء جميعهن يفعلن..

أمي وبعد حياة دامت أكثر من ربع قرن مع ذاك
العلاق تزوجت قزما منذ أيام..

أين أنا منه لتنتظري شهورًا أو أسابيع..

أنا أيضًا أتزوج بعد أسابيع!

خائف أنا يا أحلام..

هل تذكرين ما كنت أردده أحيانًا بأن المرأة كائن
عبقري الجبروت..

وكيف لا يكون بعد آلام المخاض التي تعود بعدها
لحمل جنين آخر بين أحشائها..

كيف لا تكون بقوة عملاق وجبروته؟!

خائف من ألفت.. خائف من امرأة تتزوج رجلاً له
نصف ذاكرة ونصف جسد ونصف قلب..

ما عساها بي تفعل؟!

امراتان قبلها ذبحتاني بعد أن كنت في أعينهما كل
الرجال..

إن كانت كراهية أُمي لوالدي تبرر لها ما فعلت..

إن كان تشبثها بالأمل والحياة يبرر لها ما فعلت..

أخبريني يا أحلام أي شيء دفعك لأن تفعلي بي ما
فعلت!!

أعلم أنك زوجة واحترم هذا فوق ما تعلمين..

أنا فقط أستجديك تفسيرًا ينقذ ما هو آتٍ وذكرى
ما كان..

ألف قصة سوداء يغزلها رأسي..

لا أريد أن أنقاد خلف إحداهن..

اكتبي لي.. اكتبي لي تفسيرًا أو تبريرًا إن كنت
تجدين!!

اسمحي لي بقاء واحد.. دقائق أحلام.. علي أجد
في عينيك ما يهديني إلى الصواب..

ألا أستحق عندك دقائق؟!

لم تلد في الشهر الخامس لكنها ماتت وتموت كل يوم
ألف مرة..

إن شعرت بحركة الجنين شهقت في خوف.. إن
شعرت بتقلصات في رحمها اختنقت حتى تكاد تشعر أن
روحها ترقص أمام عينيها..

هي الآن في الشهر السابع بل تجاوزته بأكثر من
أسبوع أي إنها تجاوزت حدود الشهر التاسع..
ستلد في أي يوم وفي أي لحظة..

تنظر إلى جبر كل صباح في خوف كأنها تسأل هل
يصدق أن طفلها وليد سبعة شهور..

تنظر إلى أمها وأمه في استجداء كلما منعوها عن
الانحناء لمسح الأرض أو طهو الطعام كأنها تريد أن تُذل
لهم أكثر وتمنحهم فوق ما تستطيع عليهم يغفروا
ويصدقوا ولادتها الوشيكة دون ارتياب..

تتمزق.. تضع يدها على بطنها كلما اختلت بنفسها
وتبكي في جنون..

ما عاد فيها شيء.. أصبحت أكثر نحولاً من قبل
حملها.. لا شيء في جسدها سوى هذا البطن الذي لشدة
نحوله لا تظن عمر ساكنه يتجاوز بضعة أسابيع..

وجهها ما عاد فيه سوى هذين الثقبين الواسعين
الذين تغلقهما ليلاً وتطلق أنهارهما بعد خروج جبر

وحتى نزولها إليهم أو صعود عواطف إليها إن تأخرت..
ليس البكاء وحده ما تفعله كل صباح.. ليس حديثها
إلى جنينها ما يؤخرها عنهم أحياناً..
رسالته التي تقرأها كل يوم بعد خروج جبر..
ما عاد بها حاجة لقراءتها.. ما عاد بها حاجة أبداً
لاستخراج شريحة هاتفها واستبدالها بالقديمة..
أصبحت تحفظ كلماتها وحروفها عن ظهر قلب..
أه يا رسائل تأتينا لتذبحنا ووجدنا من نصلي للسماء
انتظاراً لها..

ذاك الصباح وضعت شريحتها القديمة كما اعتادت أن
تفعل بعد خروج جبر إلى عمله..
وضعتها ووضعت يدها على بطنها وأخذت تتمتم
تخبره أن ياسين حادتها كثيراً وأنها في لحظة وبعد أن
يعمل الهاتف ستعيد عليه التواريخ والساعات التي فعل
فيها..

وحده هذا الجنين يعرف قصتها.. وحده يعرف تمزقها
بين أب لن يعرفه وبين أب أصبحت تتمنى لو حقاً كان
والده..

تخشى أحياناً أن يسألها جنينها عندما يكبر عن
ياسين من كثرة ما تردد اسمه عليه لكن من قال إنها لا
تتبع اسمه باسم جبر..

حتى عندما وجدت الرسالة على الهاتف وبعد أن
قرأتها أول مرة بكت وهي تقول: «سامحني يا جبر»،
رغم أنها تمننت لو تطلب من ياسين أن يفعل..

منذ ذاك الصباح وهي تصارع قدميها وتسلسل روحها
خشية أن تذهب إليه..

منذ جاء إلى بيتها وهي تمنع نفسها عن لقائه لكن
كيف تفعل وهو يستجديها شرخاً وتبريراً..

لماذا لا تذهب إليه؟ بل لماذا حتى لا تحدثه من هذا
الرقم؟!

من حقه عليها أن يعلم أنها ما باعتته بالسهولة التي
يظنها..

من حق شرفها عليها أن تعلمه أن جسدها ليس
رخيضاً عندها لتمنحه إلى رجل لمجرد غياب الآخر..

من حق تربية أمها عليها أن تقسم له إنها لم تسرق
وإن المقعد الصغير الذي حملته وهربت به كان لأنها
تذوب فيه عشقاً، لكن إن قالت شيئاً من هذا يسألها لماذا
إذن؟!

لماذا إذن يا أحلام؟!

لأنها حمقاء ما اكتفت من درس المقعد..

لأنها غبية لم تدرك أن شيئاً من رائحته أرادت
الاحتفاظ بها كاد يزوج بها إلى السجن.. لم تفهم.. لم
تتعلم..

أنجاه الله وبعده جبر من قصة المقعد فرمت بنفسها
في قصة الحمل..

لو فقط تخلصت منه.. لو تخلصت من شيء من
رائحته لربما استطاعت الفوز به هو نفسه من جديد..
هناك أشياء إن ضاعت يجب أن نلقي خلفها بكل ما له
بها صلة وإلا بقيت هي ونضيع نحن بعدها..

لا يجب أبدًا أن نحتفظ بالفتات والبقايا لو انتهينا من
تناول طعام أحببناه.. البقايا لا تُسمن ولا تُغني من
جوع.. بل إن احتفظنا بها قد تصبح في لحظة سُماً قاتلاً
لا يُبقي ولا يذرا!!

تكويها الرسالة في ضلوعها وتتلوى من كلماتها ولا
تهداً أبدًا حتى يخرج زوجها في الصباح التالي لتعود
وتقرأها من جديد..

لو يعلم ياسين كم تتمنى لقاءه، ولو يعلم جبر كم
تتمنى إسعاده..

لماذا يركلها ولده كثيرًا هذا الصباح؟!

رفعت وجهها في زعر.. لماذا تشعر أن جنينها هو ولد
جبر رغم يقينها أنه من ياسين..

ربما لأنها تشعر أنها هي نفسها زوجة وعاشقة لهما معًا
وإن كان أحدهما عشقته رغماً عنها والآخر بصوت
ضميرها وعقلها..

لن تلقى ياسين إكرامًا لجبر، لكنها ستبقى تتمنى لو
تلقاه لحظة أو دقيقة..

في اللحظة التي مدت فيها يدها لتخرج شريحة
هاتفها وتستبدلها بالأخرى باغتتها طرقات متوالية كأنها
نعيق البوم..

انقبضت روحها وركضت إلى الباب بعد أن ألقنت
بهاتفها على فراشها لتجد توحيدة تلهث وهي تصيح:
- جبر في الطريق.. لماذا هاتفك مغلق يا أحلام لماذا؟
قبل أن تعتذر أو تفسر أمسكت عواطف بيدها
وجذبت خلفها باب البيت تبكي قائلة:
- أسرع.. قد تدركيها.. أمك تحتضر!!

أشياء كثيرة تظهر عند الموت.. أشياء غائبة تنكشف
وأمر تخلع عن أعيننا نقابًا أسود لا نراه إلا لحظة
سقوطه..

لم تكن تعلم أبدًا أن الموت له هذه الهيئة وهذا
الوقار..

حين دخلت على أمها تلهت من ركضها على درجات
السلام خلف عواطف التي كانت تتعثر بشل ساقها
وجدتها على فراشها هادئة ساكنة.. على وجهها طيف
ابتسامة..

تقدمت تناديهما لكن عواطف مدت كفها المرتعشة
لتغلق عينيها نصف المفتوحتين وأجهشت بالبكاء..
جلست أحلام القرفصاء على أرض الغرفة الضيقة في
سكون..

كانت تنظر إلى وجه عواطف وهي تبكي في ألم كبير
وعادت تنظر إلى وجه أمها الذي خلا في لحظة من كل
الآلام..

مريضة أمها منذ أعوام، لكن لماذا اختارت هذا
التوقيت للرحيل؟!

أين دموعك يا أحلام؟ أما كانت منذ دقائق تفيض
أنهازا من أجل العشق والشوق؟!
كيف لا تبكي الآن رحيل أمها..

بل رحيل أهلها جميعًا..

ألقت رأسها بين كفيها وابتسمت ابتسامة صغيرة
مريرة..

نحن نبكي الأصدقاء والرجال الذين نحب والأحلام
التي تضيع.. لكن هناك أناس إن غابوا تجف الدموع
ويغيب البكاء..

رحلت توحيدة دون أن ترى أمها وتحمله على
ذراعيها ولو لحظة كما كانت دوماً تدعو له..

رفعت أحلام عينيها تنظر كأنها ترى حقيقة أخرى
يسقط عنها النقاب..

أمها رحلت حتى لا ترى القادم.. حتى لا تحمل بين
ذراعيها طفلاً «ابن حرام» وجنيئاً «سفاخاً»!!

ما زال كفاها تحملان رأسها في صمت سحيق لا تعلم
له سبباً

ولا تجد له تفسيرًا.. سمعت عواطف وكلماتها تتحشرج
بين شفثيها تخبرها أنها دخلت فراشها بعد صلاة الفجر
كعادتها كل يوم وقبل أن تنام طلبت منها توحيدة أن
تري جبر قبل ذهابه إلى العمل.. كانت تبكي وهي تقول
إن كفاً اعتصرت قلبها عندما قالت إنها تشتهي رؤيته..

صاحت عواطف «أحلام هل تسمعينني»!!

تسمعها لكن لا تستطيع أن تنبس بحرف.. تسمعها لكن
تعجز عن تحريك أصبع من أصابعها..

أمها ورفيقة دريها لم تشتت رؤيتها، بل اشتت رؤيتها
زوجها، وهل تلومها؟!

انتفض جسدها تراه واقفاً أمامها وصاحت أمه تقول:

- ماتت.. وكل ما كانت تشتتته رؤيتك..

انكفاً القادم على المكورة أرضاً يضمها بين ذراعيه
متمتمًا بكلمات لا تفهمها.. حتى بين ذراعيه لم تبك،
كانت ساكنة واجمة وفي لحظة قالت دون وعي:

- أين ندفن أمي؟ لا مقابر عندنا ولا أهل.. ليس لي أو
لها سواكم..

قبل أن تخبرها عواطف أنها سثدفن في مقابرهم
وأنها وصيتها القديمة، ومن خلف كتفيه، رمت بعينها
إلى وجه أمها في خجل..

جبر وأمه ظهر وسند في الحياة والموت، بينما تبقى
هي في ظهرهما طعنة خنجر في الحقيقة، وحتى في
الخيال!!

في طريق عودتهم من المقابر، وحين أدخل جبر زوجته إلى جوار أمه في السيارة ليدخل إلى جوار السائق، استدار ينظر إليهما في ألم..

كانت أحلام على سكونها ترمي برأسها على كتف أمه التي ضمتها إلى صدرها..

استدار ينظر إلى النافذة المجاورة له في ألم وسقطت دمعاته دمعة تلو الأخرى..

حين انتهى كل شيء صاحت أمه تخبره أن يصعد إلى بينه ويحضر لزوجته بعض الملابس السوداء.. حاول كثيرًا أن يأخذ أحلام معه لتبدل ملابسها بعيدًا عن السيدات اللاتي احتشد بهن البيت الصغير، لكنها كما هي الآن في زهولها وصمتها غارقة..

صعد وحده يبكي توحيدة.. كان يعلم أنها مريضة وأن موتها منذ أعوام في كل ليلة وارد لكنه تمنى كثيرًا أن تحمل حفيدها على ذراعيها ولو ليلة واحدة..

حين فتح باب البيت ودخل غرفة نومه يبحث في ملابس أحلام سمع رنين هاتفها.. وحين أمسك به بين أصابعه وجد إلى جواره شريحة صغيرة ملقاة، وحين نظر إلى الشاشة وجد اسم ياسين..

كاد أن يجيب لكن للحظة تجمدت أطرافه..

من أين لياسين أن يعرف رقم زوجته ووحده من
اشتراه لها؟ ومن أين للهاتف أن يدق والشريحة
بجواره..

حين سكت الهاتف عن نعيقه لم يستطع أبداً أن يمنع
نفسه أن يتجول بداخله..

دون وعي دق جبر بقبضة يده على نافذة السيارة في
ألم، صاحت أمه من المقعد الخلفي تسأله إن كان بخير؟!
استدار ينظر إليها ووجهه بالدمع مغسول وارتطمت
عيناه بها على صدر أمه..

أسلمت جسدها لياسين الذي أرسل يعاتبها لأنها
أسلمته له..

مذبوح هو وقاتله يموت!!

استدار ينظر إليها من جديد وهي غائبة بعينين
مفتوحتين.. وقفت عيناه طويلاً على بطنها..

كم يتمنى لو يصرخ ويأمر السائق بالتوقف ليخرجها
من على صدر أمه ويمسك بعنقها بين كفيه اللذين دفن
بهما أمها منذ لحظات ويسألها من أيهما هذا الراقد بين
أحشائها.. ولكن كيف يفعل؟!

كيف يفعل وكيف.. كيف لا يفعل؟!

أفاق على صوت السائق يخبره بوصولهم، وحين هبط
يعين أمه على التمرجل عاد يمد يده إليها لتستند على
ذراعه، رآها تعض على شفثيها من الألم، لا أحد منهما

يدرك أن جنينها بدأ يعلن عن خروجه، فكل منهما في
ألمه غارق..

كان وجهها متلوّناً بالألم وكان قلبه من الألم مفطوّرًا..
حين ألقت بنفسها على ذراعها همست في إعياء
تستجديه قائلة:

- جبر.. أريد النوم في فراش أمي!!

عندما تحسست عواطف جبهتها بعد انصراف كل
الزوار والمعزين وجدتها غارقة في عرقها..

حاولت أن توقظها لكن أحلام تظاهرت أنها غارقة في
النوم، وحين نامت عواطف كتمت صيحة ألم كادت
تخرج من بين شفثيها..

تعلم أنها تلد وتعلم أن انقباضات رحمها رغم تباعدها
تقتلها لكنها ترتعد خوفاً من إعلان ما هي فيه..

تتمنى لو تجد جنينها يخرج وحده وهم جميعاً
نائمون..

ألم تخبرها أمها كيف ولدتها وهي تمسح سلالم
البيت..

توحيدة ترقد في قبرها في الليلة الأولى وهي هنا
تكتنم حزنها وخوفها وألمها..

بقيت ساعات تتلوى من الألم والحزن وتضع وسادتها
بين شفثيها تعض عليها من الألم كلما أتاها المخاض، إلا
أن هناك لحظات يتمرد فيها الألم ويصرخ من ظلمنا له
وتكميمنا لشفثيه!!

حين صرخت تلك الصرخة الكبيرة التي عصتها،
انتفضت عواطف من فراشها وأشعلت الضوء لتنظر إليها
وتصيح:

- أنت تلدين يا أحلام!!

تشعر أنها استعادت شبابها ونضارتها وهي بين
ذراعيه..

يرهقها فاضل كل ليلة كأنه يستعرض فحولته أمامها
لكن هي باستعراضاته سعيدة..

تجاريه حتى تكاد أنفاسها تضيع، وتنتظر حتى يغفو
لتنسل من جواره لتناول أدويتها دون أن يراها..

في الصباح يجلس ليتناول إفطاره أمامها وحاجباه
في أعلى جبهته..

لا يتبادل مع الخادمة دعابة ولا يلقي في أذني
السائق تحية..

هي عروس سعيدة باستعادة كل ما أضاعه عاصم
منها..

بالأمس حين كانا يتناولان العشاء في أحد المطاعم
ضحك وهو يميل ويهمس في أذنها أنها ربما كانت
العروس الوحيدة في مصر التي يتزوج ولدها ويقيم
عرسه في الغدا!

جرحتها الدعابة قليلاً.. نظرت ناهد إلى عينيه لحظتها
لتخبره أنها سماجة لكنه كان غارقاً في ضحكته..

أرخت عينيهما وابتسمت في ألم..

رغم أن هذا الشاب فيه كل ما أرادت وتمنت إلا أنه ما
زال عليها أن تغير فيه أشياء كثيرة..

نجحت في ترويض من هو أكبر وأثرى وأعتى منه
ولن تخفق في ترويض طفل هي الأكبر والأثرى
والأعتى..

برأسها أخذت تستعيد أسماء المدعوين إلى حفل
زفاف ياسين ووقفت أمام سامي أسعد..

أطرقت برأسها وهي تسأل هل تراه يأتي إلى زفاف
ولدها حقًا؟ وإن جاء كيف يلقاها ومعها فاضل؟ وكيف
بعد كل ما فعل وقال تراها تلتقاه؟!

كل شيء تم في بساطة تماقا كبساطة ابتسامته
وبساطة إصابته.. لم يعارضها ياسين في شيء ولم
تعارضه هي أيضًا..

أخذها من ذراعها مع باقة زهر كبيرة لزيارة
العروسين..

كلاهما كان متحفظًا في لقائهما مغا.. حين قبلتها أمه
وجلست على أحد مقاعد صالون البيت الكبير بجوار
زوجها الشاب تبادلًا النظرات كأن كلاً منهما تفحص
الأخرى..

لم تكرهها ألفت وأيضًا لم تحبها هي أو زوجها، لكن
الأخير كان أكثر تفاهة وحماسة..

حين ابتسم ياسين يخبرهما أنهما قررا الزواج في
خلال أسبوع نظر إليهما فاضل ثم قال في حماسة إن
الأفراح في العائلات الكبيرة لا تأتي فرادى..

ابتسم ياسين ابتسامة جريحة وهو يقول «ولا
الأحزان أيضًا»!!

تعلم أنه يكره زواج أمه وتعلم أنها تكره ما فعلته
المرأة بل تكاد تجزم أنها ستندم لكنها تحترم موقف
ياسين، وما عادت تعباً لشيء سوى زواجهما..

نهضت عن مقعدها تنظر حولها في بيت والدها..

لم تغير من الأثاث شيئاً سوى غرفة نوم جديدة
اختارها مفا وقماش تنجيد صالونات البيت..

ستحيا في بيت والدها ولن تُطفأ مصابيحه بل
ستزداد إنارة بوجود زوجها معها..

لم يعترض على الحياة معها.. منحها مهراً كبيراً
وأخبرها أن تفعل به ما شاءت.. لا يعنيه أبداً أن تستبدل
بالأثاث آخر جديداً.. لا يعنيه أن تقوم بطلاء الغرف
وتغيير الأرضيات..

يعنيه أن يسكن إليها وأن تصبح رفيقة أيامه.. أخبرها
أن احتياجه لها وثقته فيها أكبر من الحب..

كل شيء حولها أعدته وحدها حتى ثوب عرسها..

ليس عرشاً كبيراً.. سيجتمعان وعشرة مدعوين من
أقرب الأقباء والأصدقاء في رحلة نيلية تم حجزها
بالكامل لهم، ويعودن في الغد إلى هنا زوجاً وزوجة..

كل شيء بسيط، حتى فرحة ياسين بسيطة لا جنون
فيها
ولا جموح..

بعد شهر يخصص لها غرفة في عيادته يحول إليها
حالات الولادة القيصرية.. لن يغامر بوقوفه أمام عمليات
طويلة حتى غياب نوبات الرعشة التي تطارده..

في نهاية العام قد يأخذها معه للحياة في إنجلترا
للحصول على رسالة الدكتوراه، بل أخبرها أنها قد
يكملان عمرهما هناك إن راققت له ولها الحياة وطالت..

«ما عاد على هذه الأرض من يربطنا بها يا ألفت»..

قال جملته ودمعة تترقرق في عينه..

شعرت أنه يتحدث عن حبيبة فقدتها، وحين سألته

ضمها إلى صدره في حنان وقال: «وهل فقد الحبيبة

وحده ما يبكي إن مات الأب وجنت الأم؟!»

مسكين زوجها لكن هو معها في أمان..

من حبها له وإيمانها به قد يجدان مفا ما يربطهما

بهذه الأرض ويبقيان..

ألفت لا تمنع في الذهاب معه إلى آخر الدنيا، لكنها لا

تريده أبداً أن يترك أرض والده ووالدها لأن امرأتين

خذلتاه..

إحداهما حمقاء ظنته مات فتزوجت سواه..

والأخرى أكثر حماقة أجهزت على ما بقي منه وتُدعى

أمه!!

«لم يعد بوسعي أن أفعل شيئاً.. الطفل يخرج بكتفه جبر وهو أصعب من الخروج بالرأس.. أرجوك لا تصغي لبكائها احملها إلى المستشفى أو تفقدها هي وولدك!!»
 كل الكلمات التي نطقت بها «القابلة» التي أحضروها لتساعد أحلام على الولادة فهمها.. كلها حرفاً تلو الآخر..
 إلا الكلمة الأخيرة «ولدك»..

حين قالتها العجوز ووجهها يتصبب عرقاً تجمدت قدماء وزاغت عيناه.. وحدها أمه صاحت فيه تبكي تطلب منه أن يدخل إلى زوجته ويحملها بين ذراعيه وإن أوثقها ليركض بها إلى المستشفى..

ما زالت رغم كل هذا الألم ترفض أن تذهب إلى الطبيب على قدميها..

على ماذا تخاف أكثر من عمرها وعمر جنينها؟!

عادت المرأتان تصيحان في وجهه أن يحملها رغماً عنها، وتدلى رأسه فوق عنقه وهو يدخل غرفتها وينحني عليها يحاول حملها بينما تشبثت في أغطية الفراش الملونة بدمها ترجوه الصبر والتريث..

حين فعل وحملها بين ذراعيه صاحت القابلة تخبره أنها استدعت جارهم سائق التاكسي.. أرخى عينيه ينظر إلى وجهها الشاحب والتقت عيناهما..

كان يبكي مثلها وهمس بجوار أذنها وهو يعبر باب البيت الصغير يقول: «لا شيء يا أحلام يستحق أن تموتي من أجله.. هناك طفل بحاجة اليك.. هل تفهمين»!!

لا يعلم إن كانت سمعته أم لا.. لكنها أغمضت عينيها وسقطت جفونها كأنها بالقرب من صدره وأنفاسه استكانت..

عندما سأله فرج سائق السيارة إلى أين، صاحت أمه تقول إلى أقرب مستشفى أو مستوصف.. إلى أي مكان ينقذون فيه الغائبة عن وعيها وينقذون حفيدها الذي انتظرتة أعوام عمرها جميعًا..

أخبرهم السائق أن زوجته ولدت توأمها في مستوصف «الأبرار» الذي وقف في بابه وكان جبر أول من هبط من السيارة ومال يخرجها وهي بين الغياب والحضور، وفي لحظة نظر إلى أمه كأنه يعتذر لها لأنها هي الأخرى بحاجة إلى المساعدة، لكنها ابتسمت في حزن تخبره أن السائق سيساعدها، وصاح الأخير يخبرها أنه لن يتركهم بل أحضر معه نقودًا، فهو يعلم أن وفاة السيدة توحيدة لا بد وأنه أجهز على ما لديهم..

أسرع جبر بزوجته وسارعت بعض الممرضات بمساعدته في حملها معه وحين رآها طبيب الطوارئ أسرع هو الآخر يطلب طبيب النساء والتوليد المناوب حيث ظهر أمامهم بعد وقت ليس بالطويل..

كان شابًا في بداية الثلاثينيات، مغرورًا كارها لحماقة
وجهل كل سكان مصر القديمة الذين يحملون نساءهم
وهن يقاومن الموت باكين راجين المساعدة كأنهم من
دمائهن أبرياء..

صاح الطبيب في جبر يتهمه بالجهل والحماقة..

كيف يسمح لفتاة صغيرة «بكرية» أن تلد في البيت
وكيف تتعثر ولادتها ويأتي بها وهي في هذا الإعياء؟!

عواطف والسائق كانا معه في تلك اللحظة وصاحت
الأم تستجدي الطبيب أن يفعل شيئًا وهي تبكي وتخبره
أن الجنين يولد قبل مواعده وفي نهايات الشهر السابع..

تركهم الطبيب دون كلمة مواساة واحدة.. كل ما فعله
أنه أمر جبر بإجراء ترتيبات الدخول وفتح غرفة لأحلام
واستدعى من هاتفه طبيب الأطفال والتخدير وأخبره
أنها إلى العمليات ستنقل في خلال دقائق..

حين ابتعد عنهم، وحين فتحت أحلام عينيها في
إعياء على سرير الطوارئ، مال جبر عليها وضمها بين
ذراعيه وقال باكيا:

- لا شيء يا أحلام.. لا شيء يستحق أن نقتل أنفسنا
التي خلقها الله لتحيًا!!

غلبها النعاس وسقط رأسها المنهك على مكتبها الصغير ..

لا تحدث أحدًا من طاقم الممرضات ليس لأنها رئيسة طاقم الممرضات أو «سيادة الحكيمة» كما يسمونها، لكن لأن أحاديثهن

لا تستهويها والحفاظ على هيبتها من التسلية عندها أهم ..

عندما توالى الطرقات على بابها وفتحت عينها صاحت أمل تخبرها أن تسرع إلى غرفة العمليات لإجراء عملية توليد قيصرية عاجلة مع الدكتور وائل ..

نهضت عن مقعدها وعقدت حاجبها في تأفف .. لا تكره شيئًا كالوقوف إلى جوار هذا المغرور في غرفة العمليات، لكن أين المفر؟!

عندما أنهت إجراءات التعقيم وارتدت عباءة العمليات كان هو الآخر واقفًا أمامها في غروره يحدق في وجهها باستخفاف كبير ..

كلاهما لا يحب الآخر وأشاحت بوجهها عنه واندفعت تستقبل القادمة على «تروللي» العمليات ..

كان واضحًا عليها الإعياء وسمعت وائل يخبر طبيب التخدير أن الجنين أيضًا في حالة خطيرة فلقد طال نضاله بداخلها لكنه يحاول الخروج بكتفه ..

ما إن تم نقل الجسد إلى منضدة العمليات حتى نظرت حولها ومن خلف عيونها الغارقة في دموعها سمعت صوت الحكيمة يقول في ألم وهي تمسك بكفها:

- أحلام؟! أنت.. لماذا لم تحدثني الدكتور ياسين يا

حبيبتي..

حاولت أن تعرفها من صوتها أو عينيها الظاهرة من فوق كمامة التعقيم وسألتها في صوتها التائه من تكون..

تناول طبيب التخدير كفها ليحقنها بالمخدر إلا أن الحكيمة وقبل أن تغيب مالت تربت وجهها في حنان تقول:

- مريم يا أحلام..

كانت عيناها بدأتا في الغياب لكنها سمعت الاسم

جيدًا..

هي أيضًا من رائحة العشق القديم ورائحة ياسين!!

رفعت أصابع كفها الطليقة تحاول أن تصل إلى يدها..

تشعر برغبة كبيرة أن تخبرها بالسر.. أن تستحلفها أن

تهتم بالقادم حتى إن كان موتها هو الثمن، لكن لسانها

كان ثقيلًا وعينيها أكثر تناقلًا، وسقطت أصابعها إلى

جوار جسدها في سكون!!!

لا شيء نملكه في لحظات الضعف والانتظار سوى
اللجوء إلى الله..

لا شيء بإمكانه أن يهدئنا ولا أحد بإمكانه أن يساعدنا
سواه..

عواطف تجلس بثياب حدادها السوداء على مقعد في
غرفة أحلام..

ذهب السائق ليحضر لهم بعض الطعام ليأكلوه ويعود
ليبقى حتى يطمئن على خروجها..

وحده جبر بقي واقفاً مستنداً بظهره إلى الحائط الذي
يجاور الباب الكبير الذي يفصلهم عن قسم غرفة
العمليات..

تائه ضائع.. يردد آيات قرآنية كثيرة وصور مجنونة
تركض أمام عينيه..

صورها وهي عارية بين ذراعيه.. صورتها وهي تبكي
تطلب منه أن يسامحها دون أن يعرف لماذا.. صورتها
وهي تضع كفها على بطنها وتشهق يوم طرق ياسين
بابهم..

كلما علا صوت كلمات رسالة ياسين إليها علا صوته
بالقرآن أكثر.. لا يريد في هذه اللحظات أن يكرهها..
بالأمس ماتت أمها..

لا شيء يهم سوى أن تعود أحلام ويعود طفلها..

لم لا يقول طفله؟!

علا صوته بالقرآن أكثر كأنه يُخرس الشيطان في رأسه..

أخبره ياسين أن إصابة ضربت رأسه جعلته لا يتذكر كل الأشياء، بل جعلت الصور تختلط في عينيه ورأسه.. كلماته المجنونة في رسالة الهاتف أيضًا أكاذيب صورتها له الإصابة..

زوجته كانت عذراء طاهرة وهي الآن تلد له طفلًا..

سيضمها إلى صدره عند عودتها هي وطفلها.. هذا هو ما يجب أن يكون ويحدث.. ويومًا ما سيسألها عن رسالة المجنون وتفسيرها..

يجب أن يكون لديها تفسير!!

أفاق على صوت الباب الكبير يُفتح حيث أطلت امرأة في ثياب العمليات تخلع كمامتها في غضب وتتمتم بكلمات غير مفهومة، فركض خلفها يرجوها أن تقف..

حين وقفت واستدارت سألها عن زوجته وأجابت في غضبها المكتوم أن بالداخل أكثر من غرفة للعمليات وأكثر من زوجة..

ابتعدت لتسمعه يبكي كالأطفال لتهدئ خطواتها قليلًا لتسأله وهي عنه بعيدة: «هل زوجتك اسمها أحلام؟!»

ما كانت بحاجة للإجابة.. من شهقة بكائه عرفت.. من سكون دمعاته أدركت واقتربت مريم تخبره أن الأمور

بخير، هي أيضًا لم تستطع أبدًا أن تقتل سؤالها داخل جوفها فسألته في عتاب:

- لماذا لم تذهبوا إلى الدكتور ياسين؟!

ذبحه السؤال.. كيف تعرف هذه الممرضة اسم زوجته؟ وكيف أيضًا تعرف اسم ياسين؟

قبل أن يسأل فُتح باب العمليات للمرة الثانية، وحين استدار الاثنان وجدا الطبيب الذي صاح ما إن رأه يقف معها في وقاحة يقول:

- ألم أطرّدك من العمليات؟! ألم أمرّك بمفادرة القسم كله؟ ماذا تنتظرين؟!

لم تُجبه مريم بكلمة، بل مشّت بخطى سريعة بعيدًا عنهم جميعًا بعد أن حدّجت وجه الطبيب بنظرة تزدريه فيها.. ركض جبر إليه بعد اختفائها وقبل أن يفتح شفّتيه بحرف رفع الطبيب كفه قائلاً:

- هي بخير.. لو تأخرتم قليلًا لماتت..

أمسك جبر بذراعه وهو يحاول الابتعاد ليسأله في تردد:

- هل الجنين بخير؟! هل وُضع في حضّانة.. جاء قبل مواعده بشهور..

نفض المغرور ذراعه من كف الباكي وقال:

- الجهل يقتلكم يا رجل.. تترك زوجتك في يد «قابلة» تعبت بها وتنتظر عشر ساعات حتى تحضرها

للمستشفى وفوق هذا وذاك

لا تعرف عدد شهور حملها؟! الجنين أكمل واحدًا
وأربعين أسبوعًا، ويزن ثلاثة كيلو جرامات ونصف
الكيلو، ومحيط رأسه واحد وخمسون سنتيمترًا..

كان جبر ينظر إليه في بلاهة وكل ما يحاول القيام به
هو أن يستجمع قواه ليحسب ماذا يساوي عدد الأسابيع
التي ذكرها بالشهور..

ابتعد الطبيب الأحمق وما زال يلعن جهل جبر ومريم
وغبائهما!!

ما زال النوم يداعب جفونها لكن تريد أن تستيقظ
قبله، وفي حذر شديد أزاحت عن جسدها العاري أغطية
الفراش وعادت بعد أن غسلت أسنانها وارتدت قميصًا
من الدانتيل الأزرق لتقفز في هدوء إلى جواره مرة
أخرى وهي تدعو الله أن يظل نائمًا..

كان ياسين يغط في نوم عميق، من خلف دموع
رقيقة نظرت إليه ولا تشعر بأصابعها التي تسلت تمشط
شعره في حنان أم تداعب رأس وحيدها..

لا تصدق أنهما زوج وزوجة.. لا تصدق كم كان رقيقًا
معها وكيف كان حريصًا على إسعادها..

حين أمسك بذراعها بالأمس في حفل زفافهما
ليراقصها رمت رأسها على كتفه كأنها تلقي بحمولة
ثقيلة وتجولت بعينيها على وجوه المدعوين..

لا أحد تعرفه.. لا أحد يهمها إن جاء أو غاب.. وحدها
عمتها المريضة التي تزورها صباح كل جمعة كانت
تتبعها بعينيها..

كل العيون في حفلات الزفاف عن العيوب تبحث..
عن القصص تفتش إلا عيون الأمهات والآباء وحدها
تتمنى سعادتك ورضاك..

دون وعي منها في تلك اللحظة أغمضت عينيها
وهمست قائلة:

- ياسين.. ليت والدك كان هنا..

شعرت بانتفاضة جلية وهي على كتفه حتى إنها
كادت عن كلماتها تعتذر..

فتحت عينيها ونظرت في عينيه اللتين فتحهما ومن
خلف دمعة رقصت في حنان بين جفنيه سألتها إلى هذا
الحد كانت تحبه؟!

ابتسمت وهي تضمه إليها من جديد قائلة:

- بل وأكثر!!

حين عادا إلى البيت.. حين ضمها.. حين سقط قناع
كبريائها عنها ورأت نفسها بلا وعي منها تناديه إليها
وتمنحه روحها قطعة تلو الأخرى، علمت أن ظمأها
الطويل ما قتل فيها الحاجة إلى الارتواء.. علمت أن تلك
الألة التي أجادت الاستسلام لها انطفأت بين ذراعيه كل
مفاتيحها وسكنت جميع تروسها..

عادت ألفت القديمة التي ظنت أنها دفنتها إلى جوار
والدها يوم رحيله..

حين تهدجت أنفاسها بين ذراعيه.. حين تألمت وبكت
وضحكت وانتشت وهدأت سمعته يهمس في أذنها وهو
يقسم إنه لن يمارس معها الحب إلا وهما بهذا التوهج
وهذا الاشتعال..

لم ثقل له كلمة، فتحت لحظتها عينيها ونظرت إلى
قطرات العرق الصغيرة المرسومة على جبهته وهمست:

- إياك ياسين أن تجرحني.. أرجوك..

رائع هو كآبيه.. ليس فيه من غرور أمه وصلافتها
شيء..

في حنان أخبرها أنها من كل الجروح داوته فكيف
يوماً يفعل؟!

ليت أباهما كان هنا هذا الصباح.. ليته كان في الغرفة
المجاورة لتخرج وتعد الإفطار لرجليها ويطمئن كل
منهما عليها بوجود الآخر..

ليت دكتور عاصم كان هنا ليرى كيف تحب ابنه
وبعمرها تفتديه..

عندما بدأ ياسين في تلك اللحظات يفتح عينيه
ويتذكر أنها زوجته التي يأخذها بعد يومين إلى
بريطانيا ليقضيا أسبوعاً من العسل.. ابتسم ابتسامة
صغيرة مريرة وهو يراها تمسح على رأسه..

لا أحد منا يعلم على ذراعي من يغفو أو على صدر
من يقوم..

كان يوماً يظن أن أحلام وحدها تصبح زوجته، لكن
جاءت ألفت من حيث لا يعلم لتصبح وحدها الأم
والزوجة..

مدّ ذراعه إلى وجهها ليمسح دموعها الصغيرة كأنه
يعتذر عن وجه الأخرى الذي رآه وقال في صدق:

- العروس تبكي؟!

سقطت على صدره وهي تضمه إليها في لهفة أكبر

تقول:

- أغسل بك وبالدمع صور الماضي الأليم..

ضمت الصغير إلى صدرها في قوة حين أخرج لها من
حقيبته المدرسية شهادة الدرجات ليلوح بها قائلاً:

- سأصبح طبيباً وأفتح مستشفى كبيراً تعملين
ممرضة فيه، لن يقوى على طردك أحد.. فقط كفي عن
البكاء..

بقطعة من كم ثوبها مسحت دموعها وتفحصت
شهادته..

لم يخذلها يوماً في تحصيله المدرسي.. لو تعلم فقط
كيف تطوي الشهور والأعوام حتى يصبح طبيباً!!
الطريق طويل.. ما زال في المرحلة الابتدائية..

هل يحدث هذا حقاً؟! بل هل يحدث غير هذا؟!
نهضت مريم من جواره لتخطو نحو المطبخ وهي
تقول:

- بذل ملابسك يا مصطفى وفي المساء أدعوك إلى
أكبر كوب من الآيس كريم..

حين وقفت تعيد تسخين الطعام لم تستطع أبداً أن
تمنع دموعها عن السقوط..

حادثتها إدارة المستشفى هذا الصباح ليطلبوا منها
تقديم استقالتها وإن لم تفعل سيتم فصلها من العمل..

كل هذا لإرضاء الطبيب الأحمق.. لا تلومه.. أبوه يملك
المستوصف!!

تعلم أنها ستجد عملاً آخر لكن مستوصف أبيه قريب..
لا شيء يفصله عن بيتها سوى شارع واحد.. إن كانت
تعمل في النوبة الصباحية يمر مصطفى عليها لأخذ
المفتاح بعد عودته من المدرسة، وإن كانت تعمل في
النوبة المسائية تذهب وتطمئن عليه أكثر من مرة دون
أن يشعر بغيابها أحد..

لم يكرهها دكتور وائل إلى هذا الحد؟! منذ جاء وهو
يتصيد لها الأخطاء..

تكرهه لصلافته وقسوته مع المرضى.. تكرهه لغروره
في غرفة العمليات.. هل تجاوزت حقاً حدود الأدب
واللياقة معه بالأمس أثناء توليد أحلام؟!!

أبداً لم تفعل.. تثق أنه لم يقم بتنظيف الرحم كما
يجب.. هي حتى لم تطلب منه أن يفعل.. فقط أخبرته
أنها ستكمل القصة.. المشيمة التي أخرجها من جوفها
ليست كاملة..

ثار في غرفة العمليات حين فقدت أعصابها وصاحت
أن هذا يعرض حياة الأم للخطر..

رفع يده الملطخة بالدم يطردها خارج العمليات..

أرخت رأسها وخرجت في سكون.. ظنته يفعل ليقوم
باستكمال تنظيف الرحم بعيداً عنها لكن أخبرتها زميلتها
التي بقيت معه أنه لم يفعل..

أحلام قد تموت.. بل ستموت حتفاً إن ترك بداخلها
بقايا المشيمة..

هزّت مريم رأسها وهي تسكب المكرونة في صحن ولدها.. من يعلم ربما كان ما فعله كافيًا.. ربما صور لها حبها القديم لأحلام ما رآته وظننته..

لن يغامر بمستقبله أبدًا.. فلتطرد هذه الأفكار من رأسها..

لا تستطيع زيارة المسكينة هناك بعد أن طردها..

عليها الآن أن تبدأ رحلة بحث عن العمل لكن أيضًا لن تسكت.. حائرة لا تعرف ماذا تفعل؟!

هل تذهب إلى زوج أحلام وتخبره بشكوكها وتطلب منه أن يأخذها إلى دكتور ياسين أو غيره ويجري لها الفحوص ليزيل الشك باليقين..

بدا على الشاب أنه طيب يحب زوجته، لكن ألم تسمع وائل ينعته بالجهل.. ألم تسمع أنه ترك المسكينة تحت يد «قابلة» تعاني في ألم المخاض عشر ساعات حتى كادت تموت؟ فكيف تظنه يصدقها؟!

إن كان بإمكانها أن تفعل شيئًا فعليها أن تذهب إلى ياسين نفسه.. هو طبيب وتعلم أنه يهتم لأمر المسكينة حتى إن تركت العمل لديه.. ألم يدفع لها ذاك المبلغ الكبير لتعلمها التمريض.. بل هو إنسان ستخبره بما رأت وبشكوكها وليفعل ما يراه..

فليذهب هو إليها.. كلمته مسموعة أكثر منها لأنه طبيب..

ستمر في مساء الغد عليه في عيادته تخبره..

نعم.. الحل هو أن تفعل.. بل يجب أن تفعل..

لا تستطيع أبداً أن تكذب عينيها أكثر..

الطبيب لم يقم بعملية تنظيف الرحم كما يجب..

أن تكتشف أنه وهم في رأسها أفضل ألف مرة من أن

يكتشفوا جميعاً أنه حقيقة بعد فوات الأوان..

تمت وصحن الطعام ما زال معلقاً في يدها تدعو

الله أن ينقذ أحلام..

رقية هي وطيبة.. كيف تنسى ثقتها فيها ولجوءها

إليها.. أفاقت على ضحكات مصطفى يشير بأصبعه إليها

يخبرها أنها على حالها تقف وهو أمامها منذ دقائق دون

أن تشعر به..

يؤلمها أن ولدها دوماً يسخر منها وإن كان مزاحاً..

تتمنى لو يثني أو حتى يبدي الإعجاب بشيء تفعله

لكن ما عساها تقول أو تفعل.. يأتي يوماً يرى فيه كيف

تقتل نفسها ليحيا..

مدت يدها إليه بالصحن ليأخذه من يدها ويركض

لتناوله، وخطت خلفه في صمت وقلبيها يعلو صوته في

صدرها تتضرع به إلى الله من أجل أمومتها ومن أجل

أحلام!!

تحاول بحكمة العمر والأعوام والمرض أن تسيطر
على كل شيء.. تحاول عواطف أن تبدو قوية لكنها
وللمرة الأولى في حياتها تشعر أن كل شيء يفلت زمامه
من بين أصابعها..

أخرجوا أحلام من المستشفى في اليوم الثاني لتعود
متكئة على ذراع جبر في إعياء كبير..

يومان منذ عادت وهي في فراشها تغيب في النوم
ساعات وتفيق على تقلصات مؤلمة لا تفهمها عواطف..
تحاول أن تطعمها فترفض ثم تغمض عينيها على
دموعها وتشيح بوجهها..

حتى الصغيرة لم يفرح بها أحد.. جبر لم يحملها على
ذراعه لحظة واحدة..

لا تكف عن البكاء والصراخ.. وضعتها على صدر أمها
مرات عديدة لكن صدر أحلام لا قطرة لبن واحدة فيه،
وصدر الصغيرة
لا قطرة صبر فيه..

أحضر لها جبر الجلوكوز لتطعمه لها لحين خروج
اللبن.. تحاول جاهدة أن تهدهدها حتى تغفو على
قطرات الجلوكوز ثم تنهض وتلتقي الزوار وهي لا تعرف
إن جاءوا للتعزية أم للتهنئة..

ظنوا أن قدوم الصغيرة يخفف عنهم فجيعتهم في
رحيل توحيدة فإذا بالظلام يشتد وإذا بصدورهم
تنقبض حتى تكاد تشعر أن أحدهم
لا يطبق رؤية الآخر أو الشعور بأنفاسه..

تحاول عواطف.. إكرامًا للراحلة تحاول..

إكرامًا لوحيدها الحائر ولا بنته الرضيعة لكن شيئًا ما
أسود يجثم على صدرها يخبرها أن الأمور لا تسير أبدًا
كما ينبغي..

أحلام تنزف أكثر مما ينبغي لامرأة وضعت، والطفلة
تصرخ أكثر مما تستطيعه رضيعة عمرها يومان..

ولدها حزين صامت كأن زوجته لم تنج من الموت
وكانه ما رأى ابنته تولد..

الحزن أكبر من قدرتهم يا عواطف.. هم أطفال.. أنت
من يجب أن تأخذي بيدهم..

على ساقها شبه المشلوله استندت تخطو مرددة آيات
قرآنية تدعو الله بها أن يكشف عنهم كربهم الكبير..

في طريقها إلى غرفة النوم حادثت ولدها تطلب منه
أن يترك شقته ويهبط إليها.. لا تصدق أنه منذ عودتهم
من المستشفى يركض صاعدًا إلى بيته كأنه من رؤية
زوجته والصغيرة يهرب.

في غرفة النوم جلست على حافة فراش أحلام
وابنتها غافية على ذراعيها..

كانت ساكنة لكن كل ملامحها بالألم تصيح..

دخل جبر يلقي عليهم السلام وفتحت زوجته عينيها
تنظر إليه في إعياء شديد ليرخي رأسه كأنه من عينيها
يهرب..

حين خرجت الأم وأغلقت دونها الباب التقت عينا
الحائرين لحظات طويلة أرخت أحلام بعدها عينيها في
ألم كأنها فهمت كل شيء، وأشاح برأسه بعيدا كأنه لا
يريد رؤيتها..

همست في صوتها المبحوح تناديه..

حاول أن يرفع عينيه أو رأسه إلى وجهها لكنه كان
ممزقا بين غضبه منها وحزنه عليها..

لم تكف عن مناداته حتى استجاب وفي اللحظة التي
نظر إليها رآها تحمل صغيرتها وتمد يدها بها إليه..
انتفضت أوصاله جميعها..

ليست ابنته ليحملها.. ليست منه ليضمها إليه..

كان قلبها من الألم يكاد عن ضلوعها أن ينخلع لكن
مخاوف رأسها كانت أكبر.. في عينيه رأت كل شيء..
أخبره الطبيب عمر ابنتها الحقيقي.. هل تصرخ وتحكي
له القصة وهل يصدقها؟!

في زعر كبير همست في صوت محشرج تقول:

- ماذا نسميها يا جبر؟!

يتمنى هو الآخر لو يصرخ ويخبرها أنها ليست منه فلم تسأله لكن هذا الألم في صوتها.. هذا الشحوب في ملامحها وهذا التوسل العميق في كل ملامحها مع الحب الكبير الذي يحمله لها عن الصراخ كمموا شفثيه اللتين عض عليهما في قسوة ليقول كأنه يئن:

- هل تريدان أن تسميها على اسم والدتك رحمها

الله؟!

في ذل كبير وبما تبقى من قواها الخائرة قالت:

أريدك أن تحملها على يديك.. أريدك أن تعلم أنني

أحبك..

أريدك أن ..

لم تستطع أن تكمل بل انتحيت وهي تعود بطفلتها

إلى صدرها تضمها ثم أكملت:

- أريدك أن تذكر دوماً ما قلته لي أنك ستبقى أبي

وأخي وزوجي.. من لي سواك؟!

في شعور كل من ذكرتهم بالفدر والخديعة رفع وجهه

إليها ومن خلف دموعه كاد يقولها، إلا أن أحلام أكملت

جملتها الأخيرة وهي تنتفض قائلة:

- هي من «رائحتي» جبر، لا تخذنها أرجوك!!

كادت تُخرج له لسانها غير أنها ابتلعتته في اللحظة الأخيرة وما عليه من كلمات..

سألها في سخرية لماذا لم يسافرا هما أيضًا لقضاء أسبوع عسل في بريطانيا أو فرنسا مثلًا..

كادت حقًا أن تسحقه بلسانها..

غرزت سكين المائدة في قطعة الزبد أمامها في عصبية ولم ترد..

ماذا تقول؟! هل تخبره أن ولدها هو من تحمل نفقات أسبوع العسل بينما هي وحدها من تتحمل نفقات كل شيء..

أغمضت ناهد عينيها في إرهاق.. تعلم أن فاضل لا يريد استغلالها لكن كثيرًا ما تشعر أن الغرور يملأ جنبات روحه.. يرى أنه يستحق تدليلها ونقودها وتمرغها على قدميه..

رفعت أصابعها تصب له كوب الشاي وسمعتته يقول:

- لا بد أن ياسين وألفت الآن يتناولان إفطارهما في أحد مطاعم أكسفورد أو ربما يتبادلان قبلة في ميدان بيكادلي..

لم تستطع أبدًا أن تبتلع لسانها مرة أخرى..

ألقت بشوكتها في الصحن ونظرت إليه في غضب لتقول بكل ما استطاعته من هدوء:

- فاضل.. عيادة عاصم تم تأجيرها لنقتسم أنا
وياسين الأجرة كل شهر.. هذه هي السيولة التي أملكها
بالإضافة إلى أرباح المبلغ الذي ورثته عنه..

هل تعلم كم أَدفع للسائق والخدم؟ ألا تظن أنني كنت
لا أتمنى السفر ليس إلى بريطانيا بل إلى الشرق الأقصى
الذي لم أزره يومًا؟!

فاضل لم يَغضب.. في هدوء ارتشف رشفة من كوب
الشاي ونظر إليها وقال في هدوء:

- هذا هو الخطأ الذي يجب إصلاحه.. فلنبيع إذن هذه
الفيلا

لا حاجة لك بها.. هي أكبر من أن يحيا فيها شخصان..
لن ننجب أطفالاً ولا نحتاج لسائق أو خدم.. ثمنها
ملايين كثيرة.. نشتري شقة صغيرة على النيل ونقيم
مشروعًا كبيرًا يدر علينا الكثير.. أنا شاب وباستطاعتي
إدارة المشروع.. لماذا تتركين ما بقي من عمرك يضيع
في بيت بينما يمكن أن تستمتعي به معي وأيضًا وبعد
أعوام نشتري عشر فيلات إن شئت..

في ألم نظرت إليه.. هو شاب يعج رأسه بالأفكار
والمشروعات، قد يكون ما يقوله صحيحًا لكن تخشى أن
تفعل فيضيع هو
نفسه منها..

أرخت رأسها في حيرة ثم قالت:

- كون الفيلا مسجلة باسمي لا يعني أبدًا أنها ملك لي
وحدتي.. ياسين له فيها أيضًا..

اقترب منها ووضع على وجنتها قبلة وقال:

- حبيبتي.. اشتري زوجك لولده عيادة على النيل
وسجلها باسمه وحده لأنه يريد ملأًا خالصًا له.. ترك
عيادته في أرقى أحياء مصر الجديدة باسمه لأنه يريد
لكما أن تقتسماها وبالتالي يوم اشتري هذا البيت باسمك
وحدك فهذا لأنه يريد لك وحدك..

سكت لحظة يرقب وقع كلماته على وجهها وأكمل
يقول:

- كل شيء سيكون باسمك.. حتى المشروع الكبير
الذي أفكر فيه باسمك ناهد.. لا أريد حتى أن أكون
شريكًا فيه، أنا فقط أريدك أن تحيي الحياة التي
تمنيتها طوال عمرك..

ما بقي من العمر ليس كثيرًا!!

كان يرقبها في حنان وهي تأكل كوب الآيس كريم
الكبير من «وايت ليزز»، غاب برأسه لحظات.. كان
يشتهي أن يحضر أحلام إلى هنا، بل كان يرى نفسه
يختطف منها كوب الآيس كريم ليلعقه بلسانه ثم
يمنحها إياه مرة أخرى..

كيف يتغير كل شيء في لحظة دون أن يمر برأسنا
لحظة أن هذه هي نهاية أحلامنا وخططنا..

كان سيتزوج أحلام الأصغر منه فإذا به زوج لألفت
الأصغر منها وأصبحت أمه زوجة لشاب يصغرها بما
يقارب الثلاثين عامًا..

كل الشوارع التي تخيل أحلام تخطو فيها إلى جواره
يرى نفسه الآن يخطو فيها إلى جوار ألفت.. لكن الشعور
يختلف..

لا يشعر بأي رغبة في أن يختطف كوب الآيس كريم
منها،
ولا يشعر أنها ستسعد إن فعل كما كان يظن أحلام
تفعل..

هو سعيد بزوجته ويحبها لكن حتى الحب من امرأة
لأخرى يختلف..

هناك نساء يحبهن الرجل بقلبه وأخريات بعقله
وقليلات من يعشقهن بروحه..

مدّ ذراعه حول كتفها كأنه يعتذر، ومالت برأسها على صدره تقول:

- جميلة لندن لكن لا أظنني أريد الانتقال إليها، ما زال بإمكانك أن تكمل رسالة الدكتوراه هناك..

وضع قبلة صغيرة على رأسها وابتسم.. ما عاد يعنيه هنا أو هناك.. غابت من أراد الحضور بها إلى هذا البلد.. لماذا يشعر بالشوق إليها أحياناً يعتصر قلبه حتى يكاد يصرخ من الألم؟!

ألفت بكوب الأيس كريم من كفها واستدارت نحوه بسرعة بعد أن شعرت برعشة جسده في زهول.. وافته النوبة من جديد وأمسكت كتفيه بين يديها تردد:

- لا تخش شيئاً.. لحظات.. لحظات وتمضي..

حين استندت به إلى الحائط القريب كان كل شيء قد هدأ كأنه ما كان، إلا أن ياسين قال في ألم:
- يبدو أنها لن تتركني أبداً يا ألفت..

متى يأتي؟ ولماذا العيادة مغلقة..

هو اليوم الثالث الذي تأتي فيه وتجد أضاءها
مطفأة..

بالأمس سألت حارس العقار فأجابها في اقتضاب أنه
لا يعلم شيئاً..

القلق بدأ يقتلها.. كل يوم يمر قد يكون ثمنه غالياً..

في إصرار بحثت عنه وعندما أطل وجهه أمامها
سألته من جديد ودونما اكتراث صاح يقول:

- أخبرتك أنني لا أعلم.. اذهبي إلى طبيب آخر إن
كنت تحتاجينه إلى هذا الحد..

نكست رأسها في ألم ورغم هذا قالت:

- لست مريضة لكن هناك مريضة قد تموت.. أريد
فقط أن أعلم متى يأتي..

أشفق عليها وأطال النظر إلى وجهها كأنه يستدعيها
من ذاكرته.. يشعر أنه يعرفها لكن ما الفارق؟!

رفع ساقيه على أريكته الخشبية وقال:

- تزوج الطبيب وسافر لقضاء شهر العسل..

شهقت مريم في جنون وقالت:

- هل تذكر أحلام؟ الشابة التي كانت تعمل في
العيادة.. هل تعرف بيتها.. هي من أريد لقاء الدكتور

ياسين من أجلها..

في هدوء شديد أشاح الرجل بوجهه بعيدًا عنها وقال:

- لو أخبرتني يوم جئت أول مرة لأمكنك رؤيتها..

بالأمس ماتت أحلام!!

في تناقل شديد نهضت عواطف من فراشها لتفتح باب البيت.. تحتاج أن تنام مدة أطول .. هي الليلة السابعة بعد موت أحلام والليلة الثالثة التي تترك فيها الصغيرة تنام لدى إحدى جاراتها التي تتولى إرضاعها..

سبع ليالٍ كأنها الدهر.. موت توحيدة لم يهز أركان البيت كما فعل موت ابنتها.. كل شيء سقط في تلك اللحظة التي دخل جبر على زوجته ليجدها ميتة وطفلتها على صدرها تفتح فمها بحثًا عن صدرها..

لم يفعل شيئًا هذه المرة.. وخدمهم سكان الحي فعلوا كل شيء.. كان ولدها يسير إلى جوارهم كأنه غائب عن الوعي..

لم تره يومًا على هذا الحال.. سبع ليالٍ وهي تغفو على فراشها تدعو الله ألا يلحق بزوجته وأمها..

في العزاء كان غائبًا.. في المقابر ما حضر حتى وهو بيده يودع جثمان حبيبته إلى جوار أمها..

- من جاء مبكزا يوقظها؟!

فتحت عواطف الباب لتجد الرئيس بهجت رئيس وحيدها في العمل يقف بعيدًا..

سقطت دموع جديدة من عينيها ترجوه الدخول..

حين جلس على أحد مقاعد الصالة الضيقة، وبعد أن أقسم عليها ألا تصنع له شايًا أو قهوة أخبرها في خجل

أن جبر عليه العودة إلى العمل.. أخبرها أن المصنع
يعتمد عليه في أمور كثيرة ورب العمل
لا يقبل غيابه أكثر من هذا..

منذ وضعت زوجته طفلتها لم يذهب إلى العمل..

رفعت وجهها المغسول بالدمع ليستدرك كلماته
ويقسم إنه يعلم صعوبة ما يمر به، لكن إن فقد عمله
تصبح الأمور أسوأ، بل ربما كانت عودته أفضل له..

حينما أخذت العجوز تمسح دمعها في صمت استدار
بهجت حوله يبحث عن من جاء من أجله، ثم نهض يعتذر
يخبرها ألا توقظه وأنه سيعود إلى زيارته في المساء..

قبل أن يخطو الرجل خطوة واحدة اتكأت عواطف
على يد مقعدها ونهضت تقول:

- أعلم أنك تحبه.. أنا لم أره منذ ثلاث ليالٍ..

لم تستطع أبدًا ألا تجهش بالبكاء وتنتحب في مرارة
ثم تقول:

- أشعر أنه يموت.. بل كدت أتمنى لو يموت علّه من
هذا الحزن والألم أن يرتاح.. إن مات لن يطول بي البقاء
لكن هذه الرضيعة المسكينة ماذا يكون مصيرها؟!

ظلمت أمها كثيرًا.. منذ طفولتها.. من أجلها سيد
بهجت أتوسل إليك تحدث إليه.. فليذهب العمل إلى
الجحيم.. أعمل على الخياطة كما علمتني أم أحلام..
أخرج للعمل خادمة إن لزم الأمر.. ما زال عندي معاش

زوجي ومبلغ لا بأس به أدخره للحج أو الدفن أنفق
عليهم كل هذا.. اليتيمة ما بقي لها سواه..

اصعد إليه.. ذكره بها.. كادت تسقط من على ذراعي
مرتين .. أشفقت عليها الجارة وأخذتها..

كان الرجل مذهولاً لكل ما تقوله وحين قالت اسمه
رفع جفنيه وظهرت عيناه المغلفة بالدموع وسمعها تن
وهي تقول:

- الغرباء لا يحتلمون طويلاً.. قد يشفقون عليها يوماً
وربما عشرة لكن إن مات هو حزناً من يرببها.. حتى الآن
لم يُطلق عليها اسماً!!

اصعد إليه أرجوك وأعدده ليس لي ولا لنفسه لكن
لرضيعة لا ذنب لها في مولدها.. أخبره أنه هو من
أنجبها!! أخشى عليه من ذنب تخليه عنها.. والله أخشى
عليه!!

اعتقدت أن حصولها على عمل في أي مستوصف أو
مستشفى أمر سهل.. سنوات خبرتها.. شهادتها.. أمانتها
وحسن سلوكها..

لا تصدق أبداً أن مدير شئون الموظفين الأخير ما إن
عرف اسمها حتى ابتسم متهكفاً وأخبرها أن تبتعد عن
منطقة مصر القديمة بأكملها إن أرادت العمل، فكل
مستشفيات المنطقة باتت تعرف حقيقتها!!

أرخت رأسها في صمت تستعيد كلمات عبلة زميلة
العمل القديم.. هي على حق إذن..

لم تصدقها أبداً عندما أخبرتها أن وائل بدأ يشيع بين
الأطباء والممرضات أنها لصقة تسرق المعدات الطبية من
غرف العمليات وأنه من أجل ولدها لم يفضح أمرها
واكتفى بطردها من العمل..

هل كانت على حق؟!

رفعت رأسها إلى الرجل الذي كان ينظر إليها في
احتقار كبير وقالت:

- هل تعني سيدي سرقتي للقطن الطبي وقناني
المطهرات!!

فوجئ بعبارته وسألها في دهشة كيف تواتيها
الوقاحة لتعترف؟!

لم تُضف حرفًا بل نكست رأسها وخرجت لتأتي هنا
وتجلس على حافة سور كورنيش مصر القديمة المتهاك
وتفكر في سكون.

لم انقلبت كل الأمور على رأسها في ليلة؟!
لأنها حاولت إنقاذ أحلام..

لا هي أنقذتها ولا نجت بنفسها وسمعتها..

هل كان من الممكن حقًا أن تتجاهل ما رآته بعينيها؟!
ما الفائدة؟!!

الشابة ماتت وظردت هي من عملها، حتى سمعتها ما
نجت من التشويه..

ما ادخرته من نقود ينفد في أيام..

ذهبت بالأمس لتخبر عائلة أحلام بالحقيقة لكن لم
تجد لها عائلة..

أم زوجها امرأة عجوز تخطو بصعوبة وزوجها الشاب
كاد يقتلها عندما انفردت به وأخبرته أن أحلام ماتت
مقتولة..

حين طلب منها أن تغادر البيت وألا تفكر لحظة في
إعادة كلماتها تلك خرجت تلعن نفسها..

لكن الآن تأكدت أن وائل يحاربها وأنه على ضلالتة
باق..

قد يقتل نساء أخريات كما فعل بأحلام..

هل تذهب إلى قسم الشرطة وتقدم بلاغًا فيه.. لن
يصدقها أحد، سيظنونها تحاول تشويه سمعته.. زوجها
وحده هو الذي من حقه تقديم البلاغ وتقديم طلب
لتشريح جثتها..

هل تنسى كل شيء وتذهب للبحث عن عمل في
منطقة بعيدة كما قال لها الرجل منذ لحظات..

كف تتحرر من شعورها بالمسئولية تجاه أجنة ونساء
قد يؤذيهن وائل..

ليس أمامها سوى عودة ياسين من رحلة العسل..

إن لم يساعدها فلينصحها ماذا تفعل..

في تناقل نهضت مريم عن مكان جلوسها، أخبرها
حارس العقار أنه يقضي شهر العسل.. ماذا يضيرها لو
مرت كل يوم وسألت عنه..

الأطباء لا يغيبون أبدًا شهورًا عن عملهم وإن كان
سبب الغياب هو العسل..

نعم هناك شيء جميل بل رائع الجمال ..
لا تستطيع أبداً أن تحدد اسمه أو تضع أصابعها عليه
لكنها تشعر به يرقص على وجنتيها.. في بريق عينيها
وضحكة شفيتها..

منذ عادت ألفت من رحلة شهر العسل تشعر أنها
أجمل.. بيتها فيه صوت زغرودة دافئة لا تعلم من أي
ركن تصحو أو في أي ركن تنام لكنها تملأ أذنيها كل
صباح..

هل فعل الزواج هذا؟! فعلها ياسين؟!

أبداً.. حبها الكبير له وحده يفعل!!

تتمنى فقط لو تراه أكثر انطلاقاً ومرحاً.. كان والده
رحمه الله أكثر صخباً منه لكن كيف تلومه..

فقد الأب والأم بل فقد ما لا يقوى إنسان على تحمل
فقدانه..

فقد الثقة في صحته وأدائه..

لن تتركه لحظة.. ستبقى معه حتى يناقش رسالة
الدكتوراه.. ستعمل معه في عيادته مساء كما اتفقا
وصباحاً في المستشفى كما هما..

ستشعل له في حنايا روحه مصابيح كثيرة كهذه التي
أشعلها في بيتها وروحها دون أن يدري..

يكفي أنه جبر كسور اليتيمة التي بداخلها..

لن تكون له زوجة فحسب .. ستكون الصديقة التي
كانت لوالده والأم التي كانت لوالدها والحبيبة التي
طال سجنها بين ضلوعها..

حتى إن أصر على السفر تسافر معه.. هي تعلم أنهما
في النهاية عائدان وإن لم يعودا..

كل أرض معه هي سكن لها ووطن!!

في هدوء فتحت خزانة ملابسها، أخبرها أن تمر عليه
في العيادة ليخرجنا لتناول العشاء في أحد مطاعم
«التجمع الخامس»..

ماذا ترتدي؟!

كل ثيابها في عينيها لها لون واحد.. لون بهي
ضحك.. في حضور الفرح كل الأثواب جميلة!!

حين أنهت ارتداء ملابسها وبعد أن مشطت شعرها
القصير ووضعت بعض قطرات العطر انطلقت بسيارتها
نحو مصر القديمة..

لحظة وقفت أسفل عيادة زوجها، انحنت في سيارتها
تبحث عن أسطوانة يحبها ياسين كثيرًا.. وضعتها
وأوقفتها على أحب الأغاني إلى قلبه.. «تعا ولا تيجي»
لفيروز..

يحبها وأصبحت تحبها رغم اعتراضها الكبير على
دعوة الأغنية للكذب لكن أخبرها حبيبها يومها أن قليلاً

من الكذب قد يقتل كثيرًا من الألم..

بعد أن أخرجت هاتفها من حقيبتها وقبل أن تطلب
رقمه رآته يغادر باب العمارة لتضحك في لهفة
كالأطفال.. كيف عرف أنها جاءت؟!

كان ياسين يقف وبينه وبين سيارة زوجته أمتار
بسيطة، وكانت بأصابعها تقف على أغنيته التي يحبها
تنتظر دخوله إلى السيارة لتديرها لكن لم يكن ليتحرك
عن مكانه..

عيناه زانفتان تدوران في سماء الشارع وهي تراقبه
وتلوح له بكفها..

بعد لحظات انطلقت خارج سيارتها تركض نحوه..
حين اقتربت منه وأصبحت تقف أمامه وجدت وجهه
غارقًا في الدمع وما زال
لا يراها..

صاحت باسمه تناديه وحين التقت أعينهما صاح
بيكي ويرمي برأسه على صدرها قائلًا:

- ماتت.. ماتت أحلام يا ألفت!!

كيف أصبحت القصة حزينة إلى هذا الحد؟!

كانت توحيدة مريضة ومهددة بالموت ربما، لكن
عاشت أعوامًا طويلة فلم ماتت في هذا التوقيت
بالتحديد؟!

رفضت أحلام الصبية الصغيرة أن تذهب لتلد لدى
الطبيب لكنه حملها على ذراعيه إلى المستشفى وعادت
منها تسير على قدميها فكيف في لحظة دخل غرفتها
ليجد روحها فارقتها؟!

ما الذي حدث يا جبر؟!

لماذا ما زال عاجزًا عن استعادة توازنه وعقله؟!
الموت حق.. الموت يأتي في أي لحظة ويحمل من
شاء ويرحل في لحظة..

هل يكاد يفقد صوابه لأن الصغيرة ليست ابنته..

فليفكر إذن في هذه القضية وحدها..

تراه على نفسه حزين أم على رحيل أحلام وحرمانه
منها..

أما زال يحبها؟! وإن كان فكيف استطاع أن يقسو
عليها إلى ذلك الحد قبل رحيلها..

مدت نحوه يدها الضعيفة والرضيعة على ذراعها
تستجديه أن يحملها لكنه أشاح بوجهه بعيدًا..

ماذا يريد وإلى متى يبقى كالمجانين يخاطب نفسه؟
ليس الحزن على توحيدة أو ابنتها.. ليس الندم على
قسوته على أحلام أو ابنتها..

هو غرور الرجل.. هو حماقة الذكر..

كاد يقتل «الحكيمة» التي جاءت تعزيه حين قالت
في صوت مرتعش: «أحلام قُتلت»..

لم يمنحها لحظة.. كالذئب الجريح نهض عن مقعده
يطلب منها الرحيل.. لا يحتمل المزيد..

إلى متى؟!

القصة حزينة أكثر مما ينبغي.. تعرّض فيها للخديعة
والقسوة أكثر مما ينبغي.. هذه الصغيرة التي تحتضنها
أمه ليست منه، بل من رجل آخر..

أمامه طريقان وعليه أن يختار أحدهما..

فليأخذ هذا الهاتف الذي لا ينفك يحمله بين يديه
ويهبط إلى أمه ويصرخ فيها لتكفكف دمعها.. فليقرأ
عليها رسالة الطبيب لتعلم أن زوجته كانت خائنة وأن
قطعة اللحم الصغيرة الباكية بين يديها ليست منهم..
ليأخذها من على ذراعها ويذهب بها إلى ياسين الببلاوي
ويقذف بها في وجهه ويخبره بكلمات الطبيب وبتاريخ
زواجه ليعلم أن أمره وأمر أحلام افتضح!!

فليفعلها وليعد إلى بيته يبحث عن عروس يتزوجها
وينسى كل شيء!!

أو فليسلك الطريق الآخر!!

يترحم على أحلام الصغيرة الجميلة التي ماتت حزناً
وندمًا..

ليرحم أمه ويرحم شيخوختها ويهبط إليها يضمها
ويخبرها أنه بخير وليحمل «اليتيمة» التي لا ذنب لها
في شيء وليكرمها فكل ما فيها في رحم حبيبته تكوّن..
أحلام تحتاج أن يستغفر لها الله، وابنتها تحتاج أن
يغفر لها ما
فعلته به أمها..

حينما زاره بهجت منذ أيام سأله ألا يريد أن يصلي
الله عليه كما يصلي على حبيبه المصطفى..

بكي جبر لحظتها وهو يقول: «من أكون ليصلي الله
علي كما يصلي على رسوله؟!»

ابتسم الزائر لحظتها يخبره أن الحزن يعمي أعيننا..
كيف ينسى جبر ما علمه هو نفسه له..

ألم يكن دوماً يقرأ عليه الآية الكريمة التي تقول:
«الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه
راجعون أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك
هم المهتدون»..

أي الطريقين تختار يا جبر؟!

أن تشعل الدنيا غلاً وكراهية ويبقى صدرك بالندم
والألم مشتعلًا.. أم تخطو في طريق الصبر علّ الله أن

يحتسبك من الصابرين؟!

بقبضة يده دق على ركبتيه في عنف!!

الألم كبير.. يشتاق إلى أحلام.. يتمنى لو أنه ما قسا
عليها بعينيه وصمته.. لو أنه فقط أخذ منها الصغيرة
وضمها إليه ربما ما ماتت حزناً وكمدًا..

الصغيرة ما زالت معه فهل ينتظر حتى تموت هي
الأخرى؟!

الاختيار صعب والنار أكبر من أن يطفئها..

لحظات طويلة ينظر حوله وهاتف أحلام ما زال
مفتوحاً على رسالة ياسين..

لحظات يستعيد وجهها وحزنها وحياتها معا..

لحظات عمرها دهر يرى فيها وجهها غارقاً في الألم
حين أخبرته أن الصغيرة من رانحتها فليكرمها..

تنفيذ القرارات ليس صعباً.. اتخاذها هو الصعب
الكبير..

في صمت وبأصابع مرتعشة أغمض عينيه وضغط
يمسح الرسالة اللعينة التي أشعلت نيران الشك والألم
التي ما أطفأها حتى الموت..

محا رسالة ياسين.. لن يقرأها مرة أخرى.. لن تغتال
سطور حمقاء ذكريات الحب ودروس الرحمة من عروقه
أبداً..

غادر بيتًا خلا من سكانه، وهبط سلالم البيت إلى دار
أمه وهو يردد: «اللهم اجعلني من الصابرين»..

حين فتحت له إحدى جاراتهم باب البيت نكس رأسه
يلقي السلام ليدخل ويجد أمه على أحد المقاعد تجلس
والصغيرة على ذراعها لتقول بصوتها الدامع:
- هل نسميها أحلام؟!

رفع رأسه ينظر إلى أمه ليجد جارتهم تنقدم نحوها
وتحمل عنها الرضيعة وتخطو بها نحوه قائلة:
- هل تظنها السبب في موت عروسك؟

أنت أكبر من هذا يا جبر.. نحن جميعًا نتمنى لو
يصبح أبناؤنا في عقلك وطيبتك.. لا تظلم الصغيرة
يكفيها حرمانها من أمها.. خذها على ذراعيك واذكر اسم
الله علّه يلهمك لها اسمًا..

في تردد كبير نظر إلى المرأة التي تحمل ابنته..
ليست ابنته لكنها تبقى ابنة أحلام..

أرخی رأسه في صمت كأنه يقول: «أوليس هذا وحده
يكفي؟!»

انحنت المرأة في هدوء تضعها على ركبتيه ووجد
نفسه بلا وعي يحيطها بذراعيه خوفًا عليها من أن
تسقط وغاب ينظر إلى وجهها الصغير النائم..
الاختيار صعب لكنه واجب..

رفعها عن فخذه بين ذراعيه.. لم يخذل أحلام يوماً
وهي على قيد الحياة فكيف يخذلها بعد أن غابت..
كانه صوت غير صوته وكأنها شفاه غير شفاهه تلك
التي تحركت..

رفع رأسه يسمع ما يقول رغم كونه لا يعلم من ذلك
الذي بداخله يتحدث.. قال في هدوء:

- لا أستطيع أن أسميها أحلام.. صعب أن أنطق
بالاسم فتجيبني أخرى وإن كانت ابنتها.. فلنسمها
بسمة.. علّ الله يجعلها بسمة تنير حنايا الحزن الكبير..

كان صوته هادئاً عميقاً كأن ملكاً على الحديث يعينه..
لا هو ولا أمه سمعا دقات الباب، وحدها الزائرة خطت
وفتحت الباب وأخذت تناديه لينهض والطفلة ما زالت
على ذراعيه غافية..

حين اقترب من الباب رأى ياسين يقف منكشاً رأسه
ودون وعي ضم الطفلة إلى صدره في قوة كأنه شعر
أنه جاء ليستردها..

مدّ القادم كفه إليه قائلاً في ألم:

- البقاء لله!!

نظر إليه بعدها في قسوة وما زالت بسمته على
صدره ليحبيه في سخرية وقال:

- هل نقدم العزاء فيمن سرقونا؟!

لم يصدق تلك الدموع التي رآها في عيني زائره الذي
بقيت كفه ممدودة، ثم أكمل كلماته في صوت مرتعش
يقول:

- زوجتك قُتلت سيد جبر، والقصاص وحده عزاؤنا
جميعاً!!

* * *

ألقت بحجابها عن شعرها ووقفت أمام المرآة تنظر
إلى وجهها.. لماذا تسقط دموعها.. كانت تظن أن بسمة
كبيرة سترتسم على وجهها بل من أجل هذا جاءت إلى
المرأة..

أصبحنا نبكي في فرحنا كما نبكي في أحزاننا..

هل اعتادت الأعين دموعها أم أصبحنا نستعد لكل
صفعة نعلم أن الفرحة يخفيها في طيات ثيابه الزاهية!!
مدت مريم أصابعها تتحسس وجنتيها ورأت أصابع
كفها ترفع أطراف شفتيها كأنها ترسم عليهما ابتسامة..

حافظة نقودها الخاوية يرقد فيها الآن بضع ورقات
مالية.. للتو وضعت قطعاً من اللحم على النار ليجدها
مصطفى عند عودته من المدرسة.. اشترت له ما طلب
من الكتب والأهم لن تضطر أبداً للتجول على
المستوصفات والمستشفيات والوقوف بأبواب الأطباء
تستجدي عملاً..

هي الآن تعمل، بل وعدّها دكتور ياسين أن يجد لها
عملاً آخر بالإضافة إلى عملها معه في المستشفى الذي
يعمل فيه هو وزوجته إن شاءت!!

لماذا تبكي إذن؟!

حزينة على ياسين وما زالت حزينة على أحلام، بل
حتى على زوجها الذي طردها من بيته.. يأكلها الحزن!!

بكى الطبيب كالأطفال عندما أخبرته بموت أحلام
حتى كادت تذهب خلف مكتبه وتضمه إلى صدرها كما
تفعل مع وحيدها..

حين استعاد السيطرة على زمام روحه وعدها أنه أبداً
لن يترك وائل ينجو بفعلته، لن يتخلى عنها حتى تبرأ
ساحتها هي الأخرى من اتهام السرقة..

أغمضت مريم عينيها في سكون..

كم هو جميل أن يخبرك أحد أنه معك ولن يتخلى
عنك..

أخبرها أنه قد يحتاج شهادتها أمام النيابة وفي
المحكمة وأخبرته بمخاوفها من جبر.. أخبرته أنه طردها
من بيته ودون موافقته على إجراء التشريح لن تكون
هناك قضية..

لماذا لا تكف عن التفكير في هذه الأمور؟! لماذا لا
تمنح نفسها لحظات تسعد فيها بحصولها على عمل
ونقود وطعام؟!

حين أعادت النظر إلى مراتها ورأت وجهها الجميل
المنعكس علمت أن هذه الأموال وتلك المشتريات
الغافية في أكياسها تنتظر عودة وحيدها من المدرسة..

كل هذه الأشياء على أشلاء تلك المسكينة تقف..

إن لم تمت أحلام ما حدث كل هذا وليتها حقاً ما رأتها

يوماً

ولا عرفتها..

صعب جدًا أن تضحك أو تبتسم إن كان في حياتك
امرأة كنتك وماتت بدناءة كهذه!!

هل نغار من الموتى؟!

هل هذا هو السؤال حقًا؟! أبدًا، السؤال الحقيقي هو:

ممن يجب أن نغار؟!

نحن نغار ممن يأخذون اهتمامًا أكثر مما نأخذه نحن

رغم أننا نمنح أكثر..

نغار من أولئك الذين نعلم أنهم يسكنون أجفان من

نحبهم حتى

لا يتركون لنا فيها سوى مساحة صغيرة نرقب فيها

أنفسنا ونحن نتمزق حبًا وحسرة!!

أقلت ألفت بحقيبتها على مقعد مكتبها في العيادة

وجلست تفكر.. هل تغار من أحلام؟!

إن كانت تفعل فلتصرخ صرخة كبيرة في وجه زوجها

وتطلب منه الابتعاد عن القصة بأكملها.. فتاته التي كان

يحبها قُتلت وقام هو بإبلاغ زوجها.. فلتصرخ وتخبره

أنه في طريقه لأن يقتلها هي أيضًا غيرة وألما..

القصة ليست أبدًا قصة حب..

القصة قصة الشابة الجميلة التي لوثوا سمعتها

واتهموها ظلماً بالسرقة لتصبح بلا عمل والتي أحبت

ألفت ذاتها العمل معها..

مريم هي القصة..

القصة أيضًا قصة وائل السمنهوري، الطبيب المستهتر
الذي قتل أمًا لثحرم منها ابنتها، وقد يقتل عشرات
أخريات..

ضمير ياسين هو القصة..

لماذا تترك كل هذا ولا تذكر سوى بكائه على موتها
وركضه هو ومريم خلف جبر حتى قبل الذهاب
لاستخراج طلب تشريح الجثمان؟!!

لماذا نغمض أعيننا عن كل الحقائق ونقف دومًا عند
تلك القصة الصغيرة التي ترفضها قلوبنا..

لأن القلب أهوج لا أعين له..

ياسين زوجها.. أحلام ماتت.. هناك رضية يتيمة
وحكيمة مطرودة متهمة.. وهناك هي..

ليست طفلة..

ليست أبدًا كبرياؤها التي تدفعها للسؤال عن القضية
كل يوم..

ليست أبدًا كبرياؤها التي تقف بينها وبين الصرخة
الكبيرة التي تريد إطلاقها كلما نطق ياسين اسمها..

ما يقف أمامها ومع زوجها هو صوت العقل.. صوت
الحق، ستسانده وإن تألمت.. حمقاء من تتألم من ميتة
ينبشون قبرها بعد ساعات..

حين أنهت ألفت أول كشوفات مرضاها الصباحية كان
ياسين على الهاتف يحادثها، وحين استجمعت كل قواها

وأجابته في هدوء سمعته يبكي من جديد وهو يقول:
- جبر سقط مفضيًا عليه حين أخرجوا أحلام من
قبرها!!

كيف نحب من ظننا أننا لن نحبهم يوماً؟!

كيف نظنهم سر شقائنا وفي لحظة يصبحون وحدهم
ترياق الأمان ونسائم صدورنا..

تهدد جبر وهو يعود بظهره على مكتبه الصغير في
مصنع الأسمنت الذي يعمل فيه..
اليوم تظهر نتيجة المعمل الجنائي..

أسبوع وأحلام ترقد في غرفة التشريح بعيداً عن
قبرها..

خمسة عشر يوماً على ذلك اليوم الذي طرق فيه
ياسين بابه ليجلس معه نحو الساعتين يقنعه بضرورة
التوجه إلى النيابة ليوقع بلاغاً في الطبيب..

ساعتان لم تفتح فيهما الصغيرة عينيها ولا شفتيها
طلباً للطعام أو بالصراخ والبكاء كأنها هي الأخرى كانت
على ذراعيه تنصت إلى خطبة ياسين..

أخبره في البداية أنه وإن أقام الدنيا وأقعدتها لن
يوافق أبداً على استخراج جثة زوجته ليتركهم يمزقون
فيها..

نظر إليه برجولته الذبيحة وسأله قائلاً:

- دكتور ياسين حتى إن كان الطبيب قتل أحلام.. هل
يعيدها إلى الحياة أن أتركهم يفتحون أحشاءها؟! وهل
يفترض أن أصدق أن هذا ما حدث لمجرد أن حكيمة

كانت تقف في غرفة العمليات وتظن أنه ما قام بعمله
كما يجب؟! أي جنون وأي حماقة؟!

حاول ياسين أن يكون صبورًا وحكيماً.. نظر إليه
طويلاً وقال
في ألم:

- أنا أيضًا لا أعرف.. أنا أيضًا لست متأكدًا.. سيد جبر..
أحلام فتية قوية لم تكن لتموت بعد الولادة دون سبب..
أنا من أرجوك أن تسمعني وتقول في النهاية كلمتك..
هل كان نرف أحلام بعد الولادة أكثر من الطبيعي؟! هل
كانت واهية ضعيفة لا تقوى على الحركة؟! هل أصابتها
حمى؟! هل فشلت في إرضاع ابنتها؟! إن كانت الإجابة
نعم فهذا يؤكد ما أقول.. لا معنى لكل هذا سوى أن
الطبيب ترك قطعة من المشيمة بداخل رحم زوجتك
فتأخر ظهور اللبن لأن إفراز هرمونات الحمل ما زال
مستمراً.. أتوسل إليك أن تكون صادقًا وتجيب..

كيف ينسى أنه نظر إليه في ألم وعاد ينظر إلى وجه
الصغيرة الغافي على ذراعيه.. قبل أن ينطق كلمة عاد
يرجوه قائلاً:

- في أعين الناس جميعهم أحلام سرقنتي، لكنها في
الحقيقة منك أنت ومن هذه الصغيرة سرقنت.. ألا تأخذ
حقها؟! ألم يقل الرسول إن الساكت عن الحق شيطان
أخرس؟! لست شيطاناً.. هل تريد أن تموت ألف أحلام
أخرى وتترك ألف صغيرة كهذه التي على ذراعيك دون

أم؟! من أجل الحق أريدك أن توافق.. في القصاص
حياة.. امنحها الحياة أرجوك..

كيف ينسى أنه بكى رغماً عنه ورفع عينيه إلى ياسين
في تلك اللحظة يقول:

- أنت من يتحدث عن الحياة.. قتلت أحلام مرتين
واليوم تطلب جثمانها للعبث فيه.. لن أفعلها أبداً..

كان يعلم بكل قطرة دم في عروقه أنه لن يوافق لكنه
في النهاية وافق وذهب وكتب المحضر ووثّقه..

ذهب عندما انهار ياسين أمامه وبكى يخبره أن له
حقاً في أحلام.. ليس حق القاتل كما أجابه جبر لكنه
حق المظلوم على الظالم..

بكى الزائر كالأطفال وهو يعلن إيمانه بأن أحلام لم
تسرقه..

لا يعرف ماذا حدث لكنها لم تسرقه.. لها عليه حق
المظلوم وللمظلوم دوماً حق القصاص..

في لحظة شعر جبر أن بكاءه رد اعتبار لكرامته، لكنه
رأه يرتجف كطائر مذبوح..

وضع الصغيرة على أحد المقاعد واتجه إليه يحاول
أن يساعده..

انتابه زعر كبير، بل شعر أن ياسين سيموت هو الآخر
ويبقى وحده ينعيهم جميعاً..

هدأ الرجل وهدأ جسده بعد لحظات كان جبر يمسك
فيها بذراعيه ورمى بنفسه على المقعد قائلاً:

- ليس جسد أحلام ما يهمنا الآن.. روحها الحائرة هي
التي تهمننا.. إن قتل الجسد طيب مثلي فلتنقذ أنت
الروح..

ظن أنه لن يحب الصغيرة وأحبها بل أصبحت لا تنام
إلا على ذراعيه كل ليلة..

ظن أنه لن ينبش قبر أحلام وتركهم ينبشونه..

ظن أن ياسين غريمه فإذا به يضمه إلى صدره يوم
فتحوا القبر ورأهم يخرجون جثمانها في حضور قوة
من الشرطة وطبيب التشريح، اهتزت كل الصور في
عينيه.. ليسقط هو الآخر مغشياً عليه بين ذراعي
ياسين.. هم جميعاً قتلى وهم جميعاً مذبحون..

ما عاد بإمكانه أن يفعل شيئاً سوى الانتظار، ربما كان
ياسين

على حق..

ليس الجسد ما يهم.. الروح هي التي يجب أن تهدأ..

انتفض جسده لرنين هاتفه وفتح الخط ليجد الطبيب
الشرعي يحادثه قائلاً:

- سيد جبر.. انتهينا من عملية التشريح والتقرير
جاهز.. السيدة أحلام ماتت متأثرة بترك جزء من
المشيمة داخل الرحم وهو إهمال جسيم أدى إلى
الوفاة!!

في حنان نظر فاضل إلى عينيها المترددتين وانحنى
يمسك بكفها المرتعشة ليبتسم قائلاً:

- مبروك حبيبتي.. وفُعي ولنذهب إلى المفاجأة التي
تنتظرك..

بعد نظرة طويلة إلى الأوراق ونظرة سريعة إلى مدير
القروض البنكية وقعت أوراق القرض ورهن الفيلا
وأخذت نفساً عميقاً من صدرها وقالت:

- ماذا بعد؟!

لم يقل الرجل شيئاً سوى أنه نهض من خلف مكتبه
وتقدم نحوها يخبرها أن ملايين القرض ستكون رهن
تصرفها لتفعل بها ما تشاء..

سعيدة هي رغم حيرتها.. بداخلها تردد لكن إيمانها
برغبة فاضل في النجاح تهددها..

رهن الفيلا وعقد البيع المسجل للبنك لا يخيفها..
إقرارات سلمتها للبنك عن إجراءات التأخير في السداد
لا تحرك فيها شيئاً..

فاضل سيبدأ تنفيذ مشروعه خلال أيام.. مركز طبي
كبير اتفق على شرائه باسمها وحدها يتولى هو إدارته
والإشراف عليه وانتقاء أطبائه والعاملين فيه في أحد
أحياء منطقة التجمع الخامس..

في خلال عام يبدأ في تسديد القرض الذي عمره عشرة أعوام.. بل إن سارت الأمور كما يراها قد يتمكن من التسديد كاملاً في خمسة أو سبعة أعوام وعندها يتم تخفيض قيمة الفائدة المضافة..

كل شيء تم قتله بحثاً في الأشهر السبعة الماضية.. لا داعي إذن لأن تستعيد التفاصيل للمرة الألف في رأسها.. نهضت ناهد عن مقعدها وحملت حقيبتها في يدها ليضمها فاضل بين ذراعيه ويفادرا البنك وعلى الباب الخارجي استدارت تسأله عن المفاجأة..

في طريقهما لتناول الغداء في أحد الفنادق الكبرى مال على وجنتها المصبوغة بالألوان ليضع قبلة سريعة وهو يشرح لها أنهما سيذهبان لشراء سيارة حجزها لها منذ فترة..

شهقت ناهد في فرحة وهي تسمعه يخبرها أنه لم ينس أبداً كيف أبدت إعجابها بـ «البورش» وأسرع في الخفاء يطلبها لها وأن موعد تسليمها بعد أسبوع لكنه يريد أن تختار اللون الذي تشاءه..

لا ينسى شيئاً تحبه.. يسقيها من شبابه وطموحاته وأحلامه حتى تكاد تشعر أنها عادت خمسين عامًا إلى الوراء..

ستجلس خلف مقود البورش الحمراء وهذا الشاب الوسيم إلى جوارها وفي غضون عام تصبح الملايين بين أيديهما كنهر قبلاته وعناقه..

لن تنسى وحيدها.. ستمنحه بضعة ملايين له
ولزوجته..

ستشتري منهما حبا أكبر من هذا الذي يبدو في
أعينهما.. كل شيء يُشترى..

في لحظة سألت فاضل في تردد قائلة:

- هل ندفع أكثر من مليون في سيارة ونحن لم نبدأ
مشروعنا بعد.. أليس هذا تهورا؟!

انطلق بسرعة مجنونة على الطريق وهو يخبرها أن
التهور كله
ألا يفعلا..

استدار ينظر إلى وجهها الغارق في الدهشة والفرح
وصاح كأنه تحول هو الآخر إلى طفل يقول:

- تستمتعين بالسيارة أسبوعا أستلم خلاله مقر
المستشفى ثم نتركه لشركة المقاولات تحت إشراف
صديقي ونطير إلى جنيف حبيبتى وبعد عودتنا نتفرغ
للعمل وأعدك أن كل هذه الملايين ستعود ومعها ملايين
كثيرة..

الملايين تطرق الأبواب وتدخلها فقط إن كانت هناك
ملايين أخرى تنتظرها بالداخل..

من خلف مكتبه كان يرقب مقعد الـ (Lazy Boy) في
إجهاد..

ما نظر إليه يوماً إلا ورأى وجهها النائم عليه وهي
تتحسس جنباته كأنها تضمه هو إلى جسدها يوم كان
يزور أمها..

كم يشتاقتها وكم يقتله الحزن عليها..

ما عاد يشك لحظة في براءتها.. أحلام حملت الجزء
الصغير من هذا المقعد لتتنسم رائحته في الغياب أو
الموت..

يفهم هذا ويؤمن به لكنه ما زال عاجزاً عن فهم
تعجلها للزواج..

هل كانت حقاً حاملاً.. أم أنها كانت بحاجة إلى النقود
لتنفق على مرض أمها..

لا يظن أحد سواها يملك الإجابة، وقد دفنت معها كل
الإجابات..

هل يخبر زوجها بشكوكه.. هل يطلب إجراء تحليل
للصغيرة.. هو اعتراف بأن علاقة جسدية جمعتهم
بأحلام.. هل يقتلها مرتين؟!

يكاد ياسين يجن، بل هو مجنون بالفعل..

ذهب إلى المقعد وجلس عليه يتحسسه في ألم..
الأشياء تحمل رائحتها لكن من قال إن الرائحة في

غيابهما ليست ألفا فوق الألف!!

لا يستطيع أن يواجه جبر بظنونه..

هذا الشاب يحتمل ما لا قدرة لبشر عليه..

فقد زوجته..

تزوج متهمة كادت تصبح من أرباب السجون.. في أقل من أسبوع حمل على كتفيه جثمان عروسه وأمها ثم أخذ قرآنا بالنبش في قبرها ليعيدها إليه مرة أخرى ويعود إلى أمه المعاقة وهو يعلم أن عروسه قُتلت بعد أن حملها هو على ذراعيه إلى طبيب اغتالها..

ما بقي لجبر شيء سوى هذه الرضيعة التي رآها على ذراعيه..

هل يحتمل أن يخبره أنه يشك في أنها ليست منه.. حتى إن كان زوجها يعلم..

أن يعلم شيء وأن يعلم أحد غيره هو أمر آخر كبير.. يجب أن يتركه ياسين لجهله أو حتى ظنه إن كان لديه ظنون هو الآخر..

قليل من الشك والجهل هو أحيانًا كثير من الرحمة.. ما زال أمام جبر وأمامه طريق طويل.. المحضر تم تحويله إلى القضاء.. كلاهما يحتاج الآخر!! بدونهما مغا لن تكتمل القضية.. وائل السمنهوري يحارب بشراسة.. طعن في صحة تقرير المعمل الجنائي والقضية تتأجل شهرًا بعد الآخر..

الشك وحده يبقيهما مقًا.. الشك في بعض الأحيان هو
الطريق إلى العدل..

إن خانت أحلام أحدهما فالأمر الآن أكبر..

ياسين لن يستطيع أبدًا أن يقف أمام هذا الرجل
ويصيح هل حقًا الصغيرة ابنته؟!

إكرامًا لكل ما يحتمله لن يفعل.. إكرامًا لألفت زوجته
التي تؤازره لن يفعل..

ما عاد له سواها.. أمه في غسل زوجها المجنون
غارقة..

هم في أزمة كبيرة.. هم جميعًا في شرنقة خيوطها
من فولاذ

ولا يبقيهم جميعًا أحياء سوى الشك..

ما بقي شيء يقدمه لأحلام سوى الترخم عليها
والمضي في قضيتها علّ روحها تهدأ وتكف عن التجول
بين عروقه حتى وهو غاف على صدر زوجته..

الصغيرة قد لا تكون أبدًا ابنته.. لا يذكر أبدًا أنه بادلها
الغرام..

لا يرى على هذا المقعد سوى صورتها وهي عارية على
صدره لكنه دومًا يسمع صوته وهو يهمس في أذنيها
مؤكدًا أنها عذراء..

ما عاد حتى اليقين في تلك القصة يُجدي.. الحقيقة
لن تُنقذ أحدهم!!

حقًا.. قليل من الجهل قد يكون وحده كثيرًا من
الرحمة!!

كما جاءت توحيدة في يوم غابت في يوم.. كما
ولدت أحلام في قلوبهم وكبرت بين ذراعيها غابت هي
الأخرى في يوم لكنها تركت روحا خلفها.. تركت صغيرة
اقترب عمرها من التسعة أشهر..

صغيرة لن تحيا عواطف لها طويلاً بل إن بقيت على
قيد الحياة ترعاها معه تبقى تحتاج ما هو أكثر من
الرعاية..

في ألم رفع جبر وجهه يسألها ماذا تحتاج؟!

أرخت أمه عينيها في حزن وقالت:

- تحتاج أمًا شابة وتحتاج نقودًا هي من حقها..

عاد الذعر يسكن أوصاله من جديد.. إلى متى يبقى
مهزوزًا كلما قال أحدهم أمامه حرفًا ظنه يعلم الحقيقة..

أي نقود تلك من حق بسمة وأي أم شابة..

ابتلع ما استطاع من أنفاس ونظر إلى وجه أمه
المحمل بقصص يشعر أنه يجهلها وقال:

- هل تريد أن أتزوج؟!

كانت بسمة تحبو على الأرض تحت أقدامهما وهما
يتحدثان وسقطت دمعة على وجنتي عواطف لتقول:

- نعم.. أريدك أن تتزوج لكن ما هو أهم هذه

الصغيرة.. أريدك أن تؤمن لها حياتها يا ولدي.. إن أنا

مت ينقطع عنك وعنهما «معاش» والدك.. إن مت وميئة
أنا لا محالة لن يتبقى سوى راتب المصنع الذي يهددون
بغلقه بين الحين والآخر.. لا تحرم المسكينة من حقها
في موت أمها..

كأنه يستجديها الحديث والرحمة أكملت تخبره أن
وائل السمنهوري زارها وأخبرها أن القضية ستحسم
لصالحه.. أخبرته أن الطبيب أخبرها أن الحكمة ستغير
شهادتها في المحكمة وأن الطعن في تقرير الطب
الشرعي سيحسم لصالحه ورغم هذا يعرض عليهم مائة
ألف جنيه للتصالح..

عواطف قالت تلك الكلمات كأنها تزفر روحها معها..
تنهدت في ألم بعدها ووضعت كفها على يد وحيدها
وقالت:

- سجن الطبيب لن يعيد أحلام.. سجن الطبيب لن
يؤمن مستقبل اليتيمة يا ولدي.. لا نريده موثًا وخراب
ديار.. والله تلومك بسمة نفسها إن أضعت منها حقها..
تصالح مع الطبيب و..

لم ينتظر أن تكمل بل نهض عن مكانه وانحنى يحمل
بسمة على كتفه قائلاً:

- ليس طبيبا.. هو قاتل.. هل أضع يدي في يد قاتل؟!
هل أدخر لابنة أحلام نقودًا مصبوغة بدم أمها..

نكست العجوز رأسها وهي تقول:

- ما فائدة العناد؟! الحكمة ستغير أقوالها.. لا أومها..
هي الأخرى لها ولد تريد أن تربيته.. من أجل بسمه يا
ولدي..

في هدوء وضع الصغيرة على ذراعيها وأخذ يخطو
نحو باب البيت وقبل أن يصله عادت تصيح:
- حتى إن شنقوه يا جبر.. أحلام لن تعود!!

هل تخبره عندما يأتي؟! أم تنتظر حتى تحسم أمرها؟!

هل هي حقًا لم تحسم أمرها؟!

يقتلها بكاء مصطفى عندما سمعه يقول: «عشرون ألف جنيه».. بقي يقبل يديها كثيرًا يرجوها أن تذهب وتفعل ما طلبه منها الزائر..

وائل جاءها حتى بيتها يعتذر.. عرض عليها العودة للعمل معه.. أخبرها أنها ستكون معه في كل عملية يجريها منذ الآن فصاعدًا..

أخبرها أنه سيمنحها المبلغ على سبيل التعويض والاعتذار..

سألها في صدق ما فائدة أن يضعوه في السجن أو أن تسحب نقابة الأطباء منه بطاقة ممارسة الطب..

ليس ثأرًا شخصيًا.. أدرك أنه أخطأ ويتعهد أن يتغير..

يريد أن يكفر عن خطئه في حقها.. أخبرها أن زوج أحلام سيوقع معه تصالحًا نظير مبلغ فلم تحرم نفسها وولدها من أن تفعل؟

لا يريد لها أن تغير أقوالها.. كل ما يطلبه منها إن مثلت أمام المحكمة للشهادة أن تقول الحقيقة.. تركت غرفة العمليات ولا تعلم ماذا فعل الطبيب..

نصف الحقيقة بعشرين ألف جنيه..

هل تحب الميتة أكثر مما يحبها زوجها.. بل أين هي
أحلام الآن؟!
حائرة مريم..

تتمنى لو تخبر دكتور ياسين عند قدومه إلى العيادة
لكن تخجل أن يسيء فهمها..

هل حقًا تفكر في الانصياع لوائل.. لم لا؟!

إن كان زوجها تخلي عن دور البطولة بعد عشقها
الكبير له.. ليست بطولة.. هو الحق.. هي شهادة
يحاسبها الله عليها.. عشرون ألف جنيه تكفل لها
الاطمئنان على مصطفى حتى دخوله كلية الطب..
من يستمع لها.. من يناقشها؟!

رفعت رأسها تنظر حولها في عيادة ياسين وعادت
تتحسس بكفها المقعد الذي تجلس عليه..

كانت أحلام تجلس هنا.. هل تغضب منها.. ولم تفعل..
لا بد أنها في الجنة فلماذا تريد لهم أن يحيوا الجحيم؟!
الجحيم هو الشهادة الزور.. الجحيم أن تضع يدك في
يد الشيطان.. لكن وائل ليس شيطانًا.. مخطئ ويريد أن
يتوب.. لم إذن تبخل عليه بالمساعدة؟!

بدأت مريضات الطبيب في الحضور.. يجب أن تنهض
وتفتح الباب، دقائق ويصل الطبيب وزوجته ليمارسا
عملهما..

ربما تخبر دكتورة ألفت.. هي امرأة وستفهمها..

إن كان جبر قبل فلم تحرم نفسها وولدها والطبيب
من هذه الفرصة..

ياسين لن يذهب لحضور الجلسة لكن محاميه
سيخبره ما عساها عندها تقول؟!!

يجب أن تجد مخرجاً ما من كل هذا.. يجب أن تأخذ
قرارها قبل نهاية اليوم وخروجهم من العيادة..

حين أصبحت مريم أمام باب العيادة وفتحته شهقت
شهقة صغيرة عندما رأت جبر يقف أمامها في سكون
ليقول:

- لم أكن أتصور أن أدخل هذا المكان أبداً.. مؤلم فوق
الألم أن أفعل لكن لا أعرف بيتك وأريد الحديث معك..
أرجوك.. هل تسمحين؟!

هي الأرض عنده والسماء..

يحبها رغم أنه يراها أحيانًا تتصرف كالمجانين..

عندما تعيد ثوبًا اشتريته بعد شهور طويلة ادخرت فيها ثمنه لمجرد أن تشتري له لعبة يريدتها أو كتابًا يحتاجه يشعر أنها مجنونة..

تبكي كأطفال الروضة في مدرسته عندما لا يحصل على الدرجات النهائية ليشعر أنها مجنونة..

مجنونة عندما ترتعش يدها وأصابعها وهي تضع ترمومتر الحرارة في فمه وتجلس تتمتم بالآيات القرآنية وعيناها مفتوحتان كأفواه وأذان زملائه في لجان الامتحانات عندما يحاولون الوصول إلى إجابة منه يعينهم بها على النجاح..

مجنونة أيضًا يشعر بها مريم كل صباح وهي تقسم عليه أن يحافظ على نفسه ويبتعد عن الشجار أو الاختلاط برفاق السوء كأنها لا تعلم أن كل من في مدرسته لا يفعلون أو يقولون إلا ما تحذره هي منه..

مرات كثيرة وهو غاف على صدرها في ليالي الشتاء أخبرها أنه يراها مجنونة..

كانت دوما تضمه إلى صدرها أكثر وتقول الحب جنون خاصة إن كان حب أم ليس لها على الأرض سوى وحيدها..

يحبها مصطفى ويعلم أنه يقتل نفسه على الأوراق
والكتب ليصبح طبيبًا.. لكن يكره أن تكون أمه مجرد
ممرضة.. يكره أن يكون هذا بيت أكثر تلاميذ المدرسة
تفوقًا.. يكره كثيرًا أن لا يراها ترتدي ملابس كتلك التي
يرaha على شاشة التلفزيون.. يريد حياة تليق بدرجاته
وتفوقه..

يستحق أمًا أفضل!!

بالأمس وللمرة الأولى فكر في أن يعاقبها .. فكر في
أن يترك ورقة الامتحان في الشهادة الابتدائية خاوية
رغم أنه يعرف الإجابات جميعها..

موجوع ويكاد أن يجن منها..

أخبرته أنها لن تحصل على العشرين ألفًا التي سمع
الطبيب يعرضها عليها منذ أيام..

أخبرته أنها تتق في أنه سيفخر بها عندما يكبر ويفهم
معنى أن ترفض مبلغًا كهذا من أجل مبادئها..

تحدثت كثيرًا وطويلاً والدمع يرقص في عينيها بين
الحين والآخر ويدها تمسكان بذراعه في قوة على
طاولة الطعام الصغيرة التي كان يراجع عليها دروسه..

كان مغتاضًا منها حتى إنه قرر أن يترك ورقة الإجابة
خاوية ليؤلمها كما ألمته برفضها للنقود لكنه لم يستطع..
قبل نهاية الوقت المقرر بربع ساعة انثنى يركض على
السطور ويكتب عليها الإجابات..

حائق عليها ولن يحادثها.. حاولت كثيرًا معه عند عودته من لجنة الاختبار لكن لم يُجب بحرف واحد..

ذهبت إلى عملها في عيادة الطبيب بعد أن أشاح بوجهه عنها في عناد وهي تحاول أن تسأله إن كان يشتهي شيئًا تحضره في طريق عودتها..

ليست أمه.. مريم ملك له.. هو رجلها الذي يعمل ليحقق لها حلمها.. غاضب منها حتى الجنون بل إنه يفكر حقًا في هجرها والرحيل عنها..

انتهى من مراجعة دروسه وتناول الصحن الذي تركته له وها هو مستلق في فراشه عاجز عن النوم!!

ما زال يتلصص بأذنيه على باب بيتهم ينتظر عودتها.. ينتظر لحظة دخولها إلى فراشهما لتضع ذراعها حوله وتتلو آياتها القرآنية اليومية..

يريد أن يتنسم رائحتها رغم الغضب الذي يشق ضلوعه..

أسرع مصطفى يستدير في فراشه ويفلق عينيه عندما سمع أمه تدخل..

كان يشعر بها عندما وقفت على باب الغرفة ترقبه.. يحاول جاهدًا السيطرة على جفنيه ليبقيهما مغلقين لكنها حتمًا علمت أنه ليس نائمًا..

فتح عينيه ونظر إلى وجهها الجميل لتقترب من فراشه وتجلس إلى حافة الفراش، ثم تقول:

- لم أعاملك يومًا على أنك طفل.. أعلم أنه من الصعب عليك أن تفهم.. لكن كنت أظن الأصعب هو امتناعك عن الحديث معي.. لست ضعيفة.. أنا في الخارج أحارب جباهاً كبيرة لا تدرك أنت جبروتها.. عندما تكبر وتصبح طبيبًا ستري كم أن العشرين ألفًا مبلغ ضئيل أمام حبي واحترامي لك ولنفسي وللطبيب الذي أنقذني من الضياع ولروح أم حُرمت منها طفلتها.. يرى عينيها تدمعان ويشعر بانتفاضة كفها على ذراعه.. يريد أن تهدأ لكنه غاضب..

يرى نفسه أكثر منها قدرة على التفكير والحكم على الأمور..

أغمض عينيهِ وسمع صوتها يهمس:

- أنا أمك ورغم هذا أرجوك.. قل شيئًا!!

استدار مصطفى على فراشه في حيرة لا يفهمها وقسوة لا يعي تأثيرها على الباكية ولم يقل حرفًا واحدًا!!

غذا عيد بسمه الأول..

حملت عواطف بسمه على ذراعها وخطت بها في
حذر شديد.. تخشى أن تقع بها لكن لا تستطيع أبداً أن
تتركها نائمة على مقعد الصلاة حتى عودة أبيها..

هي فرحتها الوحيدة..

حين وضعتها في فراشها وأنهت قراءتها اليومية في
المصحف شعرت بدمعة تتسلل من عينيها..

الأحزان تجتمع في أسبوع واحد..

بالأمس كانت ذكرى رحيل توحيدة.. كم تشتاقها..

عام بأكمله لم تشرب معها القهوة.. عام لم تشاركها
في حياكة ثوب أو تبادلها خلال الحياكة النكات
والقصص والأحلام..

الأحلام!!

بعد أيام تأتي ذكرى رحيلها الأولى..

عام دون أحلام أو توحيدة بكل أعوام الأحزان والألم
على وجه الأرض..

غذا عيد مولد بسمه الأول..

ما زالت لا تعرف كيف ذهبوا إلى المقابر بالأمس
واستقبلوا الزوار واستمعوا إلى القرآن الكريم اليوم
بأكمله.. وكيف يستيقظون في الغد ليشعلوا شمعة

للصغيرة ويقولون لها كل عام وأنت بخير.. وبعد أيام قليلة يعودون للمقابر والبكاء على ذكرى رحيل أحلام؟! كل فجيعاتهم تجتمع في أسبوع..

مسكين جبر.. أصبحت بسمة أفيونة أيامه ولياليه..

أخبرها أن الحكم في قضية الطبيب مطلع الأسبوع القادم.. عام بأكمله ينتظرون الحكم على قاتل أحلام..

تعبت عواطف وتتمنى الموت هي الأخرى لكنها تنسب بالحياة من أجل ولدها وابنته..

إن ماتت من يرعاها وهو في عمله صباحا أو على سيارة الأجرة التي اشتراها ويعمل عليها مساء..

إن ماتت من يعمل في الحياكة ويساعده على سداد أقساطها.. بل إن ماتت من يخفف عن مريم أوجاعها ومعاناتها مع ولدها..

أصبحت مريم تزورهم كثيرا.. جمعتهم القضية ورحيل أحلام.. تحبها عواطف كما أحبت توحيدها وابنتها..

والله لو لم تكن أكبر من جبر لطلبت منه الزواج بها، بل إن فارق السن البسيط بينهما ليس هو ما يمنعها أن تفعل.. ترى الإعجاب في عيني الأم الشابة في كل مرة يتزامن وجودها مع حضوره..

تعرف بريق الحب والإعجاب لكنها أيضًا وبعد أن فتحت لها الشابة صدرها أصبحت تعلم علم اليقين أنها

لن تستطيع الزواج
لا من جبر ولا من سواه.

هي أسيرة لولدها.. ضعيفة أمامه.. هذا الطفل البالغ
من العمر ثلاثة عشر عامًا يتحكم في مصيرها
وخطواتها.. بل إن حدث وتزوجت ولدها سيسقيها هذا
الطفل مرار الصبار..

جبر اكتفى من شرب المر والمرار..

لن تلتفت نظره إليها.. لن تدعه يرى كم تحبه وكيف
تتلفت بعينيها بحثًا عنه في كل مرة تأتي هنا..
يا رب امنحني أعوامًا أخرى على قيد الحياة..

أعوامًا قليلة فقط حتى تذهب بسمه إلى المدرسة
وتتعلم مريم كيف تُظهر ولدها من أنانيته وتسلطه عليها
وبعدها حررها من كل هذه الآلام .. حررها من ساقها
العرجاء وقلبها الميت..

حررها بالموت من قيود الحياة التي ذبحتها في العام
الأخير..

لماذا أحضر بسمه معه؟!

عارضته أمه كثيرًا لكنه أصر أن يحملها على ذراعيه
ويأتي بها إلى المحكمة لتكون معه عند النطق بالحكم..

كيف أصبح يحبها كل هذا الحب حتى وهو يعلم أنها
قد لا تكون ابنته.. بل هي ليست ابنته..

ضم رأسها الصغير إلى كتفه وهو يعبر الشارع نحو
باب المحكمة..

أقنع نفسه في الفترة الأخيرة أنها قد تكون حقًا منه..

لماذا يصدق كلمات الطبيب الذي يقاضيه بتهمة
الإهمال والكذب.. أليس رجلًا بلا ضمير الذي كان
يتمكن أن يتم عمله وتبقى أحلام ولا تموت..

ألم يكن رجلًا كاذبًا لا كلمة له يوم جاء يخبره أن
مريم قبلت حفنة من النقود وفي طريقها لتغير أقوالها
وأخبرها عنه ذات الشيء..

لماذا يصدق من لا ضمير ولا كلمة له يوم أخبره على
باب العمليات أن بسمه ابنة تسعة أشهر ولا يصدق
تاريخه مع أحلام..

صلاتها ونقاءها وعذريتها..

تململت بسمه على كتفيه وهي تهمس «بابا» ليضمها
أكثر ويخبرها أنه سينزلها عن ذراعيه بعد لحظات..

كل حارة «السكر والليمون» يحبون هذه الصغيرة..
أجمل من كل أطفال الشارع.. ضحكاتها.. كلماتها
البيسطة.. عيناها الواسعتان وشعرها الناعم..

كان الله يمنح اليتيم شيئاً يجعل الأفئدة تهفو إليه..
نعم.. يريدونها أن تسمع الحكم على من قتل أمها حتى إن
لم تفهم ويريد قاتل حبيبته أن يراها حتى إن لم يشعر
أو يتألم..

وجد المحامي في ردهة المحكمة وحين استدارا
ليدخلا معاً القاعة رأى مريم تخطو نحوهم على البعد..
جميلة هي الأخرى..

ملامحها الناعمة الهادئة كأنها طائر سنونو منمنم يراه
يغزو قلبه في حنان.. حجابها دوماً أسود يظهر لون
بشرتها البيضاء التي بدورها تظهر سواد عينيها
الواسعتين..

جميلة مريم لكنها مثله حزينه.. لم يرها يوماً تبتسم..
لا ينسى يوم طرق باب العيادة وأخبرها بحاجته إلى
الحديث معها.. سمعته في صمت وهدوء لم يصدق
حين علم بعد كل ما قاله أن الطبيب عرض عليها رشوة،
بل وأخبرها أن جبر نفسه أبرم معه العقد..

كانت هادئة حانية أجمل من كل المرات التي رآها
فيها قبلها أو بعدها..

ربما لأنها هناك في عيادة ياسين ترتدي طاقم
التمريض الأبيض، أو ربما لأنهن كلهن بالقرب من الطبيب

جميلات .. أرخى عينيه بعد عضة ألم قرصت قلبه في
قسوة.. لم يشك دوماً فيه؟!

ياسين ليس زئر نساء.. كان يحب أحلام وتحبه.. ما
بينهما ليس أبداً علاقة دنيئة.. رسالته لها كانت تقول..
بكاؤها ودمعها كان يقول..
لماذا يتذكر كل هذا؟

أحلام ماتت وياسين تزوج.. بسمة ابنته ولن تكون
سوى هذا..

شعر بمريم تمد ذراعها نحوه لتأخذ الصغيرة على
صدرها وهي تهمس:
- لماذا أحضرتها يا جبر؟!

عاد ينظر إلى وجه السنونو الجميل قائلاً في حنان:
- أريد أن أخبرها يوم تكبر أنها شهدت العدل بعينها،
وأريد للظالم أن يرى ما فعله بها..

حين جلسا في آخر صفوف القاعة، وحين أخذت
تلاعب الصغيرة في حنان لم يصدق عينيه أبداً عندما
رأى ياسين يدخل القاعة ويحاول أن يصل إلى محاميه
بين جموع الحاضرين..

تردد كثيراً لكنه في النهاية رفع ذراعه ليراه القادم
ويتقدم نحوه ويقف مشدوهاً ينظر إلى ابنته الصغيرة..

لحظات من السكون والدهشة مد ياسين بعدها
أصابعه ووضعها على رأس الصغيرة قائلاً:

- ابنة أحلام؟!

رأى جبر الصغيرة تدير رأسها إليه بعد مرور أصابعه
على شعرها ورأى ياسين يتجول على وجهها الجميل
ودمعة تتجول في عينيه كأنه غائب قال:

- هل لي أن أحملها قليلاً؟!

حين مدّت مريم ذراعها بالصغيرة إليه تمنى جبر لو
يصيح ويعود بها قبل أن يلمسها ياسين، لكنه رآه
يأخذها ويضمها إلى صدره ودمعة صغيرة تسقط من
إحدى زوايا عينيه وهو يهمس:

- يا رائحة أحلام.. رحم الله أمك.. كانت ملكاً!!

دون وعي استعاد جبر ابنته وقال في ألم:

- أحياناً أسأل هل قتلها الطبيب وحده؟ أم قتلتها
مريم يوم علمتها التمريض؟ أم أنت بقصة المقعد
المجهولة؟ أم تراني وحدي القائل بحبي وسذاجتي؟!

قبل أن يدخل ياسين إلى سيارته استدار يرفع عينيه
 ناظرًا إلى ميزان العدل الكبير المرسوم على حائط
 المحكمة التي غادرها للتو بعد سماع الحكم.. حكمت
 المحكمة بالعدل حقًا؟!

عام من السجن وشطب اسم الطبيب من نقابة
 الأطباء..

عام لطبيب أخطأ وحين أخبروه أن يتدارك الخطأ
 طرد من أخبرته ولوث سمعتها وترك المريضة تموت
 إرضاء لغروره وقسوته.. لهذا ربما رسموا حاملة الميزان
 مغمضة العينين فهي لا ترى حجم الخسارة ولا دماء
 المذبوحين..

إلى الأوراق والقرائن فقط تستند العدالة..

استدار ليفتح باب سيارته وقبل أن يفعل سمع صوتًا
 خلفه يصيح باسمه..

جبر!! مسكين.. هل يريد أن يستأنف؟ بل ما أدرهم
 أن القاتل لن يستأنف ويأخذ حكمًا مخففًا؟!

حين استجمع قواه وأخرج المفتاح من باب السيارة
 واستدار رآه يلهث والصغيرة على كتفه مقترنًا منه حتى
 أصبح أمامه..

أرعى ياسين عينيه وقال في صدق:

- آسف.. هو القانون!!

كان جبر يضم الصغيرة إلى كتفه وكفه على رأسها
الصغير ليقول:

- لم الأسف؟! لم خرجت ولم تنتظر.. نحن لم نتوقع
حكفًا بالشنق ولا نريده ميثًا.. يكفيننا أنه لن يمارس
المهنة.. يكفيننا كثيرًا أن لا تموت أحلام أخرى تحت
يديه.. ما زال حسابه مع الله قائمًا والله وحده أحكم
الحاكمين..

كان صوته متهدجًا صادقًا.. التقط أنفاسه لحظة وعاد
ينظر إلى دمعات ياسين ليقول في صدق:

- لست حانقًا عليك.. لم أكن أعلم بوجودك ولا كنت
تعلم بوجودي.. رغم كل شيء لا أملك إلا أن أشكرك..
سمعه ياسين في ذهول.. كلمات الرجل لها ألف معنى
وكل معنى له ألف تفسير..

رحلت أحلام.. رحلت من كانت عليها الخصومة..
نظر إلى الصغيرة على كتفيه وأغمض عينيه في ألم
قائلاً:

- لا مزيد من الألم.. إن دفعتك مرة للنبس في قبرها
والعبث بجثمانها.. أعدك أن لا مزيد..

أنا هنا أحمل لك ولبسمنتك كل الحب.. ليتنا أصبح
أصدقاء.. هل نحاول؟!

هل يفهمه ياسين؟ هل حقًا فهم ما يعنيه.. بل لم لا
يتحادثان بكلمات مباشرة؟!

ابتسامة صغيرة لاحت على وجه جبر.. في الحديث
المباشر موت كليهما أو أحدهما ومن الموت جميعهم
اكتفوا..

كانه يودعه نظر إلى عينيه في حسرة، وقبل أن
يستدير عائداً إلى حيث تقف مريم وحدها في سكون
قال في انكسار:

- نحاول؟! لم لا؟!

ما زال عمر ناطوژا لها.. ما زال المشروع باسمها وما
زال فاضل يلاحقها كالجرو لكن ناهد تشعر أن شيئًا تغير
في هذه الأعوام الثلاثة..

ربما بدأت تتعب من الخروج إلى مستشفى
«الجميلات» كل يوم.. ربما أصبح حجم الأوراق
والفواتير والأقسام أكبر من أن تستوعب فهمه..

أو ربما بدأت تمل الحب والجنس والخروج إلى
السهرات والدعوات.. ربما أي شيء أو كل شيء لكن
بالقطع هناك أشياء تغيرت..

معدل دخل المستشفى يتأرجح في العام الأخير بين
الثبات على معدله أو الانخفاض الحاد..

ولاء موظفي المستشفى وأطبائها ما عاد لها وحدها..
أعينهم جميعًا كلما رأتها تدخل اجتماعًا أو تزور قسما
تنظر إليها في برود كأنها ترجوها الرحيل أو الابتعاد..

أذكى من أن لا تفهم..

حتى ولدها ألقى إليها في العام الأخير بأكثر من
تلميح عن قلقه.

ياسين لا يعلم أبدًا أنها رهنت بيتها للبنك..

لا يصدق أن يبيع والد فاضل عقارًا قديمًا ويمنحه كل
هذه الملايين ليقيم بها مشروعًا باسم أمه إلا إن كان
يفعل لتكون وحدها كبش القداء..

تعبت من عيونها المفتوحة حول فاضل وأمام
ياسين.. أحيانًا تمني لو تأخذ زوجها ويفلقان البيت
والمستشفى ويهاجران إلى أرض بعيدة لا يهتم فيها
أحد بعمرها أو عمر زوجها ولا ترتعد هي خوفًا من كل
وجه جديد يقدمها فاضل إليه خشية أن يخطئ ويظنها
أخته الكبرى أو..

أو «أمه»!!

لظمت بكفها جبهتها تنظر إلى مرآة حَقَامِها.. هنا فقط
مسموح لها أن تقف بوجه خالٍ من الألوان.

ماذا فعلت بنفسها؟!

كانت صحبة عاصم أهون وأرحم!!

إن كانت حياتها معه موثًا.. كان عليها التحرر منه
وإصلاح ذاك الخطأ والخروج منه..

لا شيء يتم إصلاحه بعد الأوان!!

زواجها بفاضل ألم جديد ما عاد بإمكان أعوام عمرها
أن تحتمله..

ظنته يعيدها إلى شبابها.. هناك أشياء إن ذهبت لا
تعود!!

تحيا في تحدٍّ مستمرٍ مع نفسها ومعه..

كل صباح يجب أن تثبت للأخرين أنها إن لم تكن في
عمره فهي في جمال وأناقة وصحة من هم في سنه..

في المساء يجب أن تثبت له أن الرغبة ما زالت
تسكنها وبإمكانه أن يأخذها متى شاء..

وضعت ناهد نفسها في مسرحية ظنت أنها تُنسيها
الماضي أو تعيدها إلى ما قبله فإذا بها تُحفل نفسها
أطنانًا ما عادت تستطيع حملها..

من خلف باب حمام غرفتها سمعته يناديها وأسرع
تفتح باب دولاب صغير في ركن الحمام تضع فيه
أدويتها التي لا تتناولها أبدًا أمامه..

حين أعادت قارورة الدواء إلى جوار عائلتها نظرت
إلى مجموعة دوائها.. فيتامينات للشعر وللعظم ودواء
ضغط وشرابين..

هل حقًا لا يرى فاضل «الطبيب» كل هذا ولا يعلم أنها
تأخذه..

بلهاء عندما تحيا معه كالنعامة، ودنيء عندما يلقي
إلى أذنيها من وقت لآخر رصاصات تخبرها بأنها عجوز
متصايبة..

عاد صوته من الغرفة يناديها وتنهدت في ألم.. أحيانًا
تشعر أن فاضل يأخذ جسدها إذلاً وليس حبًا..

لن تستسلم أبدًا..

ليس الآن على الأقل..

وضعت قطرات من العطر ووضعت جسدها داخل
روب الحرير وصاحت في دلال تقول:

- قادمة يا حبيبي..

لوح له عامل محطة البنزين وهو يغادرها في حب
متمنيا له ليلة سعيدة..

أصبح لا يضع وقودا لسيارته إلا من هنا وبالتحديد
وقت عمل «جمعة» فيها..

منذ عرف قصة مرضه وحاجته إلى النقود يمنحه جبر
جزءا صغيرا من دخل سيارة التاكسي..

في الحقيقة يمنحه جزءا ليضعه جمعة مع ما يقتسمه
مع زملائه كعادتهم كل يوم وجزءا له وحده يخبره أن
يشترى به شيئا لأبنائه..

عمال المحطة يعلمون ولا يعترضون بل تضاعف
حبهم واحترامهم له..

رحم الله أمه.. كانت دوما تخبره أن دعاء الأم خير
يصيب الأبناء بعد رحيلها لأنها يوم ترحل تخلو عليهم
الأرض ويصبحون بحاجة إلى الدعاء..

كان يقبل يديها ورأسها عندما أصبحت تكرر عليه
هذه القصة كثيرا قبل رحيلها لأنها تنذره بالرحيل، ثم
تضحك في ألم تخبره أنها لن تموت وتترك بسمه إلا بعد
دخولها المدرسة..

لم تف العزيزة بعهدا.. رحلت منذ عام.. رحلت
وبسمة لم تبلغ الثالثة من العمر..
كانت حبة عينها ولب عقلها..

ما وفت بالعهد لكن علم جبر علم اليقين صدق
روايتها عن دعاء الأم..

في وجود الأم أنت لا تحتاج من الأرض شيئًا، لكن
بعد رحيلها أنت الضعيف الذليل..

أين يترك بسمة في ساعات عمله في المصنع؟ وأين
يتركها عندما يخرج للعمل على سيارة الأجرة، وإن ترك
العمل عليها كيف يدفع أقساطها، وإن باعها كيف يمكنه
أن ينفق على بسمة وهي المقبلة على مراحل من التعليم
دون عمله على سيارة الأجرة..

كل شيء تدبر في ثوان..

دعاء عواطف..

مريم في آخر أيام العزاء وقفت تخبره أنها لن
تستطيع الحضور إلى البيت بعد رحيل الأم، لكنها لم
تتركه حتى أخذت عليه عهدًا بأن تتولى شئون
الصغيرة..

في الصباح وقبل ذهابه إلى المصنع يمر ويترك بسمة
لديها ويعود ليأخذها في طريق عودته حيث يقضي
معها ما تبقى من النهار وبعد انتهاء عملها في عيادة
ياسين يمر ليعطيها بسمة مرة أخرى في طريقه للعمل
على سيارة الأجرة..

في الثانية عشرة يجب أن يقف على باب حارتها
ليخرج مصطفى بالصغيرة إليه مرة أخرى..

كبر مصطفى في ثلاثة أعوام.. أصبح في الشهادة
الإعدادية وأصبح أيضًا لا يتسم في وجهه ولا يبادله
حديثًا..

منحه نقودًا كثيرة كهدايا لتفوقه وكان دومًا يأخذها
دون شكر أو شعور بالامتنان..

أخبرته أمه قبل رحيلها عن معاناة مريم معه وكيف
ما زال يحفلها وزر رفضها لعرض الطبيب..
الطبيب!!

تلك القصة القديمة.. خسر الاستئناف وقضى مدة
العقوبة وأخبره ياسين ذات مرة أنه عاد إلى مستوصف
والده بصفة إدارية لكنه يمارس المهنة في غياب الرقابة
والضمير..

لم يثاروا لأحلام لكن يكفيهم أنهم قاتلوا حتى خروج
الزفير الأخير في صدورهم..

أعوام منذ رحيل الحبيبة.. شيء في قلب جبر
انكسر.. شيء يعاود النبض بصعوبة كلما رأى مريم..
لماذا يستنكر أن يحبها؟

لا يصدق أن يحب بعد أحلام.. لا يصدق أن يتحرك
في جسده وروحه شيء بعد امرأة ماتت تاركة له ابنتها
ينفق عليها ويربها وينسى أنه حي..

ليس هذا فقط.. الأمر أنه يحب بسمه بجنون..

كان الله ألقى في روحه حب كل ما له صلة بأحلام..

نعم يسترق النظر أحيانًا إلى وجه مريم الهادي
الحاني..

يراها في أوقات كثيرة تبكي ويعلم أنها مع ولدها
تعاني..

أحيانًا يتمنى لو يجذبها إلى صدره في تلك اللحظة
التي يمد فيها ذراعيه ليلتقط بسمه إن كانت نائمة على
كتفها..

يحلم كثيرًا أن يتزوجها ويأخذها إلى بيته مع ولدها..
يتمنى لو يصبح عنهما مسئولًا لكن شيئًا حادًا في
عيني الصبي يخرسه، وشيئًا ضعيفًا متخاذلًا في عينيها
يخرسه أكثر!!

مع الأيام.. مع الأعوام ربما!!

بعينه التقط الرجل الذي كان يلوح له يستوقفه،
وبطرف عينه اختلس نظرة إلى ساعة السيارة.. تزحف
إلى منتصف الليل..

اعتذر عن عدم الوقوف بكفه للرجل.. لا يستطيع أن
يتأخر..

مريم لا تمنع في بقاء الصغيرة لكن مصطفى لن
يهبط بها إليه إن جاوزت الساعة منتصف الليل ولن
يقبل أبدًا أن تفعلها أمه..

من نافذة السيارة أخرج رأسه يتنسم جرعة هواء
كبيرة..

مسكينة بسمة..

لها أكثر من أم.. أمه كانت أمها ومريم الآن تلعب دور
الأم ورغم هذا لم تز أمها أبدًا..

بل المسكينة لها أكثر من أب ورغم هذا لن تعرف يومًا
أباها الحقيقي..

ما أراد الله أن يستره فلا كاشف له..

دعاء عواطف معه دومًا..

تلك قصص وانتهت.. فليتحرر وليحيا وليأخذ بيد
مريم إلى الحياة..

يعلم أنها تحبه وتريده..

للحب رائحة تنطلق من خلايا العاشق لا تخطئها
حواس المعشوق أبدًا وإن تجاهلها وادعى الغباء..

ما زال المشوار كبيرًا وما زال العمر أمامه وأمامها..

فلتصل بولدها إلى شاطئ أمان، وليصل هو بحبيبة
روحه إلى شاطئ آخر، ثم عندها يلتقيان..

تنهد جبر وهو يخرج الهاتف من جيبه ليرسل إلى
مريم رنات صغيرة أغلق بعدها الخط دون حديث، فقط
ليعلمها كالعادة بوجوده أسفل بيتها لترسل ابنته..

هذه الأعوام التي تضيع من عمره وعمرها في
الحرمان والشوق والحيرة من يدفع ثمنها ولماذا؟!

من أجل الطفلين.. يثق أنها وأنه أحسن عليهما من
آبائهما الحقيقيين.. لماذا يهرب؟!

استدار بعينه ينظر في لهفة إلى باب البيت..
سيطل الصبي الذي أصبح له شارب خفيف بوجهه
العابس ويأخذ منه بسمه إلى صدره.. وهي على كتفه
ينسى كل القصص..

ينسى قدميه المتورمتين من الركض في المصنع
صباحًا وفي الطهو والتنظيف عصرًا وعلى مقود سيارة
الأجرة ليلاً..

حين يضعها على صدره وتبتسم إن كانت يقظة
وتقول «بابا» أو يتنسم حبات عرقها على عنقه إن كانت
غافية ينسى قلبه الذي ينبض بمريم من أن إلى آخر..
ينسى رجولته الحبيسة وقلبه الوحيد وحتى طعنات
أمها القديمة..

كأنها الماء وكان الدنيا بأكملها هي التيمم..
إن حضر الماء بطل التيمم.. فليضيع العمر.. ما زالت
هذه الصغيرة معه..

هي منه ومن أمه وأمها.. هي من الله وماذا بعد ما
خضنا به الله نريد؟!
تأخر العابس..

في اللحظة التي وضع يده فيها بداخل جيبه ليخرج
الهاتف ويعاود طلبها رأى مريم تركض خارج باب العمارة
وبسمه على كتفها..

كانت تبكي بكاء مريزًا وتصيح تناديه..

في جنون خرج من سيارته يصيح باسم ابنته..
كانت كفن لدغها ثعبان وكان هو المسموم.. ماذا
حدث لبسمة؟!

حين وقفت أمامه وقبل أن تقول كلمة مدُّ ذراعيه
يلتقط الصغيرة وقلبه يهدر بين ضلوعه وسمعها بصوت
بكاؤها تقول:

- لا تخش شيئاً.. هي بخير.. أنا يا جبر.. أنا أموت..
خذني من هنا أرجوك!!

رأى أحلام تبكي كثيرًا وبمرارة لم يكن يتخيل أن
يحملها صدر أو دمع إنسان، لكن بكاء الأم أكثر ألفًا
ومرارة إن كانت من وليدها تبكي..

كانت شفتاها الورديتان تنتفضان والدمع يجري
عليهما والكلمات تقف وتسقط وتحاول النهوض بها من
جديد..

وقف جبر بسيارته على كورنيش مصر القديمة
واستدار ينظر إلى وجهها الأبيض الرقيق..

عيناها نهران بالدم اصطبغت مياهما.. بسة على
صدرها وذراعاها حول جسدها الضئيل وبكفها تكسح
دمعها تارة وترتّب ظهر الصغيرة تارة أخرى..

لا يفهم كثيرًا من كلماتها المبحوحة الضائعة لكنه
تركها تبكي، عندما رأى صدرها يتهدج وأنفاسها تتقطع
أدرك أن هناك أنواعًا من البكاء لا ينتهي ولا ينضب فيها
الدمع..

عندها هبط من السيارة وفتح الباب المجاور لمريم
ليأخذ النائمة ويضعها على المقعد الخلفي، وعاد يجلس
إلى جوارها وهي ما زالت ترمي بحروف صغيرة
وتبتلعها وتحاول أن تعيد ترتيبها من جديد عندما تدرك
أنها ما استطاعت تشكيل كلمة بها أو جملة..

في حنانه القديم وضع كفه على فمها وقال في هدوء:

- مريم.. عندما نعجز عن شيء أحياناً يجب علينا أن نقف تماثلاً عن المحاولة.. ليس طويلاً بل قليلاً حتى نستعيد قوتنا.. اهدئي.. أنا هنا في انتظار أن تهدئي وإن مرت أيام.. فقط اهدئي..

بكت أكثر ولطمت خديها بكفها مرات عديدة ورفعت عينيها إلى السماء تستغيث ورمت بعينيها إلى جبر تظمن وفي النهاية سقط رأسها بعد عراكها الطويل في صمت بعد أن أكلها التعب وقالت في صوت هادئ:

- آسفة أنا..

وضع يده على يدها وأمسك كفها في حنان يقول:

- سأفتح النوافذ لبسمة ولنجلس على هذا المقعد أمام السيارة ولننتحدث.. هل تفعلين؟!

في طريقها إلى المقعد الخشبي القديم كانت تفتح شفيتها وتبتلع ما استطاعت من نسائم الليل، وحين جلسا دون اتفاق كان ظهراهما مفا إلى النيل؛ ليكونا في مواجهة السيارة التي تنام فيها الصغيرة، أحضر لها قارورة ماء بارد من إحدى عربات الكبدة التي كان يقف مع أحلام عندها، وانحنى يصب لها قطرات من مائها تغسل بها وجهها.. ابتسمت ابتسامة صغيرة حزينة وأخبرته بما حدث..

أخبرته كيف تزوجت وهي في عمر صغير وكيف
سافر زوجها رغم عدم حاجته المادية ومصطفى بذرة
صغيرة بين أحشائها ثم أرسل لها ورقة طلاقها دون أن
يعلم أنها تحمل منه طفلاً..

ذهبت أمها كثيرًا إلى عائلته تخبرهم بحمل ابنتها..
تطلب منهم رقم هاتف له أو عنوانًا لكنهم أخبروها أنه ما
عاد حتى بأمه يتصل..

بقيت مع أمها ونذرا روحيهما لمصطفى..

كانه الأرض وكأنه السماء..

حين ماتت الأم أصبح الأرض والسماء والأهل مقًا..

كل حلمها أن يصبح طبيبًا ورغم هذا لم ترغمه يوقًا..
متفوق لكنه لا يحترمها.. شيء جديد تشعر به يجعله
أكثر قسوة واستهزاء بها..

نعم يحتقرها بل يراها أقل شأنًا منه..

منذ أيام أخبرها أن المدرسة قررت تكريمه ومنحه
شهادة تقدير في حفلها السنوي..

نظرت إليه مريم ولوحت بكفها إلى إحدى الجهات

قائلة:

- مدرسة عادية بجوار بيتنا.. معظم من فيها مثلي

ومثله..

شردت عيناها لحظة وعادت تخبره أنها جنت من

الفرح.. حين سألته عن موعد الحفل نظر إليها وسألها

في دهشة هل تفكر بالذهاب؟!

لم تفهم بل لم تحاول أن تفهم.. صاحت تخبره أنها
قبل الجميع ستكون هناك..

في برود أخبرها أن هناك أشياء كثيرة يجب أن تفعلها
إن شاءت الذهاب حقًا..

عليها أن تشتري ثوبًا وحجابًا جديدين، وأيضًا حذاء
جديدًا.. لم تقل شيئًا بل فعلت كل شيء..

استدانت من زوجة ياسين مبلغًا يُخصم من راتبها
واشتريت كل ما أمرها بشرائه، وفي المساء ارتدت ثيابها
الجديدة ووقفت أمامه تخبره أنها فعلت ما طلبه في
يوم واحد..

عادت ترتجف من جديد ونظرت إلى جبر في ألم
تقول:

- أخبرني أي زدت الأمور سوءًا.. قال إنني سأبدو
كخادمة بعد أن كنت مجرد ممرضة في عيادة طبيب
وزوجته..

لم أفهم يا جبر.. لم أفهم وليتني ما فهمت..

هذا الطفل يخجل مني.. أمهات قليلات في المدرسة

هن اللاتي

لا يرتدين عباءة أو جلبابًا، وإن كن كثيرات هل لهذا
يحتقرني؟!

من التمريض دفعت مصروفات المدرسة.. من
التمريض اشترى الكتب الخارجية التي يستذكر فيها
ليصبح متفوقًا..

من التمريض يأخذ نقود الرحلات والحفلات والهدايا
إلى المعلمين.. مصطفى ذو الخمسة عشر عامًا أخبرني
أنه لن يسمح لي بحضور الحفل.. في جنون قلت إنني
سأذهب..

هل تعلم ماذا قال؟!

كان جبر عندها يغلق على دمه عينيه، وعندما
أعدت عليه السؤال رفع عينيه إليها لترى دمه ويرى
دمعة جديدة تكونت في عينها وهي تقول:

- قال ولدي سأنكر أنك أمي!!

في هدوء وضع مفتاح بيته في كفها.. أخبرها جبر
أنها ستبقى فيه مع بسمه ولن تعود إلى بيتها حتى
يأتيها مصطفى نادقاً على ما فعل..

شهقت تبكي تسأله كيف تتركه وحده في المنزل..
لن يعرف كيف يعد طعاماً أو يغسل ثياباً.. هو طفل يا
جبر..

لم يدعها تكمل كلمة واحدة..
في حزم قال إن من يعلم كيف يصنف الناس وينتقي
زوار حفل تكريمه ليس طفلاً..
من يكسر خاطر أم ليس طفلاً.. من يضع سكيناً في
قلب نذر له نفسه ليس من الأطفال..
هو ضالٌ يا مريم.. إما أن نقسو عليه ونسترده وإما
أن تعودى إليه ويضيع ولدك وعمرك في النهاية..
لا اختيارات..

لم يترك أيّاً منها!!
من خلف دموعها سألته أين هو يذهب.. ربت كنفها
في حنان وأخبرها أنه سيقوم لدى «الريس بهجت»..
وحيد الرجل منذ زواج ابنته ورحيل زوجته..
لظمت وجهها تلوم نفسها.. تشرده من بيته؟!

ابتسم يخبرها أنه كان بالإمكان أن يمنحها بيت أمه
الصغير في الدور الأرضي لكن يخشى حديث الناس..
أخبرها أنه سيذهب إلى مصطفى ويتحدث إليه..
وعدها أن يبقى حوله يرعاه حتى يفيق من غرور
صباه..

كل ما عليها أن تقسو على حنانها أياها ليفيق
وتستمتع بحنانه ما بقي من العمر..

حين انحنت على مقعد السيارة لتأخذ الصغيرة على
كتفها أمسك بذراعها ونظر إلى عينيها قائلاً:

- أنت امرأة جميلة.. أنت فخر لأي صبي وأمل لأفضل
الرجال.. هل تفهمين؟!

سقطت دموعها من جديد وأمسك برأسها بين كفيه
ونظر إلى عينيها كأنه يبثها ثقة وحبًا ثم وضع على
جبهتها قبلة صغيرة انثنى بعدها على مقعد سيارته
يخرج ابنته ويضعها بين ذراعي أم كسيحة القلب
والكبرياء، ثم مضى بسيارته في سكون!!

ما زال جبر لا يصدق أن طفلاً في الخامسة عشرة
يعتذر عن لقائه بذاك البرود الذي حادثه به يخبره أنه
في طريقه إلى الفراش..

لا يصدق أبداً أنه أخبره على مضض وبعد تردد أنه
سينتظره بعد عودته من المدرسة في اليوم التالي..

لا يصدق أن مريم رغم كل شيء حادثت طفلها في الصباح لتوقظه وأنها بكت كثيرًا عندما رفض رجاءها له بأن يمر ليأخذ بعض النقود أو المأكولات التي طهتها له في بيت جبر..

كانت تنتحب وجبر يخبرها أنها لن تصنع له شيئًا بعد اليوم ولن توقظه في الصباح مرة أخرى حتى يفيق ويأتيها معتذرًا..

لا تريد منه اعتذارًا.. تريده فقط بخير.. تريد أن يأكل من يدها ويصحو في موعده ويرتدي ثيابه المطوية النظيفة وحذاءه الذي قامت بتلميعه بدمع عينيها وسنوات شبابها المسفوك تحت نعلي قدميه..

كيف إذن يفيق يا مريم؟! كيف يعود إلى رشده؟

يا حبيبتي نحن لا نعاقبه.. نحن نوقظ بداخله الرحمة والحب.. نحن نعيد إلى عينيه البصيرة والنور..

حين سكتت على سماعه الهاتف بعد إلحاح طويل منه..

حين غاب صوتها عنه لحظات، ابتسم ابتسامة حزينة وعاد يقول:

- مريم.. هل تظنين أنني لا أفهم ما تشعرين به؟! هل تظنين أنني أقسو عليه لأنه ليس ولدي ولأنني لا أعلم ما هي الأم؟! عشت عمري كله مع الأمهات.. أمي وأم أحلام.. حتى أحلام علمتني قبل موتها في الأمومة درسًا عظيمًا.. ساعديني وثقي بي.. أرجوك.. من أجله

أفعل هذا.. أيًا كان ما يصنعه مصطفى أعلم أنك ستغفرين لكن إن لم يُفَق من غفلته سيأتي يوم يقتل نفسه ندماً وخجلاً مما يفعله بك الآن.. من ذاك اليوم أخشى عليه.. قد لا تكونين فيه إلى جواره.. هل تفهمين؟!

لا تسعدي نفسك الآن وتتركيه بعد رحيلنا لعذاب لن يمحوه عنه أحد..

بالكاد رضخت .. بالكاد وبعد ألف قسم وألف يمين بأن يكون حانياً عليه متفهماً متسامحاً وأن وأن وأن..

أه من قلوب الأمهات وإعجازها، وأه من قلوب الأبناء وغبائها!!

أحضر له صندوقاً كبيراً من دجاج «كنتاكي»..

أخبرته ذات مرة أنه يحبه.. أحضر له علبة من البسكوت وبعضاً من الفاكهة وها هو يقف أمام باب الصغير يطرقه في الموعد الذي حدده له..

حين فتح له الباب وابتسم تلك الابتسامة الصغيرة مفسحاً له الطريق رأى جبر علبة دجاج أكبر من التي يحملها على ذراعيه في أحد أركان الصالة، وعلم لم يطلب منه التأخر عن موعد المدرسة ساعة بأكملها..

تظاهر بأنه لم يرها ووضع الأشياء على الطاولة الصغيرة ثم قال:

- من المصنع مباشرة عليك.. هل نتناول الطعام معاً؟

في هدوء قال مصطفى وهو يشير إلى علبته الفارغة:

- أنا انتهيت.. بإمكانك أن تأكل وسأجلس معك..

أخبره جبر أنه سيكتفي بتناول كوب من الشاي فهو لا يعرف كيف يأكل وحده..

أمسك بذراعه الصغير وهو يخطو نحو المطبخ ليقول:

- نعم.. ماتت زوجتي وأمي لكن بقيت لا أعرف كيف أكل وحدي.. لهذا لا أترك بسمه عندكم وقت الظهيرة..
مضى مصطفى وهو يبتسم.. أصدقاء أمه جميعهم حمقى!!

لم يتذوق طعامًا أجمل من طعامه وهو وحده اليوم..
لا تعليمات لا أوامر..

اقضم قضة صغيرة.. هل غسلت يديك؟! لا تضع
«العظام» على الطاولة.. ساعدني في تنظيف المائدة..

ألف توجيه يفقدونك طعم الطعام وحلاوته!!

حمقى كل من تحبهم أمه!!

حين عاد بكوب الشاي إلى جبر وجلس أمامه وبعد أن ارتشف الزائر أول رشفة تلمل الصغير كأنه يتعجبه..

عاد جبر بالكوب إلى الطاولة الصغيرة وقال في حزن:

- تعلم أن أمك دونك تموت.. ماذا تريد منها؟!

في عصبية واندفاع صاح مصطفى يقول:

- بل ماذا تريد هي مني؟! لا أنجح فحسب بل أنا
الأول على مدرستي.. لا أشارك رفاق المدرسة في أي
من مشاكلهم.. لا أدخن.. لا أطارد البنات.. سأصبح كما
تحلم «طبيبنا».. ماذا تريد أكثر؟!

في حزم أمسك بكف الصغير وقال في قوة:

- عندما تتحدث معي لا ترفع صوتك أبدًا، وعندما
تتحدث عن أمك لا تسأل ماذا تريد.. تنجح؟! تتفوق؟!
تتمتع بأخلاق طيبة؟! ليس لك في هذا فضل أيها
الذكي.. هي من صنعت هذا.. بشبابها.. بعمرها.. بوقوفها
ساعات خلف الأطباء وفي غرف العمليات.. بيدها
الممزوجة بدم المرضى وفضلاتهم.. كان من الممكن أن
تلقى بك إلى العمل في أحد المحال أو «الورش»
الصغيرة وترتمي بين ذراعي رجل.. هل كانت عبقريتك
لتظهر؟! هل كانت أخلاقك تولد؟! ماذا تريد؟!

كل العالم يريد «منك» ووحدها أمك تريد «لك»
وليس منك.. ماذا سيعود عليها إن أنت أصبحت طبيبًا؟!
تمنحها بعضًا من النقود التي أنفقتها عليك؟!

وإن حقًا فعلت.. يومها تكون أمك عجوزًا لا شهية لها
للقود ولا صحة فيها لتستمتع بأي شيء من متع الدنيا
التي نحرتها تحت قدميك..

في شيء من الاستهزاء اندفع مصطفى يقول:

- لا تريد شيئًا!! هي تريد كل شيء.. تريد أن تفتخر
بي.. تريد أن تأتي إلى حفل التكريم ليشيروا إليها

قائلين هذه أمه.. تريد أن تلتقط معي ومع شهادة
التكريم صورة تضعها على جوالها العتيق وتربها للسيدة
أفت والسيد الطبيب زوجها وربما زبائن العيادة..

تريد أن تكون بطللة وضحية.. لهذا حرمتني أبي..

رفع جبر عينيه ونظر إليه في دهشة كبيرة حين سمع
كلماته الأخيرة التي توقف مصطفى بعدها عن الحديث
لحظة ثم أرخى عينيه قائلاً:

- أخبرها أنني أصبحت رجلاً وما عاد من الممكن أن
تخدعني أكثر..

شعر جبر أنه يختنق ونهض عن مكانه يقول في ألم:

- لم أكذب على أحد يوماً فكيف لي أن أفعل مع امرأة
طاهرة رفضت آلاف الجنيهاً من قاتل زوجتي لا لشيء
إلا لمبادئها ونقائها.. كيف بالله عليك أكذب عليها
وأخبرها أنك أصبحت رجلاً؟!!!

يا قصصًا صغيرة عابرة تتحول إلى روايات لا نعرف
كيف نهيها..

يا عابري سبيل يتحولون إلى أبطال وسكان لا نعرف
متى أو كيف سكنوا..

يا حياة نظنها بفرور صبانا أسهل من طرفة عين
وحين ندرك أنها أبعد وأعقد نكون قد حزمنا حقائبنا
استعدادًا للرحيل..

ظن ياسين عابر سبيل وأحلام بطة روايته..

رحلت أحلام وأصبح ياسين غريمه الذي لا يعرف إن
كان يحبه أو يكرهه..

ظن يومًا أن مريم قصة تنتهي بعد انقضاء لحظات
العزاء أو حتى صدور حكم القضية فإذا بها البطلة
والرواية..

منذ ترك جبر مصطفى وهو يتجول في الشوارع
والأزقة التي كانت تشهد بحبه لأحلام وها هي اليوم
تشهد تمزق ضلوعه على مريم..

يا طفلة صغيرة تركها على ذراعي امرأة جحدها
ولدها الذي تكوّن في أحشائها.. ماذا تراه من بسمه
ينتظر وهو يعلم علم اليقين أنها ليست منه ولا هو
منها..

كم مرة حادثته مريم وكيف يعجز عن الرد عليها؟!

رقيق هو قلبك يا جبر لكن لم تجبر الأيام يوماً تصدع
روحك.. يشفق على ياسين أن يخبره أن بسمة منه..

إن كان يعلم فماذا ينتظر منه وإن كان يجهل فكيف
يحتمل أن تتحطم حياته مع زوجة لا ذنب لها أو صلة..

يشفق على بسمة ويحبها.. في رحم أحلام تكونت
وعاشت حلم أمه وماتت وهي تحتضنها..

مريم!!

لا يشفق عليها من ولدها بل يشفق عليها من حب
كبير اجتاح صدره.. يعلم أنها تريد وتستحقه لكن
بينهما أرعن إن لم يعد ماتت حبيبته الثانية كما ماتت
الأولى بل ربما كان موتها أقسى وإن بقيت على ساقبها
تخطو..

أنت لا تعرف ماذا تريد منك الحياة؟!

أنت لا تعلم أي الطرق إلى النجاة تفودك..

أنت في كل الأحوال تغمض عينيك وتتبع قلبك..

عينك تريان الدروب المرسومة وقلبك الذي في

صدرك وحده يبصر نهاياتها!!

كل ما عليك أن تنقي قلبك.. أن تطهره عندها وحين

تضعك الحياة على مفترق الدروب السوداء تغمض

عينيك وتتبعه..

ثقتك ليست في الاختيار لكن رجاءك كله في نقاء

القائد وطهره..

جبر يعلم أن قلبه الكسير طاهر وأن عينيه ما عادت
من الحزن تبصران!!

إلى أين يذهب!! وإلى أين تراه القلب يقود!!
حين أفاق من أفكاره وآلامه وجد نفسه يطرق باب
بيته وبعد لحظات فتحت مريم الباب..
حين رآته صاحت في دهشة تقول:
- جبر.. ماذا حدث؟! هل هو بخير..

كانت عيناه في الدموع غارقتين وحين نظر إليها في
دهشة كأنه يسأل هل حقًا قاده قلبه إلى هنا..
أهذا هو الدرب الذي اختاره له..

كانت تبكي وتكرر سؤالها وكان يبكي ولا يعرف بماذا
يجيب..

رأى بسمة من خلف ظهرها نائمة على مقعد في صالة
البيت وقد غطتها بغطاء نظيف ووضعت إلى جوارها
بعض الوسائد حتى
لا تسقط عن الأريكة..

أغمض جبر عينيه وضمها إلى صدره في قوة قائلاً:

- تائه أنا يا مريم.. ضمني بقوة!!

منذ تزوجا وهو يعارض قرار الحمل.. أخبرها أنه يخشى الموت في إحدى نوباته ويتركها تحمل يتيقنا على ذراعيها.. لكن ما هدأت حتى رضخ لها بعد أن وعدته ألفت أن لا تنجب سوى طفل واحد فقط.. كان يخشى أشياء كثيرة لا يقوى حتى على البوح بها وإن كان لها نفسها..

أرعى ياسين رأسه في ألم على صدره وهو يرتمي على المقعد الموجود أمام غرفة التوليد..

حدث ما كان يخشاه.. وافته النوبة وهو يقف إلى جوار الطبيب الذي يقوم بتوليد ألفت..

ما تراه الوضع كان سيكون لو حقق لها طلبها واستسلم لإلحاحها بأن يتولى هو توليدها..

لا يستطيع أن يراها تتألم ويعلم أنها تكتم صرخاتها في وجوده..

مال الطبيب على أذنه بعد أن هدأت النوبة وأخبره أنه ما زال أمامها وقت حتى خروج الجنين وعليه أن يخرج بعيدا عن غرفة العمليات..

خذلها ياسين، بل اعتادت خذلانه لها، لكنها دوما تجد له الأعذار قبل حتى أن يبحث هو عنها..

ليت والده كان هنا.. ليته كان إلى جواره وجوارها..

هذا الصباح وحين وانتها آلام المخاض كالأطفال
حادث أمه يخبرها كأنه يستغيث بها..

أخبرته في هدوء أنها ستأتي وزوجها لرؤية المولود
قبل عودتهما إلى البيت..

«المولود»؟!

حفيدها الأول.. ومتى كانت ناهد أمًا ليكون القادم لها
حفيدًا؟!

ألفت أصبحت أمه وأباه..

أصبحت كل شيء إلا حبيبته..

ما زالت الراحلة في قلبه..

نعم ومتى كان رحيل الأعبة يعني الغياب؟!

هل بسمة ابنته؟! وهل صمته جريمة؟!

كل يوم تجلده الأفكار ويأخذ ألف قرار مع قدوم
الصباح ثم يمحوها على صدر ألفت ليلاً حين تلف
ذراعها حوله لينام!!

ماذا يفعل وماذا يقول؟!

هل يسأل جبر؟! هل يصارحه بالشكوك التي في
صدره؟!

هل يأخذ بسمة إلى ألفت؟!

كأنه يختنق رفع رأسه ينظر حوله يبحث عن أحد
يغيثه..

لا مغيث لك ياسين سوى الراقدة خلف باب
العمليات.. هذه التي تحاول أن تمنحك من روحها
روحاً..

أغلقتنا قصة بسمه فلم نتذكرها الآن؟!

لأن طفلاً آخر سيولد.. أليس لتلك الطفلة ذات
الحقوق..

لكنها قد لا تكون..

مجرد محاولات للنبش والبحث عن الحقيقة..
محاولات تقتل ألفت وجبر وتقتله بل وتقتل أحلام من
جديد..

هناك قرارات نأخذها ونحن مطمئنون الروح والضمير
لكن نعاود العبث فيها كل يوم كأنها انتقام السماء..

كأن أفعى لسعت قلبه انتفض عن مقعده..

السماء لن تعاقبه..

لم يفعل شيئاً ولم يكن يملك من الأمر شيئاً..

كل خطئه أنه عبث بجسد أحلام ونال عن هذا ألف
عقاب..

ألفت لا ذنب لها والطفل القادم لا خطيئة له..

«لا تزر وازرة وزر أخرى».. جبر كان يرددها كثيراً في
لحظات لقائهما المبعثرة..

سيدخل إلى غرفة العمليات ويحقق لزوجته رغبتها..

سيكون أول من يستقبل جنينها بين يديه..

قاوم مخاوفك وجبنك وألمك ياسين!!

حين خطا الخطوة الأولى باتجاه غرفة العمليات سمع صوتها من خلف ظهره يناديه..

استدار ينظر إليها في دهشة.. كيف جاءت هذه الرقيقة ومن أخبرها..

كأنها فهمت، قالت في سكون:

- حادثني الدكتورة هذا الصباح حتى أعتذر عن العيادة لكليكما.. كيف لا أكون معك ومعها دكتور ياسين.. لكن كان يجب أن أحادث جبر ليأتي ويجلس مع بسمة..

في امتنان كبير نظر إليها..

مريم جاءت وأمه ما حضرت..

مريم جاءت ليسمع من بين شفثيها كلمة «بسمة» كان القدر يريد أن يتذكرها..

قبل أن يجيب أطلت ممرضة تصيح:

- دكتور ياسين.. المولود قادم والدكتورة تريدك معها.. أسرع أرجوك!!

من هذه التي تراها؟!

لا يؤلمها أنها لا تعرفها بل يقتلها الألم لأنها لا تريد أن
تتعرف إليها أو تنظر إلى ملامحها..

ليست هي أبدًا.. كيف فعل بها هذا؟!

حين صاحت تخبره أنها كانت عملية تشويه لا عملية
تجميل أخبرها ببرود الأرض أن ما تراه في المرأة أفضل
كثيرًا من كل توقعاته..

حين انزلت دموعها في ذل أمامه انخفض صوته
وهو يقول:

- سيدة ناهد.. لم يعد وجهك يحتمل أكثر من هذا..
أنت تطاردينه بمشروط التجميل أكثر مما ينبغي.. لا
تحاولي أن تجري عملية أخرى.. صدقيني سيصبح
الوضع أكثر سوءًا..

أمسكت كف الطبيب بقبضتيها وهي تنن قائلة:

- أعده إذن كما كان قبل هذه العملية..

كانها مجنونه وكأنه حكيم يئس من الحمقى
والحماقات.. نفض قبضتيها ونهض من جوارها قائلاً:

- لا شيء يعود كما كان أبدًا..

لا تعرف نفسها أبدًا منذ ذاك الصباح..

رغم أن فاضل كنم شهقة كبيرة شعرت بها تريد
المرور من بين شفثيه إلا أنه ضحك يخبرها أنها
أصبحت أجمل لكنها تعلم أنها أصبحت أقبح..

رغم أنه ما زال يأخذها ويخرج بها ويضمها كما كان
إلا أنها دوماً لا تشعر به.. أصبحت عيناها دوماً
مفتوحتين تبحث بهما عن أي شارة يطلقها رغماً عنه
بالاشمئزاز منها هو أو غيره ممن يلتقون بهما..

كل النساء تنظر إليها وتبتسم ثم يصحن بذات
الجملة:

«ناهد.. كل النساء تكبر ووحده كل يوم تصغرين».. لا
تصدقهن..

مراتها لا تكذب.. أصبح وجهها كرة منفوخة مشدودة
كأنها لغم قارب موعد انفجاره..

شفثاها المتورمتان تجعلان مخارج أفاظها على غير
ما كانت عليه .. تكره نفسها.. تكرهها..

لكن ما الحل؟!

وحدها ألفت زوجة ياسين قالت لها في إشفاق
حقيقي إنها أبداً ما كانت بحاجة إلى كل هذه العمليات..

تعلم أنها الصديقة الوحيدة ورغم هذا زارت في
وجهها كأسد جريح تسألها عن معنى كلماتها..

أفرغت سفاً في صدر ألفت وهي تخبرها أن المرأة إن
خلقت دميمة لا تستسلم بل تجمل كل ما أمكنها

تجميله..

عضت المسكينة على شفيتها في ألم وقالت:

- أعلم أنني لست في جمالك لكن تمنيت لو كنت أنت
في قناعتتي.. من أجلك قلت كلماتي.. من أجل ولدك
الذي يذوب ألماً وهو يراك بعد كل عملية تتألمين ولا
تسعينين.. فاضل لا يستحق أن تذبحي نفسك من أجله..
نحن نحبك ونريدك.. القادم بحاجة لك..

لماذا نرفض الصدق ونلعن الكذب عندما نكون على
خطأ..

لا الصدق يهدننا ولا الكذب يريحنا!!

دون وعي رفعت مراتها الصغيرة ونظرت إليها ثم
ألقته من جديد.. أبداً ما عادت ناهد..

يجب أن تسافر.. نعم ستذهب إلى باريس.. إلى أكبر
وأشهر طبيب تجميل.. إلى دكتور أوليفي دو فراهان..

رفض أن يجري لها عملية قبل ذلك، لكن حين يرى
وجهها المنفوخ حتماً لن يتركها تعود به.. ستخبره أن لا
طلبات لديها هذه المرة.. كل ما تريده فقط أن تعود كما
كانت منذ أسابيع..

قبل أن تلتقط هاتفها الصغير كان ياسين يطلبها..

حين فتحت الخط أخبرها أن ألفت أنجبت فتاة وأنه
في انتظارها أن تذهب الآن إن شاءت لأنهما سيعودان
إلى البيت بعد ساعات..

لم تكن تسمعه.. كل ما كان يدور في رأسها أن تغلق
معه الخط لتطلب مدير حسابات المستشفى ليقوم
بالحجز لها للسفر.. فتأشيرتها ما زالت سارية..

لم تقل حتى كلمة مبروك.. لم تسأل عن الصغيرة
وصحتها أو صحة أمها..

كل ما استطاعت قوله هو:

- لا تغير خططك من أجلي ياسين.. إن لم أتمكن من
اللقاء بكما في المستشفى سأمر لرؤية ألفت في
البيت.. أنا أستعد للسفر إلى باريس غداً يا حبيبي!!

كيف نسيت أن تقول مبروك أو أي عبارة من تلك التي
يرددونها في هذه المناسبات..

نفضت رأسها وهي تسمع صوت مدير حسابات
المستشفى يرحب بها على الهاتف..

أخبرته أنها ستسافر إلى باريس.. طلبت منه حجز
موعد في عيادة دكتور دو فراهان وإن وجدته في عيادة
لندن تذهب إليه هناك..

طلبت منه شراء تذكرة في الدرجة الأولى وحجز في
فندق «بلازا إيتينييه»..

قبل أن تغلق الهاتف أخبرته أنها تريد تحويل مبلغ ربيع
مليون جنيه إلى «يورو» في حسابها..

بعد لحظة صمت أجابها مدير الحسابات قائلاً:

- سيدة ناهد.. خمسة أشهر لم ندفع أقساط مديونية البنك..

لا سيولة عندي تكفي ما تريدين.. يؤسفني أن أخبرك كما أخبرت دكتور فاضل أننا معرضون للحجز من البنك، بل قد تتعرض الفيلا للبيع بالمزاد العلني.. بإمكانني شراء تذكرة وحجز الفندق أما المبلغ.. أعتذر لا رصيدي!

صيحات وأسئلة.. صرخات وأجوبة لا معنى لها..

وضعت ناهد نفسها في ثيابها بينما لم تكن ترى شيئاً من دمعها وذهولها..

الصرح الكبير لا رصيد لديه.. المستشفى الذي يتم فيه إجراء عمليات لا عدد لها وتحصيل نقود لا حصر لها ليس فيه «ربع مليون جنيه»، وأيضاً لا يقوم بسداد أقساط القرض..

أين كانت هي؟ ولماذا لم يخبرها مدير الحسابات إلا الآن؟! كأنه كان ينتظر أن تحدثه ليسكب أنباءه في أذنها.. أين كانت؟!

كانت تلهث خلف فاضل.. تتمرغ بين ذراعيه وأمام مرآتها وعلى طاوولات عمليات التجميل..

البيت معرض للبيع؟! وهي معرضة للطرد..

كانت تركض إلى السيارة في جنون..

ستذهب إلى مكتبه وتطلب منه توضيحاً، بل تسحق

عنقه بين أصابعها إن لم يكن لديه حلول وتفسيرات..

حين وقفت ناهد بسيارتها وفتحت بابها لم تجد
نفسها على باب مستشفاهم..

قادت سيارتها إلى بيته دون أن تدري أنها تفعل..
كأن قلبها ورأسها اختاراه هو لتلقي بكل قنابل ضعفها
وأنباء إفلاسها تحت قدميه..

هل تدخل أم تعود إلى فاضل كما كانت تظن أنها إليه
تتوجه..

دون تردد ودون اكترات تقدمت نحو باب الفيلا
الصغيرة التي يسكنها وحده ورفعت أصبعها تدق
الجرس، ووقفت تتحسس وجهها وهي تقرأ اللافتة
المعلقة على الباب: «دكتور سامي أسعد!»

حين فُتح الباب وأطلت من خلفه تحمل وليدتها
أخذتها ألفت على صدرها ومنحتها صدرها للمرة الأولى..
غابت الممرضة وهي ترى دمعة تترقرق على وجه
طبيبة جادة لم تظن يوماً أن تراها بهذه اللهفة
والضعف.. لكن في الأمومة لا قوة
ولا جاه..

استدارت وهي على باب الغرفة تنظر إليها تمسح
بأصابعها على رأس رضيعتها التي كانت تلتهم ما
تستطيع من صدر أمها رغم أنها منذ ساعات كانت تنام
في أحشائها..

عملت أعواماً في هذا المستشفى مع دكتورة ألفت
وزوجها دكتور ياسين حتى ظنت أنها عاقر، لكنها علمت
اليوم أن كل النساء حين يصبحن أمهات وحين يأخذن
إلى صدورهن قطعة اللحم الصغيرة التي غادرت
أجسادهن يصبحن سواء..

شعرت بها ألفت ترقبها ورفعت عينيها كأنها تسألها لم
تقف في الغرفة.. أحنّت الشابة رأسها تقول:

- مبروك.. ألف مبروك!!

لم تكن تعلم أبداً أن مشاعر كهذه ستتفجر بداخلها..
كادت تستسلم لرجاء زوجها بعدم الإنجاب لكنها الآن
سعيدة بإصرارها وسعيدة بموافقته..

كانت تمنى لو كان وليدها ذكراً لتطلق عليه اسم والدها أو اسم عاصم والد ياسين.. كلاهما في عينيها أجمل رجال الأرض.. لكن في هذه اللحظة وهذه الأنتى الصغيرة على ذراعها كل شيء تغير..

ألفت ترى نفسها توقع ألف شهادة غفران لكل من خذها في أيامها وعلى رأسهم ياسين..

حين أخبرها طبيب التوليد منذ أسابيع أنه يحبذ كثيراً ألا تفكر في الإنجاب مرة أخرى لوجود أورام ليفية كثيرة في رحمها ضحكت وهي تقول إنها كانت وحيدة والديها كما هو زوجها وترى أن هذا أجمل.. لم تخبره أن زوجها أخذ عليها عهداً بعدم الإنجاب مرة أخرى..

كانت تظن إجابتها حفاظاً على كبريائها لكن الآن وهي تحمل هذه الصغيرة على صدرها تعلم علم اليقين أنها لن تستطيع أبداً أن تحتمل حباً آخر ولوعة أو لهفة أخرى كهذه في قلبها وروحها..

تعلم أن ياسين يخشى أن يباغته الموت كما تباغته نوبات رعشته، بل كلاهما رغم مرور أعوام على قصة حادثة الموت تلك يخشى أن يضرب جهازه العصبي ضربة قد تؤدي إلى شلل أو عجز.. لكن حتى إن حدث ما يخشونه جميعاً تعلم الآن وهي تضم الصغيرة إلى صدرها أنه كان قراراً صائباً..

نظرت إلى فتاتها وهمست: «ما زلت أحب والدك يا أميرتي.. بل علمتني الحياة معه أن الرجل لا يكون رجلاً

بعشقه أو وفائه بل بمبادئه»..

جالت الكلمات مرة أخرى برأسها وهي تغلق ثوبها
على صدرها بعد أن نامت الصغيرة..

تركتها غافية على ذراعيها..

لم تندم لحظة أنها طلبت منه الزواج.. لم تندم حتى
وهي تعلم أن في قلبه غصة من قصة قديمة لم تحاول
النش فيها رغم علمها أنه يحكيها إن أحت عليه..

ربما تشعر في أوقات كثيرة أن ياسين يخذلها بحزنه
العميق ولحظات صمته الطويلة..

تشعر أنه خذلها مرة برفضه للإنجاب في البداية
وراحته حين أخبرته بكلمات طبيبها..

ربما أيضًا خذلها مرة أخرى بسلبيته الكبيرة مع أمه
وزوجها الأخرق الذي يعلمان معا أنه جعل منها نصف
مجنونة ونصف حمقاء، لكنها تعلم أن مبادئه ما خذلتها
ولا خذلتها..

«لا أحد يرغب أمه على شيء يا ألفت.. بل لا أحد.. لا
أحد أبدًا من حقه أن يرغب آخر على شيء.. دعيها.. لو
كانت على حق ما جرحناها ولو كنا على صواب نداويها
حين تعود»!!

المبادئ أقوى وأهم من الحب..

بالحب أنت تسعد من حولك، ما زال الحب متأججًا
في الصدر وبالمبادئ تنصفهم وتسعدهم العمر ما دمت

تحيا، حتى إن غاب الحب عن الصدور..

الحب لحظة والمبادئ عمراً!!

العدل أبقى من الحب!!

انتفضت أفت كأنها أفاقت عندما شعرت به ينحني
على رأسها يضع عليه قبلة طويلة حانية لترفع أحد
ذراعيها وتضمه إليها في قوة كبيرة، ثم ترفع ذراعها
الأخر الذي يحمل صغيرتهما إليه وهو يجلس كأنها
ترجوه أن يحملها..

لحظات قصيرة تلك التي كان يرقب فيها ياسين وجه
الأميرة النائمة..

بعد تردد أخذها على ذراعيه وغابت عيناه تحديقان
في وجهها الصغير لتحضره كل الذكريات وكل اللحظات
التي ظن أنه لن يستحضرها، ودون أن يرفع رأسه قال
بصوت مرتعش:

- ماذا لو فاجأتني النوبة الآن يا أفت؟! قد تسقط عن
ذراعي.. ماذا لو انتصبت خطاياي القديمة يوماً وتأرت
منها؟! ماذا لو كرهتني إن أصبحت عاجزاً؟ وماذا لو مت
فجأة وتركتكما وحيدتين؟! أموت من ألف سؤال وألف
خوف وألف شبح ما زال يطاردني..

اعتدلت الأم في سريرها ودلت ساقها عنه تقول:

- لن تسقط عن ذراعيك وإن فاجأتك النوبة.. ولن
تسقط أنت من قلبها وإن حدث ما تخشاه.. خطايانا لا
تنتصب أبداً ياسين.. الاستغفار والرحمة يبتزان ساقها..

لا تخش شيئًا أرجوك..

أعاد ابنته إليها ودمعات صغيرات تنسل من عينيه..
ما زالت حيرته في قضية «بسمة» تجلده ليل نهار.. ما
زالت أحلام تزوره كأنها تسأله بأي ذنب قُتلت..

ما زال يحلم بأن يحكي القصة لأفت.. لا أحد سواها
يمكنه أن يفهم.. لكن لا أحد أيضًا سواها من القصة قد
يموت..

رغمًا عنه ورغمًا عن إيمانه أنه لن يقول قال:

- ما زالت القصة في صدري وما زلت أتمنى لو
تعرفينها كاملة..

ضمت أفت ابنتها إلى صدرها وقالت كأنها تعلم:

- هناك قصص تحكى وقصص لا يقال.. ما دامت
قصتك ترقص بين البوح والكتمان.. لا تقلها أرجوك..

كأنها تغالب كبرياءها استكملت تحاول أن تبتمسم
قائلة:

- ماذا تريد أن نسميها؟!

بحرقة كبيرة خرجت من صدره أهة عميقة قائلاً:

- أتمنى لو تسمحين أن نسميها أحلام!!

حينما طلب فاضل من مدير حسابات المستشفى أن
يُطلع ناهد على تطورات الأمر كان يريدتها فقط أن لا
تفاجأ بالأسوأ القادم..

لم يكن يتصور أبداً أنه سيعود في نهاية اليوم
ليجدها تعلم ما أخفاه..

المستشفى لا يخسر لكنه أيضاً لا يغطي شراحتها في
سحب النقود..

أرعى رأسه لحظة كأنه يعترف بشراسته هو أيضاً..

أقساط السيارات ومصاريف الفنادق والرحلات..
الملابس والأحذية العالمية.. عمليات التخريب التي
تجريها ناهد على وجهها وجسدها..

هل تراه السبب؟!

نعم.. شعورها المجنون أنها تريد أن تكون في عمره
يكلفها الكثير.. ليس فقط من عمليات التجميل وكريمات
اللؤلؤ والطين النادر، بل كثير من رحلاتهما للهروب من
مواجهة أصدقائهما في مصر وأعينهم التي أصبحت
تفيض بالإشفاق أكثر من الانبهار خاصة بعد الجراحة
الأخيرة..

شهور وهو ينحني على جسدها يُقبّل تلك الأجزاء
التي تحمل ندبات العمليات أو تلك الأجزاء التي أسقطها
الزمن وعجز عن مداواتها الجراح..

شهور يُقبَل تلك الأجزاء علها تهدأ لكن كيف ينسى
أنها تعلم أنه يغمض عينيه حينما تصر على ارتداء
«مايوه» من قطعتين، أو عندما تكون لتوها غادرت
صنبور المياه الذي جرف كل الألوان والمساحيق..

فاضل لا يكرهها لكنه أيضًا لم يستطع أن يهواها..

ما زالت يُسر حبيبته، ويوم حادثته منذ شهور تخبره
أنها طَلقت من زوجها رقص قلبه فرحًا..

التقاها وقَدَّم لها مبالغ كبيرة تبدأ بها مشروعًا يُدر
عليها وعلى طفليها نقودًا بعد أن تنكر لهما ولها الأب..

في كل مرة كان يكتب شيكًا لحبيبته كان يخبر نفسه
أنه من نصيبه يفعل..

لم يسرق ناهد لكنه عَجَل معها بانهيار المعبد وسقوط
حوائطه على رأسيهما..

لم تمس يداه يُسر مرة واحد.. سيتزوجها..

كلما غابت على صدره عندما يعانقها وسألته متى
الوعد يهمس أنه اقترب..

غصة في صدره تجعله يخجل من نفسه..

ينتظر أن تموت ناهد.. نعم..

فاضل ينتظر موتها ليحيا!!

الآن وبعد أن علمت أن البنك أرسل إنذارًا رسميًا لهم
بإخلاء الفيلا المرهونة رسميًا باسمها..

الآن وبعد أن أخبرته أنها لا تريد شيئاً سوى أن يرحل
ويغادر حياتها أصبح عليه أن ينسى حلم الموت ويواجه
قرار النفي وحده..

ليس باسمه شيء.. توكيل الإدارة الذي حررته له،
أخبرته أنها قامت بإلغائه في طريقها إلى البيت..
ليس عليه حتى أن يحزم أمتعته.. عليه فقط أن
يحملها ويعود إلى منزل والديه..

حتى الشقة التي اشتراها من «نصيبه» ما زال عليه
أقساط يعلم أنه لن يستطيع تدبير أمرها..

هل تمنحه يسر النقود التي منحها إياها أم تشركه في
المشروع الذي تحاول البدء فيه..

لا يعلم!!

لم يكن يعلم أبداً أن ناهد ستصل في ساعات إلى
حقائق وتصدر قرارات وتحزم حقائب وتجلس بهذا
الثبات تنتظره وتطلب منه الرحيل..

كان ينتظر أن يعود ليجدها منهاراً تبكي بعد مخابرة
الحسابات ويجلسان معاً يتدبران الأمر..

ليست ثائرة لينتظر أن تهدأ، وليست خائفة ليحاول
أن يبت في صدرها الأمل.. ولم تعد أبداً جائعة ليفويها
بالجنس والعناق..

ناهد بوجهها المغسول كانت وللمرة الأولى في حياته
معها يائسة حتى الموت..

كان ينتظر أن تموت لكنه لا يعرف كيف يتعامل مع
الموتى..

لا طريق أمامه سوى أن يحمل حقائبه فعلاً ويمضي..
حتى المستشفى أخبرته في هدوء أنه غير مسموح له
بتجاوز بابه..

مغامرة كانت.. رحلة وانتهت..

رحلة جاب فيها العالم.. ارتدى فيها ملابس ما كان
ليرتديها ووضع على جسده عطوراً ما كان ليعرف
رائحتها..

منح والديه نقوداً وأذاقهما أطعمة ما كانا يحلمان
بتذوقها
يوماً ما..

رأى يسر ترتمي على صدره وتقبل كفيه.. لكن ناهد
في لحظة قررت أن تفتح باب الطائرة وتلقيه منها..

هو لم يُفرقها لكنه عجز عن أن يمنع نفسه عن الفرق
في ملذات هي أيضاً غاب وعيها عند ظهورها.. ليته
يعرف كيف ينقذها وليتها تصدق أنه كان يتمنى لها
الموت لكنه أبداً ما أراد لها الهزيمة والإفلاس..

نظر فاضل إلى حقائبه المصطفة إلى جوار باب بيت
يعلم أن سيدته ستغادره هي الأخرى إن لم تسد أقساط
البنك، ويثق في أنها وكل أقربائها سيعجزون عن
السداد..

لن يترك لها سيارته رغم أنه عرض عليها أن يفعل..
كانت على حق حينما ضحكت وقالت إنها ليست
بالغباء لأن تطلب شيئًا مسجلًا باسمه.. لكنها تملك من
الذكاء ما يكفي لأن تعلم أنه وحده سيبيعها، فهو لا
يمك أن ينفق عليها بعد غياب من كانت تنفق عليهما
مقا!!

الرحلة انتهت فاضل وأن أوان العودة!!

لم يكن ذكيًا ليدخر نقودًا أكثر لكن ما زال لديه ما
يكفيه لأن يحيا حتى يجد رحلة جديدة قد يخرج منها
بخسائر أقل.. لا يستطيع أبدًا أن يقاوم..

يريد أن يحدث يُسر ويخبرها بما حدث..

رغم فجيعة الإفلاس لكنها وحدها أكثرهم سعادة..

سيتزوجها.. ما زالت مئات الألوف التي منحها إياها
في حسابها بالبنك..

بعد أن وضع فاضل حقائقه في سيارته وأدار محركها
حادث حبيبته وأخبرها بكل شيء..

بكي يخبرها أن ناهد قد لا تجد مأوى تلجأ إليه إن
رفض وحيدها إيواها..

كان يبكي وهو يخبرها أنه ما كان أبدًا يتمنى أن
يحدث كل هذا لكنه سعيد رغم كل شيء لأن زواجهما
أصبح ممكنًا..

كانت يسر تستمع في سكون وهدوء.. لم تقاطعه
لحظة حتى شعر أنها ستطلب منه أن يذهب بحقائبه
إلى بيتها وتستدعي المأذون ليتزوجا..

بل حرك شففيه ليخبرها أنه سيحاول أن يوقظ
مأذونا من فراشه ويذهب به إليها، لكنها في هدوء
أغلقت سماعة الهاتف بعد أن قالت:

- اعتذريا فاضل.. أنا عدت إلى زوجي منذ لحظات!!

رفعت طرف عينيها الواسعتين تنظر بهما إلى المرأة..
 كيف مرت أعوام نسيت فيها أن تنظر إلى المرأة..
 أعين من نحبهم تصبح وحدها المرايا أحيانًا!!
 وكيف منذ عاد من بيتها يبكي ويطلب منها أن تضمه
 إلى صدرها وهي تنظر كل صباح إلى المرأة..
 ضمت مريم جبر إلى صدرها على باب بيته المفتوح
 تلك الليلة وبكى معًا لحظات طويلة..
 كان يهددها مرددًا أن ولدها بخير، وكانت تلتصق
 بصدرة وكتفيه وتبكي أكثر..
 لم تكن في تلك اللحظات تبكي خوفها على مصطفى
 فهو منذ أخبرها أنه بخير تثق أنه كذلك..
 كانت تبكي وتنتفض على صدره حاجة وشوقًا
 ودهشة.. تعلم أنها تحبه منذ أعوام لكن في لحظات
 العناق فقط نعلم كم هو حجم الحب!!
 حين ضمته بعد بكانه علمت أنها هي منه إلى العناق
 أحوج وبالبراءة أولى..
 سكنت دمعات جبر وأدرك ما يدور..
 بكل قوته أبقاها على صدره.. بكل حنانه وطيبته أخذ
 يهمس في أذنها أنه يحبها وأنه معها وأبداً لن يتركها..

كانت مع كل كلمة ينطقها تبكي أكثر ومع كل دمعة
تسقط على قميصه تشعر أن قطعة منها تصحو وقطعة
أخرى تفتح عينيها وتبصر ما أخفته عنها أعوامًا.. كم
عمر الأعوام يا مريم!!

نظرة أخرى خاطفة إلى عينيها المغسولتين بالدمع
في المرأة..

كم عامًا تزوجت فيها ولدها ونسيت صورتها وصوتها
وروحها..

منذ اختفى زوجها.. منذ بكت وأمها على باب والديه
وطردوهما حتى بعد أن أخبرتهم بنبا حملها..

منذ ماتت أمها.. منذ علمت أنها الرجل الذي يجب أن
يقف وينتصب ليأخذ بيد مصطفى..

على صدر جبر استيقظت المرأة التي رغم علمها أنها
تحبه وتريده بقي كل شيء فيها أعوامًا غافيا..

بعد تلك اللحظات الطويلة على صدره دخل بها إلى
صالة البيت وترك الباب مفتوحًا..

أجلسها على مقعد بجوار الأريكة التي تغفو عليها
بسمته الصغيرة وأحضر لها كوب ماء بارد وحين مدَّ كفه
به إليها سمعت أوصالها تناديه..

منه لا من الكوب تريد أن ترتوي..

من صدره وكتفيه.. من أنفاسه ورائحته..

مصطفى بخير.. هذا كل ما يهمها.. لكن تريد أن
تطمئن أنها أيضًا بخير.. كل هذه القطع الصغيرة التي
استيقظت من روحها وجسدها تريد أن تطمئن أنها أيضًا
بخير ولا طريق للخير سوى صدره وكتفيه..

كانت عيناها تنظران إلى كوب الماء وترتفعان لتنظرا
إليه من جديد، وتنحدر دموع صغيرة كأنها تستجديه أن
يأخذها إلى حيث شهدت عودة الروح وحضور الجسد..
بعد لحظات من الصبر مد يده بالكوب إلى شفيتها
وفي هدوء من أصابعه ارتشفت رشقات من الماء لتهدأ
أنفاسها قليلاً..

جلس جبر إلى جوارها ونكس رأسه ليقول كأنه يقرأ
شهادة ميلادها وميلاده:

- حين أحببت أحلام ظننت أن لا امرأة على الأرض
سواها تملك مفاتيحي..

حين مانت يا مريم وأغلقت عليها القبر ظننت أني
أودعت رجولتي وروحي إلى جوار جسدها..

بطرف عينه نظر إلى الصغيرة النائمة وأكمل يقول:
- بسة كانت مهمتي.. نعم..

إن لم تكن من أحلام.. إن لم تحملها أمي أعوامًا
وتختلط أنفاسها بجلدها وعظمتها لمت بعد رحيل
الحيبتين.. لكن أدرك الآن أنني أحبك..

من الغباء أن نسأل هل نحب شخصاً بنفس القدر الذي
أحبنا به آخر..

هناك عشق يبدأ عملاقاً ويخبو وهناك عشق يولد
صغيراً وينمو..

مصطفى بخير وسيصبح بخير أكثر حين يصحو من
حماقة صباه ويعود إليك..

أنا وأنت مريم لن نكون بخير إلا إن كنا مغا..

كيف تنسى أنها حين رفعت عينيها الباكيتين خانتها
شفتها الورديتان المكنزتان.. كانت تتمنى لو تخبره أنها
من سيئاتها عادت على صدره وأنها تربده.. لكن قلب الأم
المذبوح يكتم شفيتها ويدلي عنقها خجلاً..

قبل أن تحارب شفيتها.. قبل أن تبحث عن صوتها، مَدَّ
القادم من عند وليدها يده نحوها وقال في إنهاك:

- جبر مكسور الروح والوجدان.. اجبريه يا مريم..

اجبريه!!

عشرة أيام منذ تلك اللحظات والمرأة ملاذها..

كلما حملت بسمة على ذراعيها وبكت عروقها شوقاً
لعناق مصطفى هربت تنظر إلى مراتها تخبرها أنها
وعدته بالصبر ووعدتها بالفرج!!

كلما استيقظت ليلاً في بيته بكت شوقاً إلى دخول
غرفة مصطفى لثحك غطاء نومه أو لتلمع حذاء
مدرسته أو حتى لتنظر إلى وجهه النائم.. عادت إلى

مرأتها تطلب من المذعورة التي تسكنها الصبر.. وعدها
جبر أن يأتي به.. وهي تصدقه..

رجل أيقظ كل ما فيها وأعادته إلى الحياة، هو رجل
يجب أن تتبعه وتصدقه..

لكنها اليوم ترى في مرأتها وجهًا آخر.. تسمع في
جنباتها صوتًا آخر..

صوت أم ما عادت تحتل..

ذراعا جبر وذكراهما لا تهدئها.. حتى ثقنتها وإيمانها
بكلماته عن حماقة مصطفى وجبروت صباه التي تعرفها
لا تمنعها أبدًا عن صرخات تتحرك بداخلها..

لم تعد تحتل أكثر.. تعلم أن حبيبها يحادثه كل يوم
ومرعليه منذ يومين ليضع بين يديه مبلغًا من المال لكن
ما عادت تحتل..

لم تخبر جبر أنها حادثته منذ أيام وأن صوته كان
باردًا كجثث الموتى..

لم تقل إنها تشتاق إليه ولم تقل إنها لا تمانع في
تقبيل أطرافه فقط لو يخبرها أنه يريدّها.. يحتاجها أو
يشتاقها.. كان هادئًا باردًا أخبرها أن أموره تسير بخير
وأنه ما زال يحقق أعلى الدرجات..

في نهاية المكالمة أخبرته بصوت مرتعش أنها تشتاقه
لكنها غاضبة..

بذات قسوة الصوت أخبرها أن البيت بيتها وليس
بيته متى شاءت عادت وإن شاءت هو يرحل..

من أين له بكل هذه القسوة ومن أين لها بكل ذلك
الصبر معه..

أعادت على أذنيه أنها غاضبة وأعاد على أذنيها أنه لم
يفعل شيئًا يغضبها..

حين صاحت تردد عليه أخطاءه أخبرها أنه يريد
النوم..

أغلقت الهاتف ولم تجرؤ على إخبار جبر، بل ركضت
إلى مراتها وبعد أن حدقت طويلًا في وجهها الغائم
علمت أن لا طريق أمامها أبدًا سوى الصمت ووعدته..

أضلعها كجناحي حمامة مذبوحة.. هذه الليلة شيء
في الحنايا يموت شوقًا إليه..

دلت ساقها عن فراشها.. يجب أن تستعد لموعد
العيادة خاصة أن دكتورة ألفت ما زالت في إجازتها..
في ألم وفي طريقها إلى صالة البيت الصغيرة سمعت
هاتفها يرن..

هو جبر..

في وقته وفي أوانه جاء.. ستخبره عن عواصف
الروح.. ستطلب منه أن يأخذها إلى ولدها أو يأتي به
إليها.. تريده كما هو.. بجحوده وقسوته..

عشقه يجبر ما يفعله بها وحيدها لكن لن تنتظر منه
تغيرًا أو إصلاحًا..

الزمن لا يصلح القلوب القاسية بل يزيد بها جحودًا
وقسوة..

حين فتحت خط الهاتف وقبل أن تقول شيئًا سمعت
جبر يقول في ألم:

- ارتدي ملابسك يا مريم.. لحظات وأكون أسفل
البيت.. أحضري بسمة معك.. لن تذهبي إلى العيادة
اليوم.. سنذهب إلى مصطفى!!

أليس هذا ما كانت تريده.. أليس هذا ما كانت تتمنى
أن
تخبره به..

لماذا تجمدت أطرافها وتكورت دمة في عيناها..
كان صوتها متحشرجًا ضعيفًا وهي ترقبه يغادر
حنجرتها ويسأل جبر إن كان بخير..
كان صوته أكثر منها وهنًا وتمزقًا وهو يوضح رسالته
قائلًا:

- هو بخير يا حبيبتي.. لكنه اختار أن لا تكوني ولا
أكون!!

نامت وكانت تظن أنها دونه لن تنام..

حين استيقظت لم تركض إلى حمام غرفتها لتضع
بعضًا من الألوان على وجهها..

حين مزّت من جوار باب الغرفة استندت إليه بكفها
وأطلقت آهة صغيرة كانت تكتنمها كل صباح..

عظام جسدها تؤلمها بعد رحلة النوم وللمرة الأولى
بإمكانها أن تتأوه وتستند إلى مقعد أو تنحني في ألم ثم
تنتصب حتى تستعيد ليونة جسدها..

لا أحد في البيت..

عند عودتها بالأمس من منزل سامي أسعد أعطت
خدمها جميعهم إجازة لمدة أسبوع..

وحدها جمعت كل أشياءه ووضعتها في حقائب..

في خطى هادئة سارت نحو مطبخها وأعدت كوبًا
كبيرًا من قهوة الصباح لتعود به في يدها وتجلس على
أحد المقاعد..

مريح أن تحزن وحدك.. مريح جدًا أن تبكي أو لا
تبكي.. أن تبدو عجوزًا أو صبيًا..

المهم أن تكون أنت!!

ماذا فعلت بنفسها؟!

أربعة أعوام تقريبًا تتقمص دور عروس شابة.. تعبت
وما عرفت أنها تعبت إلا أمام سامي أسعد..

حين دخلت بيته.. نظر إليها في ذهول واستمع إلى
قصتها في سكون وبعد أن انتهت من سرد قصة البنك
وإنذاره والمديونية وعجزهم عن السداد لم يقل سوى
كلمة واحدة أصابتها في مقتل..

سألها: «هل أنت حقًا ناهد؟!»

ضربها إعصار ذهول كبير وهي تنظر إلى دمعة كانت
تترقرق في عينه.. غالبت دمعها وقالت في آخر ما بقي
من عنادها وصلافتها: «ليس وقتًا للسخرية والتشفي..
لم أذهب إلى ولدي وقصدت بيتك»..

اقترب منها بشعره الذي يخلو من شعرة واحدة
سوداء وأعاد عليها السؤال:

- لو أنك احتفظت بشيء من تلك المرأة لرأيت ما
يحدث حولك قبل أن ينهار كل شيء على رأسك..

مال بجسده على طاولة عليها بعض من قطع الفضة
وأمسك مرآة منقوشة ومد يده بها إليها قائلاً:

- هل هذه زوجة عاصم.. هل هذه أم ياسين.. ماذا
بنفسك صنعت؟! ماذا من شاب صغير مثل قاضل كنت
تنتظرين؟ الحكمة أم الحنكة وحسن التصرف؟! لو كان
يملك أيهما ما ترك خطيبته وتزوجك يومًا!!

عادت ناهد ترتشف من كوب قهوة الصباح رشفة

أخرى..

كان أسعد قاسياً وكانت متعبة كأنها تنتظر شارة
الانهيار..

الحقائق دائماً واضحة جلية لكن هناك لحظة واحدة
نتقبلها فيها..

يظن البعض أنهم وحدهم من أفاقونا أو أقنعونا.. لكن
حمقى هم مثلنا..

القصة كلها أنهم ألقوا خطبهم على مسامعنا في لحظة
ما عدنا نحن فيها نحتمل مزيداً من الهرب
والمكابرة.. بكت ناهد أمام أسعد كثيراً.. بكت دون
كلمات.. بكت ركضها خلف فاضل.. تخوفها وارتعاشات
جسدها في كل مرة يدخلان مجتمعاً لا يعرفهما فيه
أحد خوفاً من أن يظنها أحد أمه وليست زوجته.. بكت
كل ثوب اشترته ليس لأنها تحبه بل لأنه قد يجعلها تبدو
أصغر.. بكت نظرات ألفت زوجة ولدها القاسية.. بكت
هرب ياسين من استقبالها أو الذهاب إلى بيتها..

بكت حتى اضطرارها لأن تنمرغ على جسد فاضل في
اللحظات التي كان كل ما تتمناه فيها أن تأخذ قرصاً
يسكن آلام مفاصلها وتنام..

لم يسألها أسعد لم تبكي لكنها شعرت أنه يعلم..

أحياناً لا يفهمك إلا من هم في عمرك!!

بعد أن هدأت قليلاً مسحت وجهها دونما اكتراث
بسقوط المساحيق عنه.. عندها أمسك هاتفه وأجرى
مكالمات كثيرة بعد أسئلة صغيرة وجهها لها..

بعد ساعات أخبرها أنه سيقوم بتسديد الأقساط المتأخرة.. رفعت رأسها تخبره أنها ستغلق المستشفى وتقوم ببيع الأجهزة وتسديد باقي الدين.. لكن سامي اقترب منها يخبرها أن تترك له كل شيء وأنه سيتدبر أمر المستشفى شريطة أن لا يدخله زوجها، وقال كأنه يختتم قراراته:

- أريد تلك اللافتة التي تحمل اسم عاصم الببلاوي أن ثدق على باب بيته وتبقى حتى الموت!!
كيف نهضت لحظتها وأخبرته أنه ما عاد لها زوجا وأنها عادت أرملة من جديد..
- كانت تجربة وفشلت سامي!!

في حزم أمسك بيدها يقودها إلى باب بيته قائلا:
- كانت «سقطة» وأفقت منها.. التجارب تُعاد أما السقطات فحين ننجو منها لا نفعلها مرتين!!
في طريق عودتها كانت تشعر أنها تتنفس هواء يدخل صدرها دون أن يطرق عليه ليرى من أي مجرى يمر..
بطرف عينها كانت تنظر إلى مراتها ووجها المفسول بالدمع..

تعلم أنه تغير وأصبح منفوخا، بل فلتعترف: أصبح منفرا.. لكن لم تعد تريد أن تخفيه أو تداويه..
تريد أن تهدأ.. أن تتحرر..

ما عادت تستطيع الركض واللهاث خلف الوهم أكثر..

أخذ فاضل ما يريد وأكثر..

ما زال عمر جاسوسًا لها وكان يخبرها بزياراته إلى
المطلقة الشابة التي كان يومًا يحبها!!

كان يومًا يحبها!!

كانت تعلم وتتلذذ بأنه لن يتركها كأن عجزه سطر في
شهادة صباها!!

الآن تريده أن يذهب إليها.. تريده أن يبتعد..

ليس لأنه سبب في خسارتها أو أنه يكاد يجعلها بلا
بيت أو مأوى لكن لأنها في لحظة علمت أنها تعبت..

عجوز وتعبت!!

بآخر قواها جمعت كل أشياءه وحزمت له أكثر من
عشر حقائب..

لم تترك شيئًا واحدًا من أشياءه وإن كانت من هداياها
أو من نقودها الخاصة..

حين عاد في المساء ودخل إلى بهو الفيلا وبعد
خلوها من الخدم جميعهم نظر في زهول إلى الحقائب،
وحين أخبرته أن عليه أن يحملها جميعًا ويمضي لم يبذ
عليه الحزن.. ربما بدا عليه شيء من الدهشة كأنه لا
يصدق أنها تبيعه بعد أن اشتريته يومًا بكل ما كانت تملك
من سمعة وكبرياء.. هو أيضًا تعب.. يريد أن يعود إلى
مكانه!!

استدارت تذهب إلى غرفتها ريثما يحمل حقائبه إلى
سيارته ثم عادت بعد لحظة تنظر إليه وقالت كأنها
تذكرت شيئًا أخيرًا:

- يحادثك المحامي في الغد.. توكيل الإدارة تم
إلغاؤه.. لا تفكر في دخول المستشفى فاضل.. سامي
أسعد سيدير القصة.. لا شيء بقي بيننا سوى ورقة
طلاق ترسلها وهذه..

كانت تسحب دبلة زواجهما الماسية التي دفعت هي
ثمناها وسمعته يقول في صدق:
- ناهد.. لا أريدها..

وضعتها بين أصابعه وقالت:

- لا أريد شيئًا من رائحة الموت والموتى!

انتهت القهوة وعادت أصابعها بالكوب الفارغ إلى
الطاولة..

ربما أخطأت لأنها عاشت مع عاصم وهو لا يفهمها ولا
تحبه لكنها جنت يوم ظنت أن عمراً مضى بإمكانها أن
تعيده وتحياه كما تريد من جديد..

هو سقطة من سقطات الحماقة والسقطات لا تُعاد
مرتين!!

قد يستطيع أسعد إنقاذها وقد لا يستطيع..

قد يبقى البيت وقد يأخذه البنك..

هي أثمان يجب أن تدفعها.. لكن بات يكفيها أن تفعل
دون حاجة إلى رسم وتزييف..

أمسكت هاتفها وخابرت ولدها تخبره أنها تريد رؤية
حفيدتها.. حين شعرت به يتململ قالت في بساطة:

- سأحضر وحدي ياسين.. ما عاد هناك شيء اسمه
فاضل ولا بقي من رائحته شيء!!

ارتدت مريم ثيابها في جنون.. تتمنى لو تحدث
ولدها.. تريد فقط أن تطمن أنه بخير.. لكن شيء من
الخوف يمنعها..

أدارت رقم ياسين كأنها تقتل بمكالمته الدقائق وحين
أجابها قالت في صوتها الضائع المبحوح:

- دكتور ياسين لن أستطيع الذهاب إلى العيادة وأعلم
أنك..

سكنت على لسانها الحروف.. ما تراها تقول؟!

هل تخبره أنها تعلم أن الطبيب لا يجب أن يُترك في
العيادة وحده خاصة مع تغيب زوجته لأنه قد يسقط
في لحظة إن طارده نوبات مرضه..

هناك أشياء نعلمها لكن نعجز عن صياغتها..

في ألم فهم ياسين ما تعنيه لكن دون وعي منه هو
الأخر سألها:

- هل بسمه بخير؟!

لماذا يسأل عن بسمه دوماً؟ لماذا يهتم بها إلى هذا
الحد؟ لأنها ابنة أحلام؟ هل أحبها كما كانت تحبه؟!

لا يعنيه الأمر في شيء.. ما يعنيهها هو ولدها.. عمرها
وروحها..

عاد ياسين يسأل وقد غيّر السؤال كأنه ما استساع
خروجه من شفّتيه قائلاً:

- ماذا هناك يا مريم؟ هل أنت بخير؟!

انفجرت تبكي وتقول:

- لا أعلم.. جبر في الطريق.. هناك شيء يدور لدى
مصطفى.. أرجوك.. أرجوك دكتور ياسين لا تغضب وادع
له ولي!!

كانت تحادثه وتتحرك.. التقطت كف بسمّة الصغيرة
بين يديها ثم أحكمت طرحتها حول وجهها وهي تغلق
الباب والهاتف دون وعي وتركض إلى مدخل البيت..
لم يكن جبر قد وصل بعد ولم تنتظر..

ستركض إلى مصطفى دون أن تحادثه..

أهون أن ترى بعينيك ما تعجز عن سماعه بأذنك..

حملت الصغيرة على كتفيها وركضت تنتمتم باسم من
لا يحضرنا اسم سواه في لحظات الخوف والرجاء..

من خلف كتفيها رأت الصغيرة جبر وصاحت تقول:
«بابا»!!

مئات المرات سمعتها تقولها لكن هذه المرة تختلف..

حين استدارت مريم كان جبر بجوارها بسيارته
الأجرة يفتح الباب ويناديه..

حين غادر السيارة وأسرع إليها ليأخذ بسمّة من على
ذراعها استيقظت كل مخاوفها وهطلت كل دمعاتها

وهمست:

- مصطفى..

انحنى يضع ابنته في المقعد الخلفي وأمسك بكفها
يدخلها إلى المقعد المجاور له وقال في ألم:

- اختار الرحيل مع والده..

كانها تساق إلى حبل المشنقة ..

خطواتها ثقيلة تستند على ذراع جبر بينما يحمل
الصغيرة على ذراعه الآخر..

أخبرها في الدقائق القليلة التي تفصل بيته عن بيتها
أن والد مصطفى حادثه يخبره أنه سيأخذ ولده ويسافر
تاركًا لها مفتاح البيت لدى أحد الجيران..

كادت روحها تغادرها وجبر يحكي لها كيف توصل إليه
أن يبقيا حتى يأتي بها..

أخبره أن مصطفى لا يريد البقاء وأن الطائرة سثقلع
في غضون ساعات لكنه أقسم عليه بالأحياء والأموات
جميعهم أن لا يحرم أمًا من وداع طفلها..

استدار ينظر إلى وجهها يحاول أن يبت الأمل في
صدرها يخبرها أنه يشعر أن الرجل استغل هذا الخصام
ليأخذه وأخذ يقسم لها إنه لن يتركه يذهب به وإن كان
على جثته فقط إن شعر أن مصطفى يريد البقاء..
كانت تسمع كلماته ولا تفهمها..

كان في رأس مريم صور لا يعرفها سوى الله..

كيف اضطرت أمها إلى العمل خادمة في المنازل
وكيف أكلت أقدامها رطوبة مياه التنظيف الباردة حتى
تعلمت مريم التمريض..

كانت ترى بعينيها كيف ذابت كل أثوابها الملونة
الزاهية وارتدت ثوبًا واشترت آخر ليصبح كل ما في
جيبها للإنفاق على وحيدها بعد رحيل أمها..

لا تفهم ولا تصدق!!

مصطفى لا والد له.. من أين جاء هذا الوالد وكيف
ومتى!!

حين وقفا أمام باب البيت اصطدمت عيناها بسيارة
حديثة تقف وعليها ثلاث حقائب، إحداها حقيبة تعرفها
ولا تملك سواها..

حين خطت نحو البيت أمسك جبر بكفها وقال:

- مريم.. معك أنا!!

حين فتح مصطفى الباب ورأهما لم يقل كلمة.. نكس
رأسه الصغير ناظرًا إلى حذائه، وقالت مريم في حدة
جريح لا يعلم أحد كيف يموت ويتالم:

- من أبوك؟!

جاء صوته يقول:

- هي رغبتة يا مريم!!

نعم هو من كان زوجها.. ذاك الرجل الذي غاب وطلقها
دون أن تعرف حتى السبب..

هو الذي أخبرت والديه عن ولده فطردوها وأمها..

أي حروف تقولها وأي حروف تبحث عنها..

كانت عيناها زائفتين تتحركان بين الولد وأبيه، وكان
جبر يحاول أن يجد شيئًا يقوله لكن جمود الابن قطع
رؤوس الأحرف وأطاح بأعناق الكلمات..

قال الأب في تردد:

- كنت أعمل في أحد البلاد مريم، وكان صعبًا جدًا أن
أحضرك.. أردت إطلاق سراحك.. لم يخبرني أحد أنك
أنجبت.. منذ شهور قليلة أرسل مصطفى لي رسالة عبر
شبكات التواصل الاجتماعي.. تركت كل شيء
وحضرت.. استخرجت له أوراقه وسأصطحبه معي..
لدي ولدان.. اطمئني سيكون بخير..

بابتسامة ساخرة مريرة سألت:

- أما كان بخير معي؟! أما كبر وظهر شاربه في
وجهه؟! أما تفوق ونجح معي؟!

في خجل نكس الزائر رأسه وقال:

- أعلم قسوة الموقف لكن كيف أردته؟ له في مالي
وجاهي حق..

تدخل جبر قائلاً:

- إن كان له حق تريد أن تمنحه إياه فهل يعني هذا أن
تسلب أمه كل حقوقها..

نظر الرجل إلى جبر في شيء من الحدة لكنه أكمل
يقول:

- لو طلب مالا لمنحته.. لكنه طلب «أنا» يحيا معه..
طلب حياة في بيت أفضل وبلداً أجمل ومستوى أرفع..
كانت عيناها جاحظتين ككرة من نار وهي تنظر بهما
إلى وحيدها.. تتمنى لو ترى في عينيه لمحة ندم أو
اعتراض لكن لا شيء سوى صوت الزائر الذي عاد يقول:
- لا أخذل ولدي.. عدم وجودي معه طيلة الأعوام
الماضية
لا يعني أن أتخلى عنه الأعوام القادمة ما دام لا يريد
لماضيه أن يكتمل هنا..

في تلك اللحظة صاح جبر يقول:

- مصطفى.. تحدث.. هل تطيق فراقها؟ هل حقاً
سعيت له.. هل بيدك حزمت حقائبك؟ هل ترى وطناً
أجمل من وطنك وبيتاً أرحب من بيت فيه مريم.. فيه
أمك..

بعد لحظات اقترب مصطفى من أمه قائلاً:

- أعلم أنها تحبني لكن أريد حياة أفضل.. أكره كل
شيء هنا.. مدرستي ورفاقي.. عملها.. هذه الجدران..
هذا البلد الذي ما عاد فيه شيء.. رأيت صور بيت
والدي.. رأيت شوارع المدينة التي يحيا فيها.. أريد أن
أكون هناك.. أحيا معه وإن عاد إلى وطنه يوماً أعود
معه.. سأشتاق لها لكن كنت أثق أنها لن تفهم وأثق أنها
حين تراني سعيداً تنسى وجعها.. أليس كذلك؟!

كان يضع أصابعه على كتف مريم الصامته لكنها
انتفضت بتتعد قائلة:

- مَنْ يبيع وطنًا، هل يشتري أمًا؟!

استدارت نحو جبر تكمل:

- ماذا بعد؟! فليذهب..

أمسك الزائر بذراع ولده وفي طريقهما إلى خارج
البيت قال:

- تركت بطاقة فيها أرقام هاتفي وكل وسائل
الاتصال.. ستهدئين وسأحضره لزيارتك كل عام.. أعدك
أن يصبح ولدك شيئًا كبيرًا..

رقصت قدما الصغير كأنه يتمنى لو يعانقها وتشبثت
بقدميها في الأرض حتى لا تستجيب.. حين أغلقا الباب
سقطت على مقعدها وسقط رأسها بين كفيها وشعرت
بالصغيرة تمسك بكفيها وتداعبها.. تناديه..

أبعد جبر الصغيرة عنها وقال:

- خذلتك لكن ما كان هناك شيء يُقال..

لم تكن تبكي لكنه كان يعلم أن حرائقها تشحذ النار
لتندلع في لحظة ما..

أرادها أن تجبره ويعلم أنه الآن مسئول عن جبرها
وإلا ضاعت ما بقي من العمر..

حين جلس تحت ركبتيها وأمسك بكفيها بين يديه

قال:

- أقدارنا جميعًا يا مريم أن ننكسر لكن علّ في ذلك
حكمة..

لا يرمم كسيرًا إلا كسير.. أنا معك.. وتعلمين كما أعلم أنه
سيعود.. من أجل تلك اللحظة التي يفيق فيها.. من أجل
تلك اللحظة التي يحتاجك فيها ارفعي رأسك وخذي
بيدي ودعيني أخذ بيدك..

رفعت وجهها ونظرت إليه وعادت تتجول بعينيها في
أرجاء بيت كان يومًا سكنه وسكنها وقالت:

- أهكذا يرحلون؟! أهكذا حقًا ينسون ويذهبون؟! لم
يكن ولدي.. كان روعي..

كان نازًا أمسكت بقلبها.. انتفضت وهي تسمع دقات
على بابها ولاحت بسمة على شفاه جبر.. علّه عاد!!

حين ركضت مريم وخلفها بسمة تفتح الباب كان
شيء في روحها يجزم أنه هو وأنه عجز عن الرحيل..
لكنها وجدت أمامها ياسين يقول في قلق:

- ما كان من الممكن أن أتركك دون اطمئنان..

أطلقت مريم ضحكة عالية مريرة واستدارت إلى جبر
الذي أسرع نحو ياسين يفسح له الطريق ليسمعاها
تقول:

- الحبيب يذبح والغريب يطمئن!!

وضعت بسمه ذراعيها حول كتفي مريم من خلف
ظهرها وأخذت تضع قبلات صغيرة على شعرها وهي
تهمس:

- لا أصدق أنك استطعت إقناعه.. أحبك كثيرًا..

استدارت مريم تنظر إليها في حنان وهي تضحك
قائلة:

- هو أيضًا يحبك لكنه يخاف عليك وصباح كثيرًا..

ظهر جبر في تلك اللحظة آتيا من ردهة غرف النوم
ينظر إلى وجهيهما مغا وقال في شيء من العصبية:

- أقنعتني أمك بالذهاب إلى صديقتك لكن لن
تأخري.. أتركك عند الباب وأعود إليك بعد ساعتين!!

بعيون تكاد تبكي نظرت إلى مريم التي أسرعت تقول
في رجاء:

- ثلاث ساعات يا جبر!!

لا يملك أن يرد لزوجته كلمة.. ليست زوجته فحسب..
بل إنها أم لبسمه كما هي أم لصباح التي أنجباها منذ
عامين.. لكن ما عاد يعرف كيف يسيطر على جيوش
الخوف التي تقتلع روحه كلما رأى بسمه تكبر وتتحول
إلى أحلام صغيرة..

يخشى عليها من كل شيء.. بل يغار عليها.. يشعر أنها
قد تضيع كما ضاعت أمها يومًا.. أصبحت تقترب من

عامها العاشر لكن كل عام من أعوام عمرها انتصبت فيه
قلاع خوف وألم لا تغيب..

عادت مريم ترجوه قائلة:

- ثلاث ساعات يا جبر..

انحنى يضع على رأسها قبلة حانية ومد يده إلى
بسمته قائلاً:

- لا يُرد لك رجاء!!

حين غاب هو وابنته وأغلق دونهما الباب غاصت
مريم بين ذراعي المقعد الذي تجلس عليه وهي تنظر
حولها في هدوء..

تزوجت جبر هنا في حي الدقي منذ ثلاثة أعوام..
تزوجته بعد رحيل مصطفى بعامين كاملين.. عامان لم
تتوقف فيهما عن البكاء ولم يتوقف فيهما جبر عن
مساندتها..

لماذا تكابر؟!

ما زالت تبكي رحيله وغيابه.. يحادثها في الأعياد
والمناسبات كأنه ما كان ينفوسها ويصحو..
كلمات قليلة باردة حتى أصبحت لا تعلم إن كانت
تنتظرها أم تنتظر انقطاعها.. ورغم هذا
ما زالت تبكي رحيله وتسمع في كل ليلة صوت تحطم
قلبها بين ضلوعها وهي تحمل صغيرتها كأنها تبحث عنه
وعن رائحته..

لا أحد يحيا دون كسور.. لكن الكسور غالبًا لا تقتل
أحدًا!!

لن تنسى أبدًا يوم رحل وكيف دخلت غرفته بعد
ساعات لتجده لم يترك شيئًا من أشياءه..

في تلك اللحظة بكت وصاحت ولطمت وجهها..
ركضت إلى جبر وصفيرته وهي تتناثر بكاءً وصراخًا
وقالت:

- لم يترك لي حتى حذاء من راحته.. أخذ كل شيء..
كل شيء!!

كيف تنسى أن بسمة التي أخرجتها يومًا من أحشاء
أمها في غرفة العمليات ضمتها إلى صدرها تطلب منها
ألا تبكي كأن أحلام أنجبته وماتت لتجدها هي في تلك
اللحظة..

هناك لحظات ليست كاللحظات..

ضمها جبر إلى صدره طويلًا ونظر إلى صغيرته في
حسرة قائلاً كأنه يحدث نفسه:

- حذاؤه بل وكل ملابسه عنه لن تغنيك!!

أيام، بل شهور، لم تغسل أغشية فراشه حتى ماتت
فيها راحته..

شهور وجبر يطلب منها الزواج وترفض رغم علمها
أنها أحوج منه إليه..

يومًا جلس بها على المقعد الخشبي أمام نيل مصر
القديمة وأخبرها عن أحلام وكيف كادت تدخل السجن
لأنها أرادت شيئًا من رائحة حبيبها..

بعد تلك الليلة دخلت غرفة وحيدها لتحمل أغطية
فراشه وتضعها في إناء الماء وبيدها غسلتها جميعًا..

الرائحة لا تغنيك بل قد تقتلك وتشقيك.. أخبرها جبر
أنه تعب من روائح الماضي..

باع البيت العتيق وتنازلت عن شقتها ليضعا حصيلة
ثمنيهما على قرض كبير منحه له ياسين بعد إصرار كبير
ومناقشات طويلة..

اشترى جبر في العام الثاني لغياب مصطفى خط
إنتاج في مصنع صغير، وفي نهاية العام قام بتأجير
شقة الدقي ليتزوجا في مكان جديد لا يحمل من
الماضي سوى الرغبة في المستقبل..

هنا أنجبت صباح لتصبح قطعة الحلوى التي تضمد
جراح فراق مصطفى وموت أحلام..

هنا تزوجت جبر وأنجبت منه وتعلمت كيف تضحك
وكيف تبكي..

تعلمت أن هناك أمورًا يجب أن نخفيها حتى على
أنفسنا لكي نحيا ويحيا معنا من لا حيلة لهم في ذنوبنا
وخطايانا..

الركض وراء الماضي لا يعيده وانتظار الغد لا يعني
أبداً أن يأتي كما نريد..

فلترتشف من حنان جبر ولتفترف من حب بسمه
ولتمنح صغيرتها كأن أخوا لها لم ينكر حنانها وعطاءها..
يوماً يعود مصطفى!!

تكاد تغمض عينيها وتراه يطرق بابها ويعود بعد أن
علمته الحياة أن لا شيء على الأرض يساوي ذراعي أم
وأنفاسها..

قد يعود زائراً أو نادماً أو تائباً..

في كل الأحوال ستضمه إلى صدرها وتدعو الله أن
يغفر له وألا يسقيه أبناؤه كأساً سقاها منها وما زالت من
مرارها تتألم..

الحزن قدر والصدود قرار!!

شعرت بيد صغيرة تهز ساقها لتفريق على صوت
صباح تناديها..

انحنت مريم ترفعها عن الأرض وتجلسها على
ساقها..

ابنة جبر وأخت بسمه كما هي أخت الغائب.. أنجبتها
أحلام لتجدها مريم، وأنجبت هي مصطفى ليأخذه
أبوه!!

الأقدار تغزل الخيوط ربما بأصابعنا لكن بمشيئة الله
وحده..

خيوط تحكمها حول أنفسنا ومنها نبكي وعليها نحيا
ونموت!!

ضفها إلى صدره في حنان وهي تركض من بين
ذراعيه تحاول الهرب من شطيرة الخبز المغلفة بين
يديه لكنه أمسك بكفها الصغيرة قائلاً:

- أحلام.. الباص لن ينتظر طويلاً.. ضعيه في الحقيبة
ستأكلينه وأعدك أنك ستحبينه..

أضاف وهو يخرج بها عبر بوابة الفيلا ضاحكاً:

- أنا من أعددته وليست أمك.. هو طعام لذيذ وليس
طبيئاً..

ضمته في حب كبير وضافتها السوداء تتأرجح على
كتفها قائلة:

- لم لا تذهب معي إلى المدرسة ونقتسمه معاً!!

رفع كفه يرد تحية سائق الباص ونظر إلى كل صغار
المرحلة الابتدائية والروضة الذين يجلسون على
المقاعد مترقبين صعودها إليهم..

حتى سائق الباص ومشرفته يحبونها، ليس فقط لأنه
يجزل لهم العطاء، بل أيضاً لأن أحلام أجمل وأرق
البنات..

في الخامسة لكنها في براءة ونقاء رضيع كأنها من
رحم أحلام قديمة ولدت!!

حين غابت داخل الباص الذي تحرك بعيداً وهو ما
زال يلوح ويتمتم بالآيات القرآنية رفع رأسه إلى كل

الأبنية الشاهقة حول فيلا والده.. ملايين عرضت عليه
لبيعها لكنه لم يفعل..

سحب نفسًا عميقًا من صدره في طريقه إلى البيت
ليقف كعادته كل صباح بعد صعود أحلامه إلى الباص..
وقف يتحسس الالافنة التي تحمل اسم «عاصم
البيلاوي» على مدخل البيت..

أنقذ سامي أسعد هذا الاسم وأعادته يتصدر المدخل..
دفع أسعد الكثير من أجل بقاء بيت صديقه وبقاء
الاسم عليه فكيف يبيعه!!

ما زال الرجل يزورهم وما زال ياسين يسدد له الدين
الكبير..

ألفت تولت أمر المستشفى بالكامل بعد أن غيرت
نشاطه من مجرد مستشفى نسائي إلى مستشفى عام
تعاقدت فيه مع أطباء فيهم روحها وروح والده..
أعلن بعد عام من مولد ابنته أنه يتوقف عن مزاوله
الطب..

تضربه النوبات أكثر ورغم هذا هو يذهب لمتابعة
حسابات المستشفى والاطمئنان على سير الأمور..
ماتت ناهد منذ عامين ليعود بزوجته وابنته إلى
حيث ولد..

ماتت أمه في صمت وهي تحتضن مراتها على
فراشها..

منذ عاد هنا ولا شيء في حياته سوى محاضرتين
أسبوعيًا وزيارة واحدة أسبوعية إلى المستشفى
وحديقة البيت والبنات..

بسمة ابنة أحلام يراها تكبر تحت عينيه..

جبر يخطو بنجاح كبير في مصنعه الصغير ويقف هو
خلفه في إصرار وحب..

يريده أن ينجح.. يريد لبسمة أن تحيا كما تحيا
ابنته.. ليس شعورًا بالذنب لكنه شعور بالعرفان والحب..
حتى ألفت تحبها.. يوم تركت مريم العمل لديهم ما
انقطعت عنها..

أصبحوا أصدقاء.. يراها بعينيه تضم بسمة كما تضم
مريم أحلام..

دخل ياسين حديقة البيت وحمل الفأس وذهب إلى
حوض الزهور الكبير الذي يرعاه منذ عاد إلى الحياة
هنا..

زرع نبتة لزهر «الليلي» وأطلق عليها «بسمة».. زرع
شجرة ليمون كبيرة وأطلق عليها اسم «أسعد».. حين
أنجب جبر ابنته زرع تكعيبية الياسمين وأطلق عليها اسم
«صباح»..

سيرعاهم حتى يموت وإن مات في إحدى نوبات
رعشته أوصى بهم ألفت ويعلم أنها بعده تحمل الفأس
وتكمل الطريق..

ساعة كاملة انتهى بعدها من العناية بحديقة أحلام
كما يسميها..

ساعة أفاق بعدها على ألفت تناديه ليرفع وجهه
المصبوغ بحبات العرق يلوح لها يناديها وهي في
طريقها إلى سيارتها للخروج..

حين اقتربت منه قال في هدوء:

- هل تسمح الطبيبة الكبيرة لعامل الحديقة بعناق له
رائحة التراب والماء!!

في حنو كبير ضمته وهي تقول:

- بل له رائحة الزهر والحياة..

أغمض ياسين عينيه وهي على صدره قائلاً:

- آه يا ألفت من الروائح.. أجيال تموت وأجيال تبقى
عليها تعيش!!

ابتسمت وهي تبتعد قائلة:

- أيها الحكيم.. هناك امرأة تلد وتنتظرنني.. ادخل إلى
البيت

ولا تنس.. نحن مدعوون إلى بيت جبر هذا المساء..

أمسك بيدها قبل أن تدخل سيارتها وقال:

- هل حقًا لا تمنعين...

وضعت كفها على شفثيه تقول:

- إياك.. لا تقل شيئًا.. بسمة وأحلام وصباح بناتي..

صباح وُلدت على يدي.. بسمة حبيبة جبر وحببتك
أنت أيضًا.. ما عادوا بقايا أو روائح..

جبر ومريم أوفى وأجمل من عرفناهم.. لا تسألني
هذا السؤال مرة أخرى أبدًا!

ما عاد اسم أحلام يثير في قلبي شيئًا سوى الأمومة
وأظنه معك أيضًا..

حين غابت ألفت وعاد هو يلقي بجسده على مقعد
بين زهور حديقته ألقى برأسه إلى الخلف وأخذ ينظر
إلى سماء شهر ديسمبر..

كل شيء يذهب يأتي سواه..

كل زهرة تموت تنبت زهرة سواها فقط إن لم نفقد
الأمل وبقينا مع الأرض على عهدنا!!

كل شيء نظنه لا يعوض ونموت حفاظًا على بعض
من بقاياها تأتي الأيام بأشياء أخرى تمحوه أو تكاد..
ماتت أحلام، وُلدت بسمة..

وُلدت ابنته ماتت ناهد..

ماتت مريم يوم جردها ولدها، رزقها الله بصباح
وجبر..

ظلم جبر ويحمل ابنة قد لا تكون منه عوضه الله
رزقًا كبيرًا بل يكاد يراه لا يقل عنه ثراءً وجاهًا في
غضون أعوام قليلة..

كما الحسنات يُذهبن السيئات.. الحب والغفران
يمحوان الألم والخطايا..

ما زالت مريم تحيا بروح كسيرة لكنها دون شك
تضحك وتغني..

ما زالت ألفت تعاني من موت جزء في قلب ياسين
لكنها بحياتها معه ومع ابنتهما أيضًا هانئة..

الوجوه تبكي وتبتسم وإن بقيت القلوب مشروخة!!

هناك روائح تقتل وروائح تحيا ونحيا معها..

هناك بقايا بالصبر نغزلها بدايات وقصصًا من عطر..

لا أحد يعلم ولا أحد يختار!!

لا أحد أبدًا يختار!!!

«تمت»

إصدارات أخرى

- 1 - ديوان «وعادت سندريلا حافية القدمين».
- 2 - رواية «الحرمان الكبير».
- 3 - رواية «نساء... ولكن!».
- 4 - رواية «رغم الفراق».
- 5 - رواية «أريد رجلاً».
- 6 - رواية «أحلام ممنوعة».
- 7 - رواية من جزءين:
 - «أنا شهيرة».
 - «أنا الخائن».
- 8 - رواية «صولو».
- 9 - رواية «لاسكالا».

للتواصل:

www.noorabdulmajeed.com

Facebook: noor-abdulmajeed

Twitter: @noorabdulmajeed